
Bibliotheca Alexandrina
0166681








Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



دراسات فى تاريخ أوربا
في العصور الوسطى

— ١ —

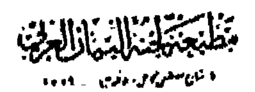
دولة القوط الغربيين

تأليف

دكتور ابراهيم على طرخان
مدرس تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب — جامعة القاهرة
فرع الخرطوم

١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى بالقاهرة


مطبعة لجنة البيان العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بينما انتهت حركات الجرمان بقيام ممالك جديدة غيرت من صفحة التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى ، لم تؤد حركات القبائل التترية إلى استقرار خطير ذى أثر مباشر فى المدنية ، غير أن هجرتها وغزواتها هامة من ناحية أخرى ، ألا وهى ضغطها المستمر على غيرها من العناصر البربرية مثل القوط الجرمان وغيرهم ، فاندفعت العناصر الأخيرة أمامها إلى حيث استقرت فى قلب العالم الرومانى (**Orbis Romanus**) .

ونظرة واحدة إلى خريطة أوربا فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، أى عند وفاة الأمبراطور ثيودسيوس (٣٩٥) ، ترينا خطورة الوضع الذى آل إليه أمر الأمبراطورية الرومانية ؛ فعلى ضفاف الراين والدانوب ، نجد أماكن تلك القبائل التى اقتطعت الكثير من أراضى الرومان ، والتى غدت مسألة المسائل ، إن لم تكن المسألة الوحيدة ، لأباطرة الرومان ، سواء فى الشرق أم فى الغرب .

وكذلك يمكن القول إنه إذا كانت الحضارة الهللينية والأمبراطورية الرومانية والديانة المسيحية ، العوامل الثلاثة التى سيطرت على التاريخ الأوربى حتى القرن الرابع الميلادى، فإنه منذ ذلك القرن فصاعدا ، برز عامل رابع انفرد بالسيطرة على هذا التاريخ ، ويتمثل هذا العامل فى ظهور الجرمان وتأسيس ممالكهم على انقاض الأمبراطورية الرومانية .

ومن ناحية أخرى ، إذا عُدَّ الفرنجة أهم عناصر الجرمان الغربيين ، فإن القوط أبرز عناصر الفريق الشرقى منهم ، فضلا عن أنهم أقوى العناصر الجرمانية

إطلاقاً وأكثرها عدداً ؛ ويليهم من حيث العدد الفرنجة ثم البرجنديون واللومبارد ؛ وكما أن الفرنجة لا حقون للقوط في مجال العدد ، فهم كذلك في المحل الثاني بالنسبة إليهم من ناحية المدنية والثقافة ؛ فالقوط ، من بين سائر العناصر الجرمانية أو التيوتونية ، لغة مكتوبة ، وأبجدية قوطية ؛ حقيقة كان للسكسون أبجدية ، لكنهم لم يكتبوا بها إلا في القرن السابع الميلادي ، يوم دوّنوا قوانينهم باللغة السكسونية ؛ واستخدام الكتابة عند شعب من الشعوب ، في تاريخه الباكر ، دليل حضارته وتقدمه ، بالقياس إلى الشعوب المعاصرة التي لم تظفر بهذه الميزة . هذا والقوط عامة ، والغربيون منهم على وجه خاص ، أول الشعوب الجرمانية اعتناقاً للمسيحية ؛ لهم ترجمة قوطية للأنجيل كتبها المبشر أولفيلاس القوطي في القرن الرابع الميلادي ؛ وهم الذين كوّنوا أمبراطورية مترامية الأطراف شمالي البحر الأسود خلال ذلك القرن ، على حين كان غيرهم من شعوب الجرمان لم يزل مضطرباً في مناطق مختلفة محدودة لم تبلغ مبلغ الأمبراطورية القوطية من قوة وسلطان . ثم إن القوط أكثر أقرانهم تأثراً بحضارة الرومان وأشدهم إلحاحاً في التشبه بهم ، بل إن أحد ملوك القوط الغربيين حاول مخلصاً أن يظفر بلقب « محيي العالم الروماني » ، وينفرد هؤلاء الغربيون ، عن سائر العناصر الجرمانية ، بما خلفوه من تراث قانوني عُدّ أعظم عمل قانوني صدر عن جماعة الجرمان ، ووجه الأهمية في هذا التراث نفسه وفي إدراكهم أهمية التقنين ، وهذا من أهم قواعد المدنية الحديثة ؛ وأخيراً لتاريخ القوط الغربيين أهمية خاصة من وجهة النظر العربية ، وهي اتصاله بالتاريخ العربي الأسلامي ، اتصالا كان من نتائجه قيام حضارة عربية اسلامية رفيعة في أرض أوربية ؛ وربما ظل الكيان السياسي لدولة القوط الغربيين في أسبانيا ، كما ظل الفرنجة في غاله ، لو لم يظهر العرب ، فالأخطار التي تعرض لها القوط من جانب الفرنجة أو البسقاويين (البشكنس) أو حتى من جانب روما الشرقية أو من جانب الأقليات القوية

الخاضعة لهم فى شبه جزيرة أيبريا مثل السويف (الجلالقه) واليهود ، هـذه لم تـكن شيئاً مذكورا إذا ما قورنت بموجة الفتوح الأسلامية وطبيعتها .

ولا يفوتنى فى هذه المقام أن أقدم أصدق الشكر لأستاذى الجليل الدكتور محمد مصطفى زيادة استاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة ورئيس قسم التاريخ بها، فهو صاحب الفضل الأول فى توجيهى إلى هذه الدراسة وإعانتى عليها، ولست هنا بصدد تعداد قدر الأستاذ ، فآثاره العلمية المتنوعة أبلغ منى بياناً .

القاهرة { غرة المحرم ١٣٧٨ هـ
١٨ يوليو ١٩٥٨ م }

إبراهيم على طرخان



مدخـــل

من هم الجرمان ؟ — مساكنهم — صفاتهم البشرية — أصولهم وأقسامهم — مدنيتهم الأولى : الحياة الاجتماعية — الحياة الاقتصادية — النظام الحربى والسياسى — حياتهم الدينيـــة — الهجرات والغزوات الأولى .

غزت القبائل الجرمانية الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، ولم يكن الرومان يعرفون شيئاً عن هذه القبائل ، وغاية ما عرفوه من خصومهم القدماء ، عنصر الغاليين (Galli) الذى ساد يوماً ما فى جرمانيا[1] ، ويوم احتك الرومان بالخصوم الجدد الذين يقيمون فيما وراء حدود أولئك القدماء ، أطلقوا عليهم اسم الجرمان (Germani) نسبة إلى المنطقة التى يسكنونها ، وتعنى فى ذلك الوقت الأراضى الموجودة فيما وراء الراين[2] ، ويبدو أنه لم يكن هناك اسم واحد يضم شتات قبائلهم أو يميز قبيلة عن أخرى ، فكلمة الجرمان جديدة على الجرمان أنفسهم وأجنبيـــة بالنسبة لهم ، وهى التسمية التى أطلقها الرومان على سكان جرمانيا[3] لإثارة الرعب والفزع ، نظراً لأن أول عنصر عبر الراين وداهم الغاليين جاء من جرمانيا ، ويدعى بالجرمان ، وهذا هو عنصر التونجريين (Tungri) الذى اشتهر فترة ما وعرف بالمقدرة الحربية ، ولم تزل حتى العصر الحاضر منطقة بألمانيا تحمل اسمه وهى دوقية تونجر (Tongres)[4] ولعل كلمة الجرمان مشتقة أصلا من كلمة ورمان (Wehr-Mann) بمعنى رجـــل الحرب .

---

(١) Ripley, p. 213; Tacitus, pp 311 - 18

(٢) Ibid, p. 286

(٣) Ripley, p. 213; Lot, p. 13

(٤) Tacitus, p. 289

أو المحارب ، وهى صفة انتحلتها قبائل السكسرنانيين (Cisrhenane) لما اشتهرت به من سمعة حربية عالية ، ورغم أن هذه القبائل فرع من شعب الترانسرنانيين (Transrhenane) الكبير ، فإن هـذا الشعب لم يأخذ بذلك النعت الذى انتحله فريق منه إلا تدريجياً و ببطء حين رأى تعميمه عليه لأنه قمين به وكفاء لصفاته العسكرية وشدة صولته فى الحرب[1] ، وبعد ذلك صار هذا اللفظ (الجرمان) علماً على جميع سكان تلك المنطقة .

— على أن هؤلاء الجرمان لم يشغلوا فى القرن الثالث أو الثانى قبـل الميلاد ، تلك المناطق التى شغلوها أو احتلوها فيما بعد ، كما أنهم لم يكونوا قد استقروا بعد على الضفة اليسرى للراين ، باستثناء قبائل السكسرنانيين سالفة الذكر ، أما المناطق التى تـكون ألمانيا الجنوبية وتضم اليوم بادن وورتمبورج وهس وفرانسكونيا وباڤاريا ، وكذلك النمسا و بوهيميا الحاليتين ، فهذه كانت مشغولة خلال تلك الفترة البعيدة بالعناصر الـكلتيه (Keltoi) ، ويحتمل أن يكون الجرمان قد خضعوا فترة ما لسيادة الـكلت[2] . فوجود عنصر معين بين الشعوب التى سكنت أواسط أوروبا وشمالها ، لم يعرف لدى شعوب البحر الأبيض إلا فى تاريخ متأخر نسبياً ، وقد تـكلم كتاب الأغريق عن مجموعات مختلفة من العناصر الـكلتية مثل الجلاتيين (Galati)[3] ، كما أن مؤلفى الرومان أمثال قيصر و بليني وتا كيتوس ، ميزوا بين الشعوب الـكلتية التى سرعان ما اصطبغت بالحضارة الرومانية ، والشعوب الجرمانية البربرية ، وكان تا كيتوس قد تـكهن بالأخطار التى سوف تهدد أوروبا من قبل هذا العنصر الأخير[4] .

---

(١) Tacitus, p. 280

(٢) Taylor, pp. 85 - 6; Lot, pp. 14 - 19

(٣) وصلت قبائل الجلاتيين الى شواطىء البحر الأسود حوالى نهاية القرن الثانى ومطلع القرن الأول قبل الميلاد ، وهى مختلطة بعناصر جرمانية مثل البستارن (Lot, p. 50) .

(٤) Lot, p. 13 ; Tacitus, p. 287

أما مساكن الجرمان الأولى فهي شواطىء البحر البلطى وجزره حتى شبه جزيرة جوتلاند بما فيها شلزويج وهولشتين ، وكذلك شبه جزيرة اسكندناوة ، التى كانت تعرف باسم سكانزيا أوسكين (Scanzia أو Skane)[1] ؛ والراجح أن اسكندناوة هي الوطن الأصلى للعناصر الجرمانية أو أنها كانت ملجأ لهم ، فسيطرتهم على تلك البقاع ترد إلى وقت غير معروف[2] . ويقال إنهم ظلوا يقيمون على شواطىء البلطى نحو ألف سنة[3] .

ومن حيث الصفات البشرية ، يلاحظ أن الجرمانى إتصف بضخامة الجسم والبشرة الناصعة البياض والخدود الوردية والعيون الزرقاء الحادة والشعر الأشقر ، مما أذهل السيدات الرومانيات[4] ، والجرمان بصفة عامة يتميزون بالخصب الجنسى وهذا ما ساعدهم على مغالبة الرومان والتفوق عليهم تفوقاً عددياً حاسماً[5] . وقد استرعت ضخامة أجسامهم بصفة خاصة المؤرخ تاكيتوس وغيره من المؤرخين ، حتى بدا كأن طول أغلبهم لا يقل عن ستة أقدام . والواقع أن نسبة الطول لم تزل مرتفعة فى سلالاتهم عن غيرهم من السلالات حتى العصر الحاضر ، ورغم أن الجرمانى شجاع إلى حد المغامرة ، فإنه لا يطيق الصبر على العمل اليدوى ، وقليل منهم من يستطيع تحمل مشاق العطش والحرارة ، بعكس الجوع والبرد اللذين تعودا عليهما ، تكيفاً بالمناخ الذى يعيشون فيه والتربة التى كثيراً ما تتحداهم ، وهو يتعشق الحرية المطلقة ، ويمتاز بالذكاء والقدرة على

---

(١) Taylor, p.102; Painter, p. 20; Hodgkin, 1, p. 33

(٢) Ripley, p. 213; Fleure, pp. 38 - 39; Lot, p. 15; Dennesly, p. 25

(٣) Boissonnade, p. 8

(٤) Lav. et Ramb., 1 p. 51

(٥) نشر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) حـ١ ص ٢٩ ، Tacitus, p. 291

كيفية الكلام مع كرم ونجدة ، غير أن هذه الصفحة المشرقة يشوبها الحق. إذا استبد به الغضب (١) .

ويدعى أغلب الجرمان نسبتهم إلى جد إلهى ؛ شأن الشعوب القديمة، وهذا ما يتضح من أغانيهم التى تعد سجلاتهم أو حولياتهم الوحيدة ، وهذا الجد هو الإله مانوس (Mannus) ابن الإله توستو (Tuisto) الذى قدسه الجرمان (٢) . انحدر عن مانوس ثلاثة أبنـــاء هم انجو (Ingo) وسلالته هم الانجويون (Ingaevones) واستو (Isto) وإليه ينسب الاستويون (Istaevones)، وثالث الأبناء هرمينو (Hermino) أبو الهرمينيين (Herminones) ؛ وهناك من الـكتاب من يضيف أبناء آخرين لهذا الإله انحدرت عنه مجموعات أخرى مثل المارسين ، (Marsi) والـكمبريفيين (Cambrivii) والسويفى (Suevi)والوندال (Vandali) (٣) .

تقطن فروع هذه الأصول السبعة أو هذه المجموعات السبع مواطن مختلفة بالبلاد الجرمانية . فأما الأنجويون فهم المقيمون على شواطىء البحر ، ويقيم الأستويون فى الجهات الغربية والهرمينيون فى الأجزاء الوسطى ، ويرى علماء الألمان أن هذه التسميات الأصلية لهذه المجموعات الثلاث تدل على مواطن الاستقرار أكثر من دلالتها على أسماء شعوب أو جماعات ، كما يتضح من معانى هذه الألفاظ بالمانية ؛ فـكلمة الانجويين تعنى بالألمانية (Die Inwohner)، بمعنى المقيمين فى الداخل تجاه البحر أى على الشواطىء أما الاستويون فتعنى

(١) Lav. et Ramb., I, pp. 51 - 2; Tacitus, p. 291

(٢) اشتهر الإله تويستو بأسماء أخرى مثل توت أو توتاتس (Teut ، Teutates) فى جميع أنحاء غاليا وأسبانيا ، وهو صاحب الفضل فى إخضاع وتمدين جزء كبير من آسيا وأوربا . وحول هذا الاله وابنه مانوس انتشر كثير من الأساطير.

(Tacitus, p. 287, F. N 8)

(٣) Lot, pp. 31 - 32; Tacitus, 288

(Die Westwohner) أى سكان الجهات الغربية ، على حين يدل اصطلاح الهرمينيين على معنى سكان الوسط (Die Herumwohner)[(1)] . ويسكن المارسيون أجزاء مختلفة بشمال غربى ألمانيا وكانوا بمنطقة الرور (Rura) حين اصطدموا بضربات الجيش الرومانى بقيادة دروسس الرومانى (Drussus) (عام ١٤م) فقد أبادهم تحريقاً وتقتيلا[(٢)] ، وموطن الكمبريقيين غير معروف بالضبط[(٣)] ، أما السويف فيشغلون أغلب أجزاء الوطن الألمانى وامتدت مساكنهم تقريباً بين نهرى الألب والفستولا والبحر البلطى ونهر الدانوب بل وصلوا فى توسعهم حتى الراين ، وهم موزعون فى مناطق مختلفة بأسماء متباينة ، فمن فروعهم السمنونيون (Semnones) الذين يعتبرون أقدم فروع السويف وأنبلهم ، ونظراً لأنهم أكثرهم عدداً وقوة إذ يشغلون نحو مائة فرع (Canton) فى حوض نهر الأودر (Viadrus) فهم يعدون أنفسهم رأس العنصر السويفى قاطبة[(٤)] . وأما الوندال أو المتجولون[(٥)] ، فأقاموا بعد تجوالهم فى أعالى نهرى الأودر والفستولا بجوار البرجنيين[(٦)] .

هذه هى المجموعات السبع الأصلية التى أوردها تاكيتوس وإليها يرد عدد كبير من القبائل والجماعات الفرعية ؛ على أن المؤرخ الرومانى بلينى (Pliny) يرى أن أصول العناصر الجرمانية ترجع إلى خمس مجموعات أو قبائل رئيسية ، وهو يتفق مع تاكيتوس فى المجموعات الثلاث الأولى ويختلف فى المجموعات

---

(١) Tacitus, pp 288 - 89

(٢) أنظر : Lot, p. 32

(٣) Tacitus, p. 288

(٤) Tacitus, pp. 330 - 31

(٥) يقال إن كلمة الوندال مشتقة من الفعل الألمانى (Wendeln) بمعنى يتجول أو يرحل وقد بدا خطرهم منذ القرن الثانى الميلادى على عهد أوروليوس (Tacitus, p 288) .

(٦) Lot, p. 32

الأخرى حين يعتبر السويف مثلا فرعا من الهرمينيين[١] ومهما كانت الاختلافات في الجاميع الأصلية أو الفروع الثانوية فالثابت نسبة أغلب الجرمان إلى أصول مقدسة في نظرهم .

أما تقسيم العناصر الجرمانية إلى شماليين وغربيين وشرقيين ، فأساس هذا التقسيم هو الوضع الجغرافي لفروع هذه المجموعات . فأما الشماليون فهم الذين آثروا البقاء في شبه جزيرة اسكندناوة وما حولها من شواطىء البلطى حيث تفرعت عنهم الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية[٢] . أما الحد الفاصل بين الشرقيين والغربيين فهو نهر الألب (Albis) إلى حد ما ورغم تشابه هذه العناصر جميعها في كثير من النواحي ، إلا أنهم اختلفوا في بعض العادات والمصائر[٣] . وتمتد مساكن الشرقيين بين الألب والفستولا والبلطى والبحر الأسود على حين انتشر الغربيون بين الألب والراين[٤] ، وليست هناك صلة بين هذا الوضع الجغرافي (شرقي وغربي) وبين التهديد الذي حاق بقسمي الإمبراطورية الرومانية الشرقي والغربي ، فإن الجرمان الشرقيين هم الذين حطموا الإمبراطورية الغربية في تجولاتهم وحركات التأسيس لممالكهم[٥] ، بينما كان الفرع الغربي منهم هو الذي اصطدم به ماريوس وقيصر قديما[٦] .

ومن أشهر قبائل الجرمان الغربيين السويف بفروعهم[٧] ، ويجاورهم الثورنجيون (Thuringians) وهم الذين عرفوا قديما باسم الهرمندور بين

(١) Tacitus, p. 288

(٢) فشر (نفسه) جـ ١ ص ١٦ .

(٣) C. med. H. (sh.), 1, pp. 38 -

(٤) أنظر تقسيم الأستاذ لوت Lot في كتابه ص ٣٠ — ٣٢ .

(٥) C. med. H., 1, p. 39

(٦) فشر (نفسه) ص ١٦ ، أنظر ما يلي ص

(٧) أنظر ما سبق ص ٥ .

(Hermunduri) وكانوا أصدقاء للرومان غير أنهم انقلبوا ضـدهم منذ عهد أورليوس[١] وأكثر من هؤلاء مغامرة قبائل الألمان (Alemanni) المعـاهدة وهى خليط من قبائل مختلفة كما يدل على ذلك إسمهم (All-mann)[٢]، فشلا خضع فرع السمنيين السويفى لهم واندمج فيهم[٣]. والألامان من العناصر القديمة التى غزت الغال ورغم أنهم معاهدون إلا أنهم شديدو العداء للرومان فاحتلوا منطقة بادن وورتمبورج التابعة للرومان بعد أن دفعوا أمامهم البرجنديين وأخذوا يغيرون على حدود الإمبراطورية فى أعالى الراين والدانوب ، وعلى الشاطىء الشرقى للراين يقطن شمالى الألمـان ، عنصر معاهد آخر يتكون من قبائل مختلفة مثـل الشاماڤيين (Chamavi) والشاتواريين (Chattuariens) والساليين (Saliens) والبركتيريين (Bructeri) وكذلك انضم إلى هذه المجموعة الكاتيون (Citti) أو الهسيون ، وليس هناك إسم جامع أو اصطلاح شامل لهذه المجموعة ، ولـكن عبّر عنها فى القرن الثالث الميلادى بإسم الفرنجة[٤] . وفى المناطق الساحلية لهولندة وهانوفر الحاليتين يقيم الفريزون (Frisii) أما السكسون المتوحشون فيقيمون شرق الفريزيين ، ويتـكونون من قبائل مختلفة واشتهروا منذ القدم بذوى الأسلحة القصـيرة نظراً لأنهم مهروا فى الملاحة والقرصنة وأسلحة الملاحين عادة تكون قصيرة ، وفد هؤلاء من هولشتين وشهرتهم القرصنة لأنهم داموا السطو على السواحل القريبة منهم كسواحل الغال وبريطانيا ، حتى أنه لما كثر تهديدهم لشواطىء بريطانيا عهد دقلديانوس وزميله مكسيميان لكاروسيوس (Carausius) قسيمهما الثالث فى الوظيفة الإمبراطورية ، عهدا إليه بمهمة الدفاع عن بريطانيا

---

(١) Tacitus, p. 333

(٢) Lav. et Ramb., I. 88. 48-9

(٣) Tacitus, p. 31

(٤) Lav. et Ramb., I, p 48, Tacitus pp 321 - 23, Lot, p. 32
Painter, p. 20

وشمالى الغال ضد القراصنة [1] . ويقرب من السكسون فى اللهجة والعادات أشقاؤهم الأنجليز (Angli) الذين أقاموا كذلك فى هولشتين وشلزويج ، ولم تزل بهذه المنطقة مقاطعة تحمل إسمهم هى مقاطعة أنجلن (Angeln) [2] . وفى شبه جزيرة جوتلاند يوجد عنصر الجوت (Jutes) [3] . وهنالك عنصر الوندال (Vandals) [4] الذى استأنف هجومه على الإمبراطورية فاشترك مع السارماتيين (Sarmatians) وهاجموا منطقة بانونيا [5] .

وأما الجرمان الشرقيون فمن أشهر قبائلهم ، الجبديون (Gepidae) الذين كانوا يقيمون فيما هو ترانسلفانيا الحديثة وهم أقل حركة وعنفاً من غيرهم ، وعلى شواطىء بحر آزوف تقيم جماعة من الهروليين (Heruli) أعظم القبائل الجرمانية وحشية [6] ، ومن فروع الوندال فرع يسمى السيليين (Silings) استقر فيما عرف بإسم سيليسيا نسبة إليهم ، كذلك استقر الروجيون (Rugians) فى شمالى جبال السكربات [7] . أما اللومباردبون (Lungobards) — ويسميهم العرب لنكبرده — فقد نزلوا فى وادى الألب الأدنى منذ عهد أوغسطس ولم تزل مدينة بارد بجاو (Bardengau) تحتفظ بإسمهم إلى اليوم ، غيروا مساكنهم بعد ذلك خلال تحركاتهم [8] ثم إن بعض البرجنديين شقوا طريقهم نحو الغرب واستقروا

---

(١) Lot, pp. 33 - 4

(٢) Tacitus, p. 332

(٣) C. med. H., 1, p. 41

(٤) أنظر ما سبق ص ٥

(٥) تشمل سارماتيا كل المنطقة الواقعة شرق الفستولا ، ويلاحظ أن السارمات سكان هذه المنطقة ليسو من الجرمان وإنما هم إيرانيون ، وأما بانونيا (Pannonia) فتشمل جزءاً من المجر والنمسا الحاليتين (Lot, p. 35 ، Tacitus, pp. 286 - 340)

(٦) Lot, p. 52

(٧) ترك الروجيون اسمهم على جزيرة روجن (Rügen) فى البحر البلطى

(Tacitus, p. 333; Lot, p. 32)

(٨) Lot, p. 32, Tacitus, p. 331

بين الأودر والفستولا منذ القرن الأول الميلادى ولا يزال إسم البرجنديين يطلق فى مساكنهم الأولى على جزيرة بالبحر البلطى وهى جزيرة (**Bornholm**) وكانت تسمى (**Burgundarholm**)[1].

على أن أعظم قبائل الجرمان الشرقيين عند الإطلاق ، عنصر القــوطام (**Goths**) وهذا ما سنفرد له الحديث فيما بعد بصفة عامة وللقوط الغربيين منه بصفة خاصة .

هذه هى خلاصة عامة عن أصول الجرمان وأقسامهم ومساكنهم حتى نهاية القرن الثالث الميلادى تقريباً . أما عن أحوال هــذه الشعوب ومدنيتهم فأول ما يسترعى النظر هو حياتهم الاجتماعية . وأبرز ظاهرة فيها هى عادة شرب الخمر المنتشرة بينهم ولعل للمناخ دخلاً فى هذا ، فهــم يشربونها حتى الثمالة ويهيمون فى عالم الشراب والأحلام ، والشاذ فيهم هو الذى لا يشرب[2]. يصنعون خمراً نقية من الشعير والقمح ، ربما أشبهت ذلك النوع الذى اشتهر فى عصر المماليك بصفة خاصة ويسمى « المِزْر »[3]. على أن هذا الشراب الوطنى لم يكف الجرمان فـكان المقيمون منهم بجوار نهر الراين يشترون النبيــذ من التجار الرومان ، ولـكثرة إقبــال الجرمان على الشرب ، زرع أصحاب الضياع ورؤوس الأموال من التجار الرومان حدائق الـكروم فى حوض الراين لمدهم بالنبيذ وليس لتصديره إلى إيطاليا[4] ومع ميل الجرمانى إلى الشراب والمغامرات ، فإنه كان يقنــع بزوجة واحدة ، ويندر من يشذ على هذه القاعدة ، وجرت العادة فى مراسيم

---

(١) Bury 1, pp.96-106; Davis, p. 21 ; Lot, p. 33; C. med, H. 1, p.40

(٢) Tacitus, p. 313 ؛ فشر (نفسه) ص ١٥ .

(٣) المزر شراب قديم عرف منــذ العصر الجاهلى ، ويصنع من الشعير والذرة ، وقد عرفته اليمن بصفة خاصة ، وظل معروفا ، وتعرض فى عصر المماليك كغيره من المسكرات للإباحة أو التحريم خلال العهود المختلفة .

(٤) Lav. et Ramb , 1, p. 52

الزواج أن يقدم الزوج لأهل الزوجة هدية تضم جواداً مطهما ودرعاً وحربة وسيفاً وعدداً من الثيران ، وبمقتضى هذه الهدية أو هذا الصداق يتم عقد الزواج ، وبالتالى تقدم العروس إلى زوجها كمية من الأسلحة كهدية منها ، وهدية الأسلحة فى نظر الجرمانى أوثق رباط وآكده للحياة الزوجيـة [١]. والفجور فى المجتمع الجرمانى نادر ، ولا يعرف الزوجان شيئاً عن علاقات خائنة أو مريبة ، وإذا صادف ووقعت خيانة وثبتت ، عوقبت الزوجة بقلع الشعر والتجريس فى القرية ، وعند السكسون القدماء كانت العقوبة صارمة ، منها أن تجبر الزانية على قتل نفسها شنقاً ثم تحرق جثتها ، وفوق الرماد المحترق يصلب الزانى ، وأحياناً يشهر بها وتعذب فى القرى المجاورة ويصحبها جماعة من النساء اطعنها بالمدى والأسياخ ، وكلما مرت بقوم قابلوها بلون جديد من العذاب نظراً لغيرتهم الشديدة للعفة ، فلا يتركونها إلا جثةهامدة . وقد أورد بولص أروز (P. Orose) أسقف غاليسيا [٢] ، وصفاً شاملاً مفرقاً بين بعض العناصر البربرية من الناحية الخلقية ، وقد خبرهم عن قرب و إن كانت هذه الخبرة قد جاءت فى تاريخ متأخر نسبياً قال : « إن القوط غدارون مخادعون ، غير أنهم أعفة أطهار ، والألان (الألان قوقاز يون) أكثرهم إفراطاً فى الأكل والشراب لكنهم أقل غـدراً وخيانة ، أما الفرنجة فهم كذابون ولكنهم كرماء مضيافون ، وينفرد السكسون بالغلظة والقسوة المفزعة ، ومع ذلك فلا يعدمون شيئاً من صفاء الخلق » [٣].

وفى أوقات الفراغ ، وعادة ما تجىء هـذه الأوقات بين الحروب ، يشغل الجرمانى نفسه فى قليل من الصيد وكثير من الدعة والراحة ، موزعاً هذه الدعة

---

(١) Tacitus. p. 308

(٢) لهذا الأسقف مؤلف فى التاريخ صنفه حوالى عام ٤١٧ م ، ومن أرائه فى البرابرة عامة أنهم عندما يستقرون لا يلبثون أن يصبحوا أصدقاء للوطنيين .
(Lavisse., p. 204 ; Dozy, II, pp. 16 - 17)

(٣) Pirenne (J.), p. 430

بين الفراش والمائدة ، ومن المتناقضات فى حياة الجرمانى أنه رغم ما جبل عليه من حب المغامرات وركوب الأخطار وإيثار هذا النهج عما سواه ، يترك الأشراف على شئون المنزل وأراضيه الزراعية إلى زوجته وكبار السن فى أسرته ، تاركا لنفسه العنان لأخذ أكبر قسط من الراحة فى وقت فراغه ، فهو لا يؤمن بشىء سوى أمرين : إما حرب فيحارب وإما فراغ فراحة وسكون ، وفيما عدا ذلك من شئون الحياة ، يجب أن يتولاه غيره [١] ومع ذلك فقد كان الجرمان عامة ، ولاسيما فى فجر احتكاكهم بالرومان ، يصحبون نساءهم وأطفالهم فى الحرب إذ كانت غزواتهم أقرب إلى الهجرات منها إلى الأعمال الحربية البحتة ، واشتركت النساء فعلا فى الحرب ، رآهن ماريوس فى حربه ضد السكمبرى ، كما شاهد ذلك ماركوس أورليوس يوم حارب الماركومان ، والسكوادى وأحلافهم [٢] .

ثم إن الجرمانى قد جبل على الأخذ دون العطاء ، يسره جداً أن يحصل على هدايا من الشعوب المجاورة ، ليس فقط من الأفراد ، ولكن من الشعب ككل ، وأفضل أنواع الهدايا فى نظره الجياد الكريمة والأسلحة والسناكن أو السلاسل الذهبية ، وعلى عهد تاكيتوس ، أى فى مطلع القرن الثانى الميلادى تعلموا كيف يقبلون النقود [٣] .

ومساكنهم فى منازل مفرقة فى القرى وليست فى المدن ، وعلى الأقل فى فجر تاريخهم ، ويحيط بكل منزل فناء كبير متسع ، أما خشية أخطار الحرائق أو جهلا بفنون العمارة [٤] ، ويملأ الأثرياء منهم منازلهم بالخدم من أسرى

---

(١) Tacitus, p. 305

(٢) Ibid, p. 296

(٣) Ibid, pp. 305 - 6

(٤) Ibid, p. 306

الحروب[1] . أما الملابس العادية فهى عبارة عن وشاح أو عباءة (Rheno) تغطى الكتف والصدر حتى أول البطن و يشد هذا الدثار إلى العنق بشبك ، وهذا الزى خشن غليظ لا ينفذ منه المطر ، ويتميز الأثرياء فيهم بصدرية مقفلة بشكل يظهر كل أعضاء الجسم ، وليست مفتوحة كما هو الشأن عند السارمات والبارثيين ، ثم هم يلبسون جلود الحيوانات ، غير أن الجرمان يختلف بعضهم عن البعض الآخر فى مدى الاهتمام بنوع الجلد أو العناية بأعداده وصبغه بالألوان الزاهية ، فالقريبون منهم من الحدود والأمبراطورية ، وإن لبسوا الجلود ، أقل اهتماماً بها من أولئك القاطنين فى الأطراف القاصية حيث يصعب الحصول على غيرها من أنواع الملابس التى يحصل عليها القريبون منهم ، فأولئك يعنون أشد العناية باختيار أنواع معينة من الجلود وتزيينها بالألوان ، و بالقطع الفاخرة من أنواع الفراء المختلفة الألوان . ولا تختلف أزياء النساء عن أزياء الرجال ، فيما عدا أن النساء كثيراً ما يلبسن الكتان المصبوغ باللون الأحمر ، وجرت العادة أن يترك النساء أذرعتهن وجزءاً من صدورهن عارياً[2] .

هذه صورة عامة لحياة الجرمان الاجتماعية الخاصة ، أما الطبقات فى المجتمع الجرمانى القبلى ، فهى ثلاث : الطبقة الدنيا وأعضاؤها من بعض السكان المغلوبين الذين يتولون الأعمال الزراعية ، ومن الأرقاء المرتبطين بالأرض ، ومن الأرقاء من اشترى بالمال بسعر العبد حصان أو عدد من الثيران ، ومنهم من أسر فى الحروب ؛ والطبقة الثانية من طبقة الأحرار وتمتلك بعض الأراضى ، وهذه تكون أغلب السكان ، ومن بين هذه الطبقة يختار المحاربون . والطبقة العليا هى الطبقة النبيلة التى تمتلك الضياع الواسعة ومن هذه الطبقة أسرات الملوك والحكام والقادة ورؤساء الوحدات (Gauen) ومن أعرق الأسرات

---

(١) C. med. H., I, p.31, Lot, p. 15, Deanesly, p 25, Moss, p. 41

(٢) Tacitus, pp. 301 - 308

النبيلة فى هذه الطبقة يختار الملك ، والعادة أن هذه الطبقة النبيلة تدعى نسبتها إلى أصول مقدسة (١) والجد الإلهى الذى يعتبر أبا للجميع هو أودين (Odin)، إله الحرب ، ومن حق كل عضو من أعضاء الطبقة النبيلة أن يكون له أتباعاً خصوصيين من الأحرار تكون خاصته ، وخاصة الملك عادة من الطبقة الأرستقراطية ، وتحضر مائدته كما تكون حرسه الخاص فى المعركة (٢) ، ومن المظاهر البارزة فى المجتمع الجرماني إخلاص أولئك الأتباع الذين يلازمون سيدهم فى المغامرات الحربية ، بحيث أنهم كانوا يقاتلون بجانبه حتى الموت ، فإذا حدث وغلب هذا السيد فى مغامرته أو قتل فى المعركة آثر هؤلاء الموت بجانبه على الهرب أو التسليم (٣) .

ويختلف الأساس الاقتصادى للمجتمع الجرمانى عن غيره من المجتمعات القبلية البدائية الأولى ذلك أن الجرمان لم يعتمدوا على مجرد الصيد أو القنص أو الرعى ، وما تتطلبه مثل هذه الحياة من دوام النقلة وعدم الاستقرار ، وإنما صاروا إلى شيء من الحياة الزراعية المستقرة وذلك منذ زمن تاكيتوس (٤) ، والزراعة تتطلب الاستقرار ، والاستقرار لا شك أولى المراحل فى نشوء المدينة ، حقيقة إنهم شعوب جائلة فى جملتها ، لكن إذا كان هذا ينطبق على حياتهم الأولى ، فإنهم لم يعودوا كذلك فيما بعد ، أى منذ القرن الثالث الميلادى فصاعداً ، فقد كانوا يبحثون عن أوطان جديدة يستقرون فيها أو أرض زراعية يستثمرونها .

فالزراعة فى الواقع هى أساس حياتهم الاقتصادية ، ولا يهمنا أنهم مارسوها بالطرق البدائية ، عرفوا المحراث والثور والغنم وزرعوا القمح والشعير ، وتوجهت

---

(١) Thompson, p 41; Lav. et Ramb., I, p.53

(٢) Moss, pp 41 - 42 ; 'Eyre, p. 13 ; Boiss., p. 10

(٣) Boiss; p. 9 ; C. med. H. I, p 8. 31 - 8

(٤) لشر (نفسه) ص ١٩

تحركاتهم لهدف الحصول على أرض زراعية فتية صالحة للزراعة ، وكان من السهل لديهم الحصول على هذه الأرض بالفتح والاستيلاء ، لا بطريق الإصلاح وقطع الغابات ، فالفتح أفضل فى نظرهم وآثر من مشقة الإصلاح أو التمهيد ، ومن هنا جاء استعدادهم للرحلة والنقلة وتغيير مساكنهم وأوطانهم فى سبيل وضع اليد على أراضى أكثر خصوبة ، كلما تحدتهم البيئة التى يعيشون فيها ، وجرت العادة أن توزع الغنائم من هذه الأراضى حصصاً بين الأسر الجرمانية الفاتحة(١) .

من هذه الناحية يتميز الجرمان عن جيرانهم من البدو الرحل الذين يضربون فى المنطقة الرعوية فى قلب آسيا ، حيث الرعى أساس حياتهم ، ولما لم تكن هناك حدود جغرافية أو سياسية واضحة المعالم ، بينهم و بين جيرانهم ، فإن حوادث المجاعات التى كثيراً ما تقع فى منطقة أوراسيا ، كانت من أسباب الضغط الذى أدى إلى دفع الجرمان أمام هؤلاء البدو(٢) .

لكن ليس معنى هذا أن الجرمان لم يعملوا فى الرعى أو الصيد ، بل أن الرعى والصيد ظلا يحتلان ركناً هاماً من حياتهم الاقتصادية فقد كانوا وهم على حدود الامبراطورية الرومانية يتاجرون مع جيرانهم من التجار الرومان ، عند حدود الراين والدانوب ، يشترون من الرومان النبيذ والأقمشة والأسلحة فى نظير المبادلة معهم بنتاج رعيهم وصيدهم وذلك قبل أن يعرفوا النقود . على أن التاجر الأجنبى كان يعد فى نظر الجرمان عدواً تحل استباحة ماله ، فلم تكن هناك ضمانات كافية تحميه وماله من أخطار السرقة والسلب وسط الجموع الجرمانية(٣) ويلاحظ أن الهرمندوريين (Hermenduri) على ضفاف الدانوب ، هم الوحيدون

---

(١) فشر (نفسه) ص ٢٠ ؛ Boiss., pp. 11 - 12 :

(٢) Perroy, III p. 11 ؛ Eyre, p. 13 ؛ Deanesly, pp. 21, 25

(٣) Tacitus, p. 333 ؛ Eyre, p. 13 ؛ Boiss., p. 13

الذى سمح لهم بالمتاجرة داخل الأراضى الرومانية ، وكانوا مخلصين للرومان لكنهم لم يظلو على إخلاصهم[١] .

ومن حيث النظام الحربى والسياسى ، لا شك أن الجرمانى حربى بطبعه وتكوينه الجثمانى لحياته القاسية تطلبت منه مثل هذه الصفة ، حتى أنه فى حياته العادية كان لا يؤدى عملا خاصاً أو عاماً ألا وهو فى سلاحه الكامل ، حتى القاضى فى محكمته . لكن لا يسمح لأحد بحمل السلاح ما لم يكن أدرا على استعماله[٢] . والدعوة إلى الحرب أقدس نداء تتحتم الاستجابة له ، فإذا ما رفض أو أهمل ، عوقب بالشنق[٣] . ومن العار على القائد فى المعركة أن يفوقه أحد فى الشجاعة والإقدام كما أن من العار على الجنود ألا يحاولوا التشبه بقادتهم .

والفرار من المعركة أسوأ ما يطالخ به شرف الجرماني طوال حياته ، فمهمة القائد وهدفه الفوز بالنصر ، ومهمة الجنود مساندته وحمايته لبلوغ هذا الهدف ، وبلغ من استماتة الجرمانى فى الحرب وإخلاصه لقائده ، أن آثر مائتان من الجنود وثلاثة من الأصدقاء الأسر بجانب ملكهم كوندوماروس (Chondomurus) ملك الألمان الذى وقع أسيراً فى يد الرومان ، آثر هؤلاء الجنود أن يصفدوا بالسلاسل معه ، فليس من الشرف لديهم أن يضحوا برئيسهم أو ألا يموتوا من أجله[٤] .

وتوجد جمعية من المحاربين الأحرار تعرف بإسم (Thing) هى صاحبة الحق فى انتخاب الحكام وإعلان الحرب وإبرام المعاهدات ، كذلك من حقها

---

(١) Tacitus, p 333

(٢) Tacitus, p. 303

(٣) هناك عقوبات أخرى ، والملاحظ أن هذه العقوبات ظلت قائمة حتى بعد تأسيس الممالك الجرمانية ، وقد نص عليها فى التشريعات القانونية ، كما فى القانون السالى للفرنجة والقانون اللومباردى (Tacitus, pp. 301 - 302)

(٤) Tacitus, d. 304

إضافة أعضاء جدد إليها ، كلما دعت الحاجة ، وتدعى إلى الانعقاد كما يفض انعقادها بواسطة الملك ، أو رئيس الوحدة (gaus) فى القبائل التى لم تأخذ بالنظام الملكى[١] .

ومن القبائل التى أخذت بالنظام الملكى المدعم الماركومان والكوادى والروجيون والليموفيون (Lemovii) والقوط[٢] .

وتراعى هذه الجمعية فى انتخاب الملك أرستقراطية المولد والمقدرة الحربية أو القدرة الخطابية ، بجانب التأثير وقوة الشخصية أكثر من مجرد القدرة على الحكم ، ولهذا ليس لملوك الجرمان سلطة مطلقة أو غير محددة ، فسلطتهم مقيدة بقرارات الجمعية ، وقد وصف أحد ملوك الجرمان مدى ما يتمتع به من سلطة ونفوذ على رعاياه بقوله بأنه ليس له من السلطة على الرعايا أكثر مما لهم عليه[٣] ، ويدل هذا على بعض الميول الديموقراطية ، وهو ما كان سائداً عند أغلب العناصر الجرمانية[٤] وكان له أثره فى تشريعاتهم الدستور فيما بعد . وجرت العادة أنه إذا عرض الملك اقتراحاً للجمعية ولم يظفر بالقبول عبرت الجمعية عن ذلك الرفض ، بالتذمر الغامض ، وفى حالة الموافقة ضرب أعضاء الجمعية رماحهم بعضها ببعض ، فليس أروع وأشرف من صوت السلاح دليلا أو تعبيراً على الموافقة والرضا فى نظرهم[٥] . والملاحظ فيما يتعلق بالحاكم الأعلى ، أن بعض القبائل الجرمانية كان يقتصر على انتخاب قائد مؤقت لإدارة المعركة الحربية ، أو رئيس الوحدة ليرأس اجتماع الجمعية ، ووجد هذا التقليد عند الألمان والفرنجة ، وفى بعض القبائل كان الحكم لرجال الدين الذين تمتعوا بسلطة كبيرة . هذا وللجمعية

---

(١) Thompson, p. 42 ؛ C. med. H., I, p, 40

(٢) Tacitus, pp. 334, 36 - 37

(٣) Tacitus, pp. 295, 301

(٤) C. med., H., I, p. 31 ؛ Lav , et Ramb., I, p 53 ؛ Moss, p, 40

(٥) Tacitus, p, 300

جلسات خاصة يعقدها رؤساء الوحدات فقط للأمور البسيطة ، أما الأمور الهامة فيشترط حضور جميع الأعضاء[١] .

أما الجيش الجرمانى ، فكان يجمع من الوحدات[٢] التى تنقسم إليها القبيلة[٣] ، وهى أقسام إدارية كبرى ، وهذه الأقسام الكبرى تنقسم بدورها إلى أقسام فرعية (Hunderte) ويقابلها فى اللاتينية (Viol) ، يصدر قرار حربى (Heribannum) بالدعوة إلى الحرب ، فترسل كل وحدة عادة مائة محارب من الأحرار وهذا هو الحد الأدنى الذى ينبغى أن ترسله الوحدة ، وفى بعض القبائل القوية مثل السويف ، الذين تتكون وطنهم من مائة وحدة ، كانت الوحدة ترسل ألف محارب[٤] .

وتنقسم فرق هذا الجيش ، كما هو الشأن عند قدماء الرومان والإغريق إلى كتائب يتراوح عدد أفرادها من ١٠٠٠ إلى ١٠٠ إلى ١٠ ، وهذا تقسيم عشرى قديم وجد فى الغرب كما وجد فى الشرق عند المغول ، وفى الجيوش الإسلامية ولا سيما فى عصر المماليك ، حيث تقابلنا اصطلاحات : أمير عشرة . أمير عشرين . أمير أربعين الخ ··· ، وحتى فى الجيوش الحديثة . وتعد فرق الفرسان أقوى وأهم الفرق بعد إن كانت الأهمية لفرق الرجالة سابقاً ، وذلك قبل أن يمرنوا على ركوب الخيل ، وظلت فرق الفرسان كذلك عند دولة القوط الغربيين حتى زوال دولتهم ، والملاحظ أن الفرنجة من بين القبائل الجرمانية كانت الفرق الهامة لديهم هى فرقة الرجّالة وليست الفرسان وكذلك كان الشأن عند الكاتيين (Catti) ؛

---

(١) Tacitus, p. 300; C. med. H., 1, p. 40; Moss, p. 41; Boiss, p. 9

(٢) يقابل هذه اللفظة : (Cantons) بالانجليزية وباللاتينية (Pagi) .

(٣) تعنى القبيلة (Tribe) كذلك فى المجتمع الجرمانى الشعب أو الوطن (Nation) .

(٤) Lav. et Ramb.; 1, p. 53; Tacitus, p. 295 ، أنظر تطور هذا النظام عند القوط الغربيين فى أسبانيا فيما بعد .

ومن القبائل التى اشتهرت بفروسيتها المنظمة قبيلة التنكترين (Tencteri) فى حوض الراين وعلى ضفتيه [١] .

وأسلحة الجرمان المألوفة هى الدروع التى صنعت فى أول الأمر من الخشب المغطى بالجلد ، وذلك لقلة المعادن لديهم ، كما أن الخوذة أو غطاء الرأس كان يصنع من الجلد السميك ثم صار يصنع من الحديد ، والحربة (Franea) أهم سلاح لديهم ، فهو السلاح الأساسى ، ثم استعملوا السيوف والقوس والنشاب والأطبار ، كما استخدموا الهراوات الغليظة (Clubs) والملاحظ أنهم عنوا بزينة أسلحتهم ولا سيما الدروع فكانت تلون بالألوان الزاهية ، وكانت هذه الألوان تدل على الشجاعة والمقدرة ثم أضحت بعد ذلك شارة النبلاء ، وتعد هذه الألوان أصلا للشارات التى اشتهرت فى عصر الفروسية والإقطاع ، وهى التى تعرف ـ بالرنوك ـ فى المصطلح الإقطاعى المملوكى . ولهم نظام معين فى التعبئة عند المصاف حيث ترتب صفوف الجيش على شكل رأس الخنزير (Boar's Head) فى المصطلح العسكرى ، وذلك أن تكون الفرقة ضيقة فى المقدمة وتتسع تدريجياً نحو الساقة ، ويمكنهم هذا النظام من ضرب أصحاب الرتب فى جيش العدو إذ أن أسلحتهم فى هذا الوضع تتجه كلها إلى موضع واحد . ومن العار على الجندى فى المعركة أن يترك درعه إذا سقط منه ، ومن تثبت عليه هذه التهمة ، عوقب بالحرمان من حضور حفلات الطقوس الدينية وعضوية الجمعية العمومية ، ولذا نجد الكثير من هؤلاء لا يطيقون الحياة بهذه الذلة ، فيؤثرون الموت منتحرين ، ولشناعة هذه التهمة فى نظر الجرمان ، نص القانون السالى — عند الفرنجة فيما بعد — على ضرورة التأكد من ثبوت التهمة على المذنب بفرض غرامة كبيرة على من يتهم أحداً بهذه التهمة ويعجز عن إثباتها [٢] . وتحصيناتهم الوحيدة عبارة عن أسوار

---

(١) Tacitus, pp 320 - 22

(٢) Tacitus., pp. 292 - 295

دائرية أو إقامة صفوف من العربات المقفلة ، واستخدموا فى أسفارهم ومغامراتهم البحرية الزوارق التى تبلغ حمولة الواحد منها ٣٠ شخصاً ، وهى من نوع سفن الفيكنج ، وهم القرصان الشماليون الذين يمتون إلى الجرمان بصلة وقرابة ، وأشرعة زوارق القراصنة السكسون تصنع من الجلد (١).

* * *

وعقائد الجرمان الأولى ، كأى شعب بدائى ، عقائد وثنية ، تعددت فيها الآلة إلا أن سيد الآلة جميعها لديهم هو « عطارد » (Mercury) كما يسميه تاكيتوس و يقابل هرمس عند الإغريق ، وقد أطلق تاكيتوس عليه هذا الإسم لاتفاق صفاته عند الجرمان مع صفات هذا الإله عند الرومان ، ومن قصص البطولة أو أغانى البطولة اللومباردية (De Gestis Langobardorum) يسمى هذا الإله (Wodan أو Gwodan أو أودين Odin) وتنعته الثيولوجيا الأيسلندية بالإله القاسى المرعب ، والسفاك ، وهو الذى يبعث على الشجاعة والنصر فى المعارك ، ويقرر أسماء القتلى ونحو ذلك . ولم تزل بقايا عبادة هذا الإله ظاهرة فى الإسم الذى أطلقه معظم عباده فى الشمال على أحد أيام الأسبوع وهو اليوم الرابع من الأسبوع يوم أودن (Odin's day) الذى حرف حتى صارت فى الإنجليزية (Wednesday) وكان هذا اليوم مخصصاً لعبادته ، وجاء اتصال أودين بعطارد إله الإغريق والرومان كذلك من حيث أن اليوم الرابع من الأسبوع عند الرومان تخصص لعبادته (Die Mercurii) (٢).

---

(١) Moss, p. 41

(٢) يسمى هذا اليوم فى اللغة الشمالية Odinsdagr وفى السويدية والدانية Onsdag ، وفى الهولندية Woensdag ، وفى الانجلو سكسونية Wodenesdaeg أو Wodnesdaeg وفى الانجليزية Wednesday (Tacitus, pp. 207 - 8).

وإلى هذا الإله يدعى ملوك الجرمان نسبتهم ، بل سائر الأسر النبيلة منهم. فهو فى نظرهم أبو الجميع ، وما السماء وما انتثر فيها من كوا كب إلا عباءة هذا السيد أو طيلسانه ، ثم هو فى نظرهم كذلك إله الموت وإله الأبطال وإله الحرب وإله الحفلات العامة بل هو صاحب التمائم والتعاويذ والسحر . وهنـاك إله آخر للحرب عند الجرمان عرف بإسم تيو أو تير (Tiu, Tyr) . لـكنه أقل شأناً من أودين ويعتبرونه حامياً للأبطـــال والمحاربين . ويدل إسمه على أنه هو نفسه (Jupiter, Zeus, Dyaus) وهو إله السماء القـــديم عند الهنود والإغريق والرومان ؛ وعندهم كذلك ثونور أو ثور (Thunor, Thor) إله الرعد الذى يهم المزارعين بصفة خاصة . هذه هى الآلهة الرئيسية الثلاث عند الجرمان لكن ليس معنى هذا أنه لم توجد آلهة أخرى ، فهناك آلهات للخصب ، والحب (Freya) وآلهة الأرض (Ertha) وغيرها [١] .

وعن وثنية القوط فالمعلومات عنها قليلة لأن القوط عند ما اعتنقوا المسيحية أزال رجال الدين فيهم كل ما يتعلق أو يشير إلى الوثنيه القديمة [٢] ، ولا بد أنهم كأشقائهم الجرمان عبدوا الإله أودين . وكذلك تيوأوتير ، ولا يختلفون كثيراً فى وثنيتهم عن بقية الجرمان لـكن ليس من المعروف إله أكبر للقوط بصفة خاصة وإن عرف القوط بأنهم كانوا أكثر العناصر الجرمانية ورعاً وتمسكا بعباداتهم الوثنية [٣] .

ظل الجرمان على وثنيتهـم حتى احتكوا بالإمبراطورية الرومانية ودخلوا أراضيها غازين أو مرتزقين أو معاهدين ، فاعتنقوا المسيحية تدريجيـاً ، ومنذ

---

(١) Bradley, p. 13

(٢) Lav. et Ramb, 1, p. 54; Tacitus, p. 298; C. med. H, 1, p. 98 Bradley, p. 15

(٣) Bradley, pp. 13, 15; Lav. et Ramb, 1, p 54

منتصف القرن الرابع الميلادى أخذت المسيحية تشق طريقها بين القوط الساكنين عند مصب الدانوب[1] ؛ وكانو أسبق من غيرهم من الجرمان فى اعتناق المسيحية . غير أن الملاحظ على مسيحية الجرمان عامة ، أنها كانت على المذهب الأريوسى المخالف لمذهب الإمبراطوريه الرومانية وشعوبها وذلك فيما عدا الفرنجة الذين اعتنقوها على الكاثوليكية منذ دخولهم فيها حين كانوا فى غالة على عهد كلوفس ، والسويف الذين غيروا مذهبهم أكثر من مرة [2] ، وكذلك الانجلوسكسون ، ثم إن القوط الغربيين تحولوا إلى الكاثوليكية فى نهاية القرن السادس الميلادى لأسباب سياسية[3] ، ولنوع المذهب الذى اعتنق الجرمان المسيحية بمقتضاه ، أثره البالغ فى مستقبلهم السياسى فيما بعد .

* * *

الهجرات والغزوات الجرمانية

ترجع تحركات الجرمان وغزواتهم إلى زيادة عدد السكان وعدم إتاحة البيئة الزراعية الفرصة لاضطراد النمو فى مجتمع يتميز بالخصب الجنسى ، ومن ثم تحركت القبائل الجرمانية بحثاً عن أراضى زراعية جديدة ، وأوطان جديدة تفى بحاجاتهم ، وهذا فضلا عما جبلوا عليه من حب المغامرات وعدم الاستقرار ؛ وليس من شك فى أن البلاد المشمسة الدفيئة قد استهوتهم منذ فجر التاريخ ، بل إن عامل المناخ لم يزل له أثره بين دوافع الاستعمار فى التاريخ الحديث ، كذلك كانت المدنية الرومانية وما بلغته من رقى من بين العوامل التى اجتذبتهم ؛ هذه الدوافع أساسية وأصيلة فى الهجرات والغزوات الأولى على الأقل ؛ ولم تزل

(١) أنظر ما يلى .
(٢) أنظر ما يلى
(٣) فشر (نفسه) ص ١٧ — ١٨ ، أنظر السياسة الدينية فيما يلى

كذلك فى الهجرات والغزوات المتأخرة بالإضافة إلى عامل جديد حاسم ، هو حوادث الضغط التى وقعت على الجرمان من قبل الجماعات الرعوية البدوية الضاربة فى وسط آسيا حيث تتعرض هذه الجماعات لكثير من أحداث المجاعات والقحط وهذا ما يؤدى إلى ضغطها على ما يجاورها من شعوب ، وأمام مثل هذه الهجرات الكاسحة ، تنساب القبائل التى لا قبل لها بمدافعتها أو الوقوف أمامها ومن ثم جاء التغلغل التدريجى السلمى أولا والمسلح أخيراً داخل أراضى الأمبراطورية الرومانية [1] .

ويمكن تقسيم الهجرات والغزوات الجرمانية إلى شطرين يتناول الشطر الأول منها ما وقع للأمبراطورية الرومانية فى فجر تاريخها ، وهذه هى التى وصفها تاكيتوس وغيره من كتاب الرومان أمثال قيصر و بلينى ، وهؤلاء الغزاة الأولون هم أسلاف ما عرف فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى باسم القوط والوندال والسكسون والفرنجة وغيرهم من الذين ملأوا تاريخ الشطر الثانى من هذه التحركات . ويبدأ تاريخ الشطر الثانى بالقرن الثالث الميلادى تقريبا ، وهذا الشطر هو الذى يعنينا بصفة أساسية لأن الشعب الذى نعنى بدراسته تفصيلا إنما ترد حوادث تاريخه البارزة إلى هذا الجيل الأخير . ومن الخطأ أن نتصور أن هذا الجيل الأخير ظل على ما كان عليه أسلافه من بداوة وجفوة و بربرية ، فقد أدى قربه من حدود الامبراطورية الرومانية واحتكاكه الدائب بها وتوغله التدريجى البطىء والسلمى أحيانا ، أدى هذا كله إلى تذوقه شيئاً من حضارة الرومان ، بحيث غدت هذه الحضارة مألوفة له وغير غريبة عنه [2] .

---

(١) فشر (نفسه) ص ٢١ ؛ Deanesly, pp. 21 - 2 ؛ Bryce, p. 14 ؛ Lav., Thompson, pp. 43 - 44, Lot, pp. 34 - 35 ؛ et Ramb; 1, p. 59

(٢) Pirenne (H.), p. 25; Deanesly, p 19

أما عن الشطر الأول فالمعروف أن احتكاك الجرمان بالرومان قد بدأ منذ نهاية عهد الجمهورية الرومانية وجاءت أول غزوة على يد عنصرين هما : الكمبريون (Cimbri)[١] والتيوتون (Teutons) ، جاءوا بنسائهم وأطفالهم فى عربات مقفلة ، ومعهم دوابهم وخيامهم ، ظل هؤلاء يضربون فى مناكب الغابات والفيافى ، يقيمون فى الشتاء ويستأنفون تجولاتهم فى الصيف ، حتى وصلوا حدود الامبراطورية حيث التمسوا من سادة الرومان وطناً يستقرون فيه ، ويقال أنهم طالبوا بهذا الملتمس ثلاث مرات[٢]

وبينما قدم الكمبريون من شمالى شبه جزيرة جوتلاند ورأس سكاجن (Skagen) الذى يسميه بلينى تسمية منسوبة إليهم (Promontorium Cimbrorum) هبط التيوتون من المنطقة المعروفة باسم شلزويج وهولشتين ، قرب مصب الألب . ومن فروع التيوتون : الأمبريون (Ambrons) الذين تركوا مواطنهم الأولى فى هذه المنطقة ، بل لا يزال يطلق اسمهم على جزيرة أمروم (Amrom) الحالية ، والتى كان يطلق عليها قديماً أمبرم (Ambrum) وقد ظلت شبه جزيرة جوتلاند مهجورة نحو قرنين من الزمان بعد نزوح هذه العناصر منها ، حتى سكنها من بعدها الأنجلوسكسون ، وكانوا يومئذ يقيمون شرق الألب كما سكنها الفاريون (Varini) الذين هبطوا من غير شك من اسكندناوة[٣].

والتفاصيل عن غزوة هذه العناصر الأولى ضئيلة ، وكل ما يعرف عنها أنها تحركت تحت ضغط قبيلتين كلتيتين هما : البويى (Boii) وهى فرع من الغاليين[٤]

---

(١) أطلق هذا العنصر على نفسه هذا الاسم (Cimbri) ويعنى به (الأبطال) غير أن خصومه ترجموا هذه الصفة إلى كلمة « اللصوص » بدلا من « الأبطال » ، وذلك بالنظر إلى سوء أعمالهم وكثرة إعتداءاتهم (Mommsen, III, p. 430)

(٢) Courcelle, pp. 5 - 6., Lav; et Romb 1, p. 55

(٣) Mommsen, III, pp. 430 - 11; lav., et R , 1, p 55; lot, p. 33

(٤) Tacitus, p. 318

جاءت هذه القبيلة من بوهيميا التى عرفت باسمها (Bohemia أو Boiemum) وقبيلة السكوردسكيين (Scordisci) من ضفاف الدانوب . ويؤرخ لهذه الغزوة التى اتجهت غربا نحو بلاد الغال بحوالى عام ١١٤ ق . م ، ولم يأت عام ١٠٦ ق . م . حتى احتل هؤلاء البرابرة غاليا وإيطاليا غير أنهم لم يستطيعوا البقاء فى بلاد خربوها ونهبوها ، فانتشروا فيها متفرقين ، مما سهّل مهمة القائد الرومانى ماريوس (Marius) ، إذ استطاع أن يكيل لهم الهزائم المتلاحقة داحرا التيتون فى وقعة اكس (aix) عام ١٠٢ ق . م . ومن بعدهم السكمبر فى وقعة فرسى (Vercici) فى ٣٠ يوليو عام ١٠١ ق . م . ومن ثم أنقذ العالم الرومانى والمدينة الرومانية من عبث البرابرة[1] .

غير أن الخطر الداهم بالدولة الرومانية لم يزل نهائياً بهذا النصر الذى رفع ماريوس إلى مصاف الأبطال ، فقد جاءت موجة أخرى ، قوامها العنصر السوابى (Souabes) من مساكنهم فى براندنبرج الحالية خلال القرن الأول قبل الميلاد ، دفعت هذه الموجة الجديدة عنصرين كلتيين آخريين يقيمان فى ألمانيا الجنوبية هما : التيجوريون (Tigurini) والتويجنيون (Toygeni) .

عبر هذان الأخيران نهر الراين واستقرا فى سويسرا الحالية ، وترجع تسمية مدينة زيورخ الحالية بهذا الاسم إلى العنصر الأول . ولما كانت الجماعات التيوتونية[2] دائبة النزاع فيما بينها لا تكاد تخمد الحرب بين فروعها ، شأن العناصر البدوية الجائلة ، فقد حدث أن استنصر بعض هذه الجماعات بجنود

---

(١) Mommsen, III, p 425; Lav et Ra b., I, p. 55; Lot, pp. 29–33

(٢) من أسماء الجماعات التيوتونية المتنازعة ، وهى جرمانية : السكونسيون (Sequances ، ضد الأيدوين (Aedui) ؛ وهناك جماعات تيوتونية أخرى اتخذت مواطن جديدة لها خلال تلك الأحداث منها التريبوكى (Triboci) التى استقرت فى الألزاس والنميتون (Nemetes) التى استقرت فى منطقة سبير (Spires) والفانجيون (Vangiones) فى منطقة ورمز (Lot, p.24; Tacitus, p 318)

مرتزقة من السوابيين ، فجاءت فرقة سوابية بقيادة اربوقست (Arioviste) وبعد أن أدى هذا القائد مهمته بالانتصار على أعداء حلفائه ، استقر وقومه حوالى عام ٦١ ق . م . على الشاطىء الأيسر للراين ، مما جعله خطراً يهدد بلاد الغـــال وفى وادى الراين الأدنى وعلى الضفة اليسرى كذلك ، استقرت قبيلتان جرمانيتان أخريان فيما عرف فيما بعد باسم منطقة كولونيا (Cologne) وهما الأسبيون (Usipii) والتنكسترون (Tencteri) . كانت هاتان القبيلتان قد فرتا أمام الموجة السوابية . وأخيراً حين استشعر الهلفتيون (Helvetii) — وهم من فروع الغال — الخطر والتهديد من لدن جيرانهم القساة ، صمموا على النقلة من مواطنهم بين جبال الجورا والألب ونهر الراين والتوجه إلى غربى غاله ، ولـكن انتصار قيصر فى عام ٥٨ ق . م على أربوفست فى الألزاس العليا أنقذ بلاد الغال من سطوة الجرمان ، وأجل هذه السطوة إلى ما بعد ذلك بنحو أربعة قرون ونصف تقريباً [١] . وعلى أثر هذه الهزيمة الساحقة وقفت الغزوات الجرمانية وتراجع السوابيون إلى الضفة اليمنى للراين ، وعبر قيصر هذا النهر عام ٥٥ ق . م. وفى عام ٣٨ ق . م أقام القائد الرومانى الذائع الصيت أجريبا (Agrippa) الحاميات الرومانية القوية على ضفة الراين اليسرى [٢] ، ومن ثم بدأت تلك العناصر الجرمانيـــــة المجاورة تأخذ ببعض أسباب الحضارة الرومانية [٣] .

---

(١) Mommsen, pp. 423 - 435; Tacitus, pp. 318 - 322; Lot, p. 25
Lav. et Ramb., 1, p. 55

(٢) اشتهر أجريبا بالقدرة العسكرية الفائقة ، وكان من حزب أوكتافيوس بعد مقتل قيصر وهو الذى تولى قيادة أسطول أوكتافيوس فى وقعة اكتيوم عام ٣١ ق.م ، ومن أعماله العلمية أنه وضع خارطة للعالم حفرها أوغسطس على الرخام
(فسر : تاريخ أوروبا فى العصور القديمة (ترجمة الدكتور صبحى والدكتور عواد) ص ١٧٢ — ١٧٣ حاشية ١٧٤ .

(٣) Lot, p. 25

وخلال الفترة الواقعة بين عامى ٣٥ ، ٣٨ ق . م . فتح أغسطس منطقتى ريتيا (Rhaetia) وتشمل جزءاً من سوابيا وجزءاً من بافاريا و بعض الجهات المجاورة و بانونيا (Pannonia) التى تشمل بعض المجر وجزءاً من النمسا ؛ وتقيم فى هاتين المنطقتين عناصر الليرية ، كما أن قائده المظفر دروسس (Drussus) وصل فى فتوحه إلى إمز (Amisia) ونهر الفيزر حيث أخضع البتافيين (Batavi) والفريزيين (Frisii) والشوكيين (Chauci) وذلك فى عام ١٢ ق م . وفرض الجزية على الفريزيين ، ثم احتل فى العام التالى المنطقة الواقعة بين الراين والفيزر ، حيث خضع له عنصر الكاتيين (Catti) وهم المعروفون كذلك باسم المسيين (Hissois) و بعد أن حصن هذه المنطقة وصل فى عام ٩ ق . م . إلى نهر الألب ومدينة ماينز (Mayence) فتقهقرت أمامه العناصر المار كومانية (Marcomanni) إلى بوهيميا حيث أزالوا سكانها الأصليين من البوييء واستقروا مكانهم ، ومن أجل انتصاراته لقب بالجرمانى (Germanicus) أى قاهر الجرمان[1] . و بعد وفاة هذا القائد المظفر ؛ وهو فى سن الثلاثين ، خلال عودته من حروبه ، خلفه أخوه وصنوه تيبريوس (Tiberius) ليكمل انتصاراته ، فوصل تيبريوس فى تلك الأصقاع إلى مصب الألب وشبه جزيرة جوتلاند ، وطرد خلال اكتساحه هذا بعض عناصر السكامبريين (Sicambres) إلى الشاطىء الشرقى للرين وقضى على البعض الآخر .

ومعنى هذا أنه خلال الست سنوات الأخيرة من القرن الأول قبل الميلاد كانت الفرق الرومانية قد جالت فى شمالى جرمانيا وحالت دون وصول الأخطار إلى غالة ، وأضحت ألمانيا « بين الراين والألب » ولاية رومانية . ويلاحظ أن قبضة الرومان على هذه الولاية كانت مزعزعة بسبب كثرة التحركات

(١) Courcelle, p. 6 ;Lot, p. 25; Tacitus, pp. 325 - 329

الجرمانية والغزوات التي أخلت بالأمن فيها ، ولاسيما حين وقعت ثورات في مطالع القرن الأول الميلادى ، وذلك خلال أعوام ٢ و ٤ و ٥ ميلادية . وهذا بالإضافة إلى الثورات التي أشعلها الاالليريون في بانونيا ودالماشيا ، كل ذلك حال دون الوصول إلى نجاح حاسم ضد الجرمان ؛ ولعل من أخطر الثورات التي قام بها الجرمان ضد الرومان ، تلك الثورة التي تزعمها أرمينيوس (Arminius) الشيروسكي ، فقد لقى الجيش الرومانى نكبات فادحة بصدد إخماده لهذه الثورة ، وأبيدت ثلاث فرق رومانية بقيادة ڤاروس (Varus) عام ٩م في غابة تيتوبورج (Teutobourg) [١] ، ويقدر المؤرخ ممسن (Mommsen) عدد الجيش الذى أبيد بنحو عشرين ألف . ورغم هذه الكارثة الخطيرة فإن سيادة الرومان لم يقض عليها قضاءاً تاماً في جرمانيا ، إذ لا تعدو ثورة أرمينيوس أن تكون ثورة محلية بدليل أن غيره من العناصر الجرمانية الخاضعة لم يثر مثل البتافيين أو الفريزيين أو الماركومان . وقد بالغ الامبراطور أغسطس في آثار هذه الكارثة ، فهو كغيره من الكثير من رؤساء الدول الذين تقدمت بهم السن أضحى بعدها يخشى المغامرات الحربية في تلك الأصقاع . ومن ثم قرر أغسطس إخلاء جرمانيا والاكتفاء بوضع حاميات فيما وراء الرين لإرهاب الجرمان ، واعتبار حدود الامبراطورية عند نهر الراين [٢] .

ويرجح أن إخلاء جرمانيا جاء نتيجة لإهمال الرومان الذين استخفوا بالعناصر الجرمانية والخطر الجرمانى كما استخفوا بأيرلندا معتقدين أن فرقة واحدة تكفى لإخضاعها كما أن الرومان نظروا إلى مثل هذه البلاد على أنها فقيرة مجدبة لا مطمع فيها . والواقع أن استقرار الحدود الامبراطورية عند الراين شمالا والدانوب شرقا صار حقيقة واقعة منذ وفاة أغسطس ، بل ربما كان قبل ذلك ،

---

(١) Tacitus, pp. 320 - 320

(٢) Frank, p 400., Lot, p. 26; Lav; et R , I, p. 55

منذ كارثة فاروس عام ٩ م ولم تفلح الجهود التي بذلها خلفاء أغسطس المباشرون في إعادة نشر النفوذ الروماني في تلك الأصقاع .

رأى أغسطس أن تكون حدود امبراطورية عند هذه الحدود الطبيعية (الراين والدانوب) وأن الواجب عليه أن يتخذ موقف الدفاع في تلك المناطق ، فقد كانت كارثة فاروس سبباً في ضياع للمتلكات الرومانية بين الرين والفيزر . ولم يدر بخلده وهو يقرر هذا الوضع أنه يضع حداً جنسياً ، لأنه لم ير حاجة إلى مثل هذا الاعتبار ، نظراً لأن امبراطوريته قد نجحت في علاج الخلافات الجنسية داخل حدودها ، إذ كانت تضم شعوباً مختلفة تتكلم لغات مختلفة من لاتين وإغريق وكلت وجيليين وجرمان وصقالبة وبروفنساليين ، وفي الحدود الشرقية نجد المغول وبعض العرب الخاضعين لسلطان روما ، كذلك لم تحس الامبراطورية الرومانية بمشكلة الملونين أو الاختلاف اللوني ، فإن روما حكمت عدداً من الشعوب لا يختلف لونها كثيراً عن لون رعاياها في حوض البحر الأبيض ، ثم أن حكام روما عاملوا الشعوب الخاضعة على أساس الثقافة والمدنية دون اعتبار للجنس أو اللون ، بل أن اضطراد منح الحقوق المدنية الرومانية للشعوب الخاضعة لهم لم يخضع لتلك الاعتبارات . أما الذي كان واضحاً في ذهن أغسطس فهو الاعتبارات الاستراتيجية وكذلك الاقتصادية ، رأى أن يعمل لإيفاء حاجات الدفاع الممكنة لامبراطوريته ، فالأنهار العظيمة هي بنفسها خطوط دفاعية ليست بحاجة إلى صيانة أو وقاية وفي نفس الوقت تعتبر طرقا هامة للمواصلات والنقل التجاري . وظلت حدود الامبراطورية الرومانية قائمة عند الراين والدانوب أكثر من أربعة قرون(١) .

ورغم أن قرار أغسطس كان محتوياً إلا أنه أدى إلى نتائج خطيرة إذ لم تستطع الامبراطورية الرومانية المحافظة على هذه الحدود الطويلة حين تعرضت

---

(١) Bryce, p. 14; Lot, p. 27; Deanesly, p. 17

إلى غزوات جديدة قبل أن تتمكن من نشر الحضارة الرومانية بين هـــذه العناصر[١] . ومن ناحية أخرى أخطأ الرومان فى إخلاء جرمانيا والاعتماد على الدانوب والراين كعوائق طبيعية بينهم و بين الشعوب البربرية ؛ ولهذا الخطأ أشباه فى التاريخ ، فهذه الصين القديمة ، قد أفرغت جهودها وماليتها مدة تقدر بنحو خمسة قرون (٢١٤ ق . م — ٢٥٠ م) فى بناء سد عظيم بينها و بين البرابرة من التتار وغيرهم ، ومع ذلك لم يحمها السد الكبير حتى من غزوة واحدة[٢] .

و بعد عهد أغسطس تأرجحت السياسة الرومانيه نحو الشعوب الجرمانية بين الموادعـــــة والشدة ، فأعطت روما بعض هـــذه الشعوب حق المتاجرة (jus commercii) معها كما اجتذبت إليها بعض الأسر الكبيرة من الجرمان ، غير أن هذه السياسة لم تزد الجرمان إلا طمعا فى بلاد الرومان الغنية ، فرأى تراجان (٩٨ — ١١٧ م) مدى خطورة الغلطة التى ارتكبها أسلافه ، ومدى النتائج التى تمخضت عن اتخاذ موقف الدفاع ، ولذا قرر التوسع فيما وراء هذه الحدود ، ففتح عام ١٠٠ م منطقة داكيا (Dacia) — وهى رومانيا الحالية — وتتكون من ترانسلفانيا وولاشيا (الأفلاق) ومولداڤيا (البغدان) — ويقيم فى داكيا الداكيون وهم فرع من التراقيين ، وسرعان ما اصطبغت داكيا بالحضارة الرومانية واضحت حصنا منيعا وترسا أماميا قويا للحضارة الرومانية فى قلب العالم البرابرى .

أما خليفته هادريان (١١٧ — ١٣٩ م) فقد عاد إلى السياسة الدفاعيـة واكتفى باقامة سلسلة من الأسوار ، يحمل أحدها اسمه فى بريطانيا ، ولكن مثل هذه السياسة لم تعجب الامبراطور ماركوس أورليوس (١٦٩ — ١٧٧ م)

---

(١) فشر (ترجمة الدكتور لصحى والدكتور عواد) ص١٢٣ — ١٢٤ وحاشية رقم ١٨٠

(٢) Lot, pp. 28 - 29

منفرداً بالحكم أو مشتركا مع ابنه كومودس (١٧٧ — ١٨٠ م) فكرس حياته لكفاح الجرمان ، والواقع إن الخطر من ناحية الراين قد قل شأنه حينئذ ، على حين برز الخطر من ناحية الدانوب حين غزا عنصر الكاتيين (Catti) عام ١٦٢ م منطقة رايتيا وجرمانيا العليا ، وفى نفس الوقت قام العنصران السوابيان : الماركومان — سكان بوهيميا ، والكوادى — سكان مورافيا وجزء من النمسا[1] بهجوم ساحق على الجيش الرومانى وحاصروا مدينة أكويليا (Aquileia) فحاربهم أورليوس وانتصر عليهم ، كما انتصر على قبيلة جازيج (Jazyges) قرب الدانوب . وهذه القبيلة فرع من السارمات الايرانيين، استطاع بهذا النصر أن يحتل مناطق هذه القبائل لمدة أربعة عشر عاماً وأمله أن يكون ولايتين رومانيتين من سارماتيا — وهى هنغاريا الحالية تقريبا — وماركومانيا — تشكوسلوفاكيا المعاصرة تقريبا — ولكن يشك فى أنه حقق هذا المشروع الضخم ، وعلى فرض تحقيقه فإن حماية هاتين الولايتين تستلزم قوات لاطاقة لروما بها. وسرعان ما تحطمت هذه الآمال العريضة بمقتل الامبراطور فى وقعة فندبونا (Vindobona) — فينا الحالية — عام ١٨٠ م ؛ وفشل ابنه كومودس حين انفرد بالسلطة (١٨٠ — ١٩٢ م) فى اتباع سياسة أبيه الايجابية ، فعاد إلى السياسة الدفاعية التى استنها أغسطس من قبل ، حقيقة أثمرت سياسة أبيه فى اخماد صوت الماركومان والكوادى لمدة قرنين أو ثلاثة ولكن حتى القرن الثالث الميلادى ، لم تعد لهذه القبائل الجرمانية أية أهمية ، بعد أن ظلت خطرا يتهدد الامبراطورية فترة طويلة[2] .

* * *

بهذا تنتهى الموجة الأولى أو الشطر الأول من الغزوات الجرمانية ، ومنذ القرن الثالث الميلادى فصاعداً تبدأ غزوات وهجرات جديدة .

---

(١) فشر (ترجمة الدكتور لصفحى والدكتور عواد) ص ١٢٧ ، ١٧٦ وحاشية سنة ١٩٣

(٢) Tacitus, p. 334. lot; pp 29—30.

فلم يمض نحو نصف قرن تقريباً على وفاة ماركوس أورليوس (عام ١٨٠م) حتى تعرضت الإمبراطورية الرومانية إلى هجمات جديدة من عناصر جرمانية تحت أسماء مثل : الفرنجة والسكسون والقوط وغيرهم . وتختلف هـذه الغزوات عن سابقتها بأنها كانت أشد عنفاً وأبعد أثراً فى كيان الإمبراطورية الرومانية ، بل إن هذه الغزوات الأخيرة هى التى قررت مصير الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد نحو قرنين من الزمان .

لكن هذا لا يعنى أن القبائل الجرمانيه الجديدة فى هذا الشطر من الغزوات ، مقطوعة الصلة بالجرمان السابقين ، و إنما هى من سلالاتهم ، غاية ما فى الأمر أن كثيراً من العناصر السابقة قد خمد لفـترة مثل الفريزيين والبعض منها عاهد الرومان ثم خرج على شروط المعاهدين مثل الألمـان والفرنجة ، واندمج البعض الآخر فى قبائل أقوى تزعمت حركات الغـزو الجديدة ، كالقبائل التى انضوت تحت لواء الفرنجة ، وهذا فضلا عن أن بعضاً من القبائل الجرمانية القديمة قد قضى عليها مثل الـكمبريين والأمبرونيين الذين قضى عليهم فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد ، والشروسكيين الذين أبيدوا فى القرن الأول الميلادى ، كما قضى على انبستارن (Bastrnae) ويسمون كذلك بالبيكونيين (Peucini) فى القرن الثالث الميـلادى ، ومن القبائل التى قضى عليها كذلك أو اندمجت فى الحضارة الرومانية قبائل السيكامبريين والتبانتيين (Tubantes) وغيرهم [1] .

ونتناول من غزوات وهجرات الشطر الثانى غزوة القـوط أعظم فروع الجرمان الشرقيين على الإطلاق ونتتبع تاريخ القوط الغربيين بصفة خاصة حتى نهاية دولتهم فى مطلع القرن الثامن الميلادى .

---

(١) Tacitus, pp. 320,340 فصر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) ص١٩ ، ٢٠ ؛

Lot, pp. 31 - 32

الفصل الأول

١. ظهور القوط وتحركهم

أصل القوط — موطنهم — هجرتهم الى البحر الأسود فى القرن الثانى الميلادى احتكاكهم بالأمبراطورية الرومانية — انقسام القوط الى شرقيين وغربيين — القوط الغربيون فى داكيا ووصول المسحية اليهم على يد أوليفلاس القوطى — القوط الغربيون والامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى وقعة أدرنة ٣٧٨ م ونتائجها — تيودسيوس العظيم والقوط الغربيون.

يعتبر عنصر القوط (Gothes) أعظم قبائل الجرمان الشرقيين أطلالا، فهم أكثر القبائل الجرمانية عدداً وأشدهم خطراً على أوروبا، عبروا كأغلب أقرانهم من اسكندناوة، منذ الزمن السحيق، وذلك قبل القرن الرابع قبل الميلاد[١]. واستقروا عند مصبات الأودر والفستولا حالين محل الروجيين والوندال، ويحتمل أن وصول القوط قد أدى إلى تحرك القبائل الجرمانية الأخرى نحو الغرب[٢].

وقد ذكر بثياس (Pythias) الرحالة الأغريقى المرسيلى القديم وهو من معاصرى الإسكندر المقدونى، أن هناك شعباً يعرف باسم القوط (Guttones)[٣]

(١) Moss, p. 44.

(٢) Lot, p. 75.

(٣) ذكر اسم القوط بأشكال مختلفة منها (Gotones) (Gothones) وكلمة (Guttones) ترادف (gut-thiuda) بمعنى الشعب القوطى (Idodgkiu,I, p. 34) .

يقيم فيما هو بروسيا الشرقية الحالية أى فى الركن الجنوبى الشرقى من ساحل البحر البلطى وحول خلجان دانتزج الحالية ، ويعمل هذا الشعب فى تجارة العنبر الذى يجمعه من سواحل البحر[١] . ولم يسمع عن هذا الشعب بأكثر من هذه العبارة لمدة أربعة قرون بعد ذلك ، ويؤكد المؤرخ الروماني القديم بلينى (Pliny) المتوفى عام ٧٩ بأن هؤلاء لا يزالون يقيمون حيث هم فى أيامه ، كما أن تاكيتوس (Tacitus) أعظم مؤرخى الرومان والمتوفى حوالى عام ١١٧ م ، قد أورد اسم القوط (Gothones) فى معرض حديثه عن الجرمان وقال فى الكتيب الذى وضعه عن جرمانيا (Germania) بأن نظام الملكية قام ونما بين القوط أكثر من غيرهم من العناصر الجرمانية[٢] .

وموطن هؤلاء القوط الأصلى هو شبه جزيرة اسكندناوة فى السويد بصفة خاصة ، وكانت تعرف باسم جزيرة سكانزيا أو سكين (Scanzia, Skane)[٣] وظلوا فترة من الزمن فى المنطقة المعروفة باسم (Gothiscandza) أو (Gotland) جنوب السويد ثم عبروا إلى الساحل الأوروبى[٤] ، ورغم أن هذه المنطقة قد عرفت باسم العنصر المعروف باسم جوتر (Gauter) إلا أن هذا العنصر الأخير قريب الشبه من القوط مما يحمل على الظن بأن الإسمين لمسمى واحد ، كذلك يدل اسم جزيرة (Gothland)[٥] فى البحر البلطى ، على أن القوط أقاموا فيها فترة أو كانوا يسكنونها ، وكانت قديماً تعرف باسم (Gutland) . ومما ورد فى الأغانى (Sagas) الشمالية ، وأشعار الأنجلوسكسون أن شبه جزيرة جوتلاند (Jutland) كانت

---

(١) Courcelle, p. 5; Mommsen, III, p. 430; Tacitus, p. 339
Hodgkin, 1, p. 34; Bradley, pp. 1 - 2; Tacitus, p. 336

(٢) Encycl. Brit., Art. «Goths»

(٣) Hodgkin, 1, p. 33

(٤) Deanesly, p 26

(٥) تقع هذه الجزيرة بين خطى عرض ٥٧° ، ٥٨° شمالا وتخضع حاليا للسويد .

قديماً مسكونة بفرع من القوط يعرف باسم (Reïdhgotar أو Hréth-gotan)[١].

وعندما وصلت جموع القوط إلى الساحل الأوروبى ، استقروا قرب بومرانيا الشرقية حيث هزموا العناصر المقيمة بها والمعروفة باسم (Ulmerugi) كما هزموا جيرانهم الوندال والروجيين، و بعد فترة من الزمن هاجروا إلى سكيثيا (Scythia) واستقروا فى المنطقة التى أطلقوا عليها اسم أيوم (Oium) شمالى البحر الأسود فى حوض نهر الدنيبر . وكان ذلك خلال النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى تقريباً[٢].

ومن القبائل التى صحبت القوط فى هجرتهم ، وربما كانت خاضعة لهم أو مرتبطة بهم بحلف أو معاهدة ، قبائل الهيروليين والسكيريين والتورسيلبين والجبديون : (gepibae, Turcilings ، Scirians ، Heruli)[٣] و يبدو أن هذه القبائل كانت أقرب إلى القوط من غيرها من فروع التيوتون[٤].

والملاحظ أن الرومان قد خلطوا بين القوط وشعب آخر يعرف باسم الجتيين (Getae) كان يسكن شمالى مصبات الدانوب ، إذ حدث على عهد الأمبراطور أغسطس (٣٠ ق . م . — ١٤ م) أن نفى الشاعر أوفيد (Ovid) إلى هذه المنطقة حيث عاش وسط ذلك الشعب ، وحين وصل القوط إلى هذه المنطقة فى القرن

---

(١) Bradley, pp. 7 - 8

(٢) Encycl. Brit. Art., «Goths», Hodgkin, 1, pp. 40-1

(٣) هناك رواية نقلها جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطى فى القرن السادس الميلادى ربما عن الأساطير والأغانى القديمة — مؤداها أن القوط حين انتقلوا الى الساحل الأوروبى ، كانوا يركبون فى ثلاث سفن بقيادة ملكهم بريج (Berig) ، وحدث أن وصلت إحدى السفن متأخرة لثقل حمولتها ، ولهذا التأخير عرف ركاب هذه السفينة باسم (Gipids) من الكلمة القوطية (Gepanta) بمعنى البطىء

(Bradley, p. 8; Hodgkin, pp. 33 - 40; Lav. et Ramb., 1, p. 49)

(٤) Bradley, p. 8

الثالث الميلادى ، اختلطوا بالعنصر القديم[١] ، ومن هنا اختلط على الرومان أن الإسمين لمسمى واحد حتى صاروا يطلقون اسم القدماء على الغزاة الجدد ، ولهذا أشباه فى التاريخ كإطلاق اسم البريطانيين القدماء مثلا (Britones) على الغزاة الجدد من الأنجلوسكسون ووقع فى هذا الخلط كذلك جوردان المؤرخ القوطى ، لأنه قرأ ما كتبه الرومان عن هذا الشعب ، والصواب أن الشعبين يختلفان جنساً ولغـة[٢] . ومنذ انتقال القوط إلى شواطئ البحر الأسود دخل الكثير منهم طوعاً فى خدمة الأمبراطورية الرومانية فى الشرق ، فمثلا نجد أن منهم من عمل بواباً أو بناء أو ساقياً[٣] .

ولم يكد يأتى عام ٢١٤ م حتى كان القوط قد انتشروا حول شواطئ البحر الأسود الشمالية ، ووجدوا أنفسهم لأول مرة وجهاً لوجه مع الأمبراطورية الرومانية وذلك على عهد الأمبراطور كراكلا (Garacalla) (٢١٢–٢١٩)[٤] ولما كان شأن هذه القبائل البدوية النقلة والاعتداء على المناطق الغنية ، نزولا على ما طبعوا عليه من الجفوة والغلظة وحب المغامرات ، ثم لحاجتهم للعيش بأية وسيلة ، فقد بدأت إغاراتهم[٥] ، إلا أن الرومان ، وقد استشعروا خطرهم الداهم[٦] ، حالفوهم حوالى عام ٢٢٥ م ، وقرروا لهم جعلا (Stipendia) ، سنويا نظير قيام القوط على حماية حدود الأمبراطورية ضـد السارمات[٧] (Sarmates) البرابرة الذين يقيمون فيما وراء القوط ، غير أنه حدث على عهد الأمبراطور فيليب العربى (٢٤٤–٢٤٩) ، أن قطع هذا الجعل فعبر أوسترجوتا

---

(١) Gibbon, II, p. 342

(٢) Bradley, p. 19; Hodgkin, 1, N. A. pp. 98-100

(٣) Lav, et Ramb, 1, p. 56

(٤) Thompson, p. 44; Encycl. Brit., «goths»; Hodgkin, 1, p. 43

(٥) Deanesly, p. 26

(٦) C. med. H. 1, p. 39

(٧) Hodgkin, 1, p. 49

(Austraguta أو Ostrogotha) ملك القوط[1] ويدل اسم هذا الملك على أن فرع القوط الشرقيين كان قد تولى قيادة هذه الحملة ، عبر هذا الملك نهر الدانوب ونهب ولايتى مؤيسيا (Meosia)— على الشاطىء الجنوبى للدانوب— وتراقيا . وقام القائد الرومانى السناتور دكيوس ، الذى صار امبراطوراً فيما بعد على رأس جيش لدفعهم ، فرأى القوط ألا قبل لهم بمدافعة الرومان فانسحبوا فى هدوء وعادوا من حيث أتوا وعبروا الدانوب ، ويقال إن عدداً كبيراً من الجنود الرومان قد انضم إلى القوط وحرضوهم على هجوم آخر بسبب تحقير دكيوس لهم ورميهم بالإهمال والتقاعد حتى طرد عدداً كبيراً من جنوده لأنهم فى نظره غير جديرين باسم الجنود[2] . وحينئذ تشجع ملك القوط وأرسل قوة بقيادة قائدين قوطيين هما : أرجيث (Argaith) وجونثاريك (Guntharic) ، استطاع هذا الجيش أن ينهب بعض أجزاء من ولاية مؤيسيا ، بل حاصر عاصمتها مدينة مارقيان (Marcianopolis)[3] ولم يجد سكانها بداً من مفاوضة القوط لرفع الحصار نظير دفع مبلغ كبير من المال فعاد القوط إلى أراضيهم[4] .

ويبتدىء تاريخ القوط المحقق حوالى هذا العهد ، كما يبدأ تأسيس الإمبراطورية القوطية المترامية الأطراف جنوب روسيا وشمالى البحر الأسود ،

---

(١) الملك أوستراجوتا أو اوستروجوتا أول ملوك أسرة الأمالين (Amalings) وهى الأسرة المعروفة التى انحدر منها ملوك القوط الشرقيين ، ولهذه الأسرة شهرة واسعة فى الحروب ، وهى سليلة بطل ظفر بلقب (Amala) أى العظيم . ولقد برهن أوستراجوتا على أنه جدير بحمل لقب هذه الأسرة ، إذ اشتهر هو بدوره بشدة مراسه فى الحرب وصبره فيها حتى لقب (بالصبور) وتوفى عام ٢٥٠ م . وأبرز سلالة هذه الأسرة الملك أرمازيك الذى انتحر عام ٣٧٥م (Bradley, pp. 13 - 43; Hodgkin, 1, pp. 43, 76 - 77; Lav. et Ramb, 1, p. 49 أنظر ما يلى ص ٤٠ ، ٤١) .

(٢) Hodgkin, 1, p. 49

(٣) شيد الامبراطور تراجان هذه المدينة تذكارا لأخته مارقيا (Marcia)

(٤) Hodgkin, 1, p. 50; Bradley, pp. 24 - 26

حيث يجرى نهر دنيستر وذلك بعد أن تغلبوا على بدو الاستبس ، ويجاورهم من ناحية الشمال الغربى عنصر الفن (Finns) ومن الشرق الآلان (Alans) الفرس، ولكن يلاحظ على هذه الإمبراطورية أنها كانت مفككة غير متماسكة الأجزاء[1] ، وبهذا الوضع أخذ القوط يلحون فى قرع بلاد الإمبراطورية الرومانية فتحركوا عام ٢٥٠ م بعد أن مرنوا على الحرب بالفرسان الثقيلة ، وتابعوا تخريبهم فى بلاد البلقان بقيادة ملكهم كينوا أو كنيفا (Kniwa or Cniva)[2] وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة فيليب (philippopolis)[3] حيث استمات الامبراطور دكيوس فى الدفاع عنها ، وظل يحارب حتى قتل هو وإبنه فى الحرب عام ٢٥١ م فى وقعة دبروجه (Abritius) ، وفشل خليفته على العرش الإمبراطورى تربونيانوس جالوس (Trebonianus gallus) فى دفعهم فسلّم لهم بالاستيلاء على البلاد التى فتحوها كما تعهد لهم بدفع جزية سنوية نظير عدم اعتدائهم[4]. غير أن الفوضى الحربية التى تلت هذه الحرب ، فى بلاد الإمبراطورية ، قد تركت الميدان خالياً تحت رحمة البرابرة ، وعجز الإمبراطور فاليريان (٢٥٣ — ٢٦٠) عن القيام بأى عمل فعال ، نظراً لانشغاله فى الحرب ضد الفرس فى أطراف آسيا الصغرى إذ حدث أن استولى الفرس على أرمينيا وانطاكيا ، ولكنهم هزموا هزيمة شنعاء قرب الرها عام ٢٥٩ / ٢٦٠ م . وخلال هذه الفترة كان القوط قد استأنفوا غزواتهم ، فاستولوا على القرم ، وعبروا البحر الأسود وضربوا مدينة طرابزوند على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، بل أمعنوا فى إيغالهم فى بلاد الإمبراطورية وضربوا خلقدنية ونيقوميديا وغيرها ثم عبروا إلى أثينا ونهبوها

---

(١) Deanesly, pp. 26 - 7; Boiss., pp. 8 - 9

(٢) ليس هذا الملك من سلالة الملك السابق .

(٣) Hodgkin, 1, pp. 52-3

(٤) Deanesly, p. 26; Lot, p. 35; Bradley, pp. 26-9

٢٦٧ م وجمعوا ما فى مكتباتها من كتب ، وأوشكوا أن يحرقوها ، لولا أن أحد عقلائهم نصح قومه بترك هذه الكتب ليتلهى بها الإغريق عن الإنشغال فى الحرب [١] . وكان ذلك على عهد الإمبراطور جاليانوس (Gallianus) — (٢٦٨ — ٢٧٠) وبعد مقتل جاليانوس على يد الحشاشين استطاع خليفته الإمبراطور كلوديوس الثانى (Claudius) (٢٦٨ — ٢٧٠) البانونى ، أن يهاجم القوط وأحلافهم من الباستارن والجبداى والهيروليين عند ما كانوا يخربون فى مدن مؤيسيا ،وفى وقعة حربية عنيفه قرب نيسس (Naïssus) وهى نيش الحالية فى صربيا العليا — عام ٢٦٩ م ، لقى القوط صدمة عنيفة ، خسروا فيها نحو خمسين ألف من رجالهم ، ومن أجل هـذا الظفر لقب الإمبراطور كاوديوس بقاهر القوط (Gothicus) [٢] . ومع هذا فلم يستطع خلف كلوديوس وهـو أورليان (Aurelian) (٢٧٠ — ٢٧٥) أن يتابع الزحف ، حقيقـة انتصر على القوط ولـكن انتصاره لم يكن حاسماً ، وخسر كثيراً كما أن القوط أنفسهم قد قاسوا كثيراً بسبب الحرب . فتهيأت الأحوال من الجانبين الموافقة على عقد هدنة ومعاهدة ، منح القوط بمقتضاها مقاطعة داكيا (Dacia) [٣] وتشمل ما هو ترانسلفانيا الحالية والجزء الغربى من المجر وغربى ولاشيا [٤] وفى نظير ذلك يتعهد القوط بإمداد الجيش الرومانى بفرقة من الفرسان القوط قوامها ألفا فارس . ثم إن الإمبراطور أخذ عدداً من أبناء وبنات الأسر النبيـلة القوطية كضمان لولاء القوط أو رهينة لينشأوا تنشئة رومانية فى رعاية الإمبراطور ، وبعد ذلك عيّن بعض شباب القوط فى مناصب عليا بالقصر الإمبراطورى ، وزوّج عدداً من بنات القوط من كبار ضباطه . بهذا الارتباط أضحى القوط محالفين ومحافظين على المعاهـدة

(١) Bradley, pp. 31 - 33

(٢) Gibbon, 1, pp. 372 - 4

(٣) أضيفت هذه الولاية على عهد الأمبراطور تراجان .

(٤) Courcelle, p. 10; Hodgkin., 1, pp. 45 - 6

لمدة نصف قرن تقريباً ، حيث استفادوا من حياة السلم فى داكيا وتأثروا بالحضارة الرومانية أكثر من أشقائهم الشرقيين المنتشرين فى وديان ليتوانيا الواسعة وجنوب روسيا [١].

وفى فترة الخمسين عاماً منذ عهد أورليان ، كان تاريخ القوط فيها غير واضح ، وأول خروج لهم بعد انقضاء هذه الفترة كان عام ٣٢٢ م ضد الإمبراطور قسطنطين الأكبر فهزمهم وأخضعهم حتى أنهم ساعدوه فى السنة التالية ضد ليكنيوس ، وقاد القوط فى هذه الحرب ملوكهم مثل أرياريك وأيوريك (Ariaric, Aoric) [٢] ، وبعد ثمانى سنوات حاربهم قسطنطين مرة أخرى وانتصر عليهم فطلب القوط مهادنتهم وعقدت محالفة ظل القوط بعدها نحو ٣٠ سنة لا يقلقون أمن الإمبراطورية [٣]. على أنه حتى ذلك الوقت لم يكن العنصر القوطى قد هاجر بأعداد ضخمة إلى البلقان ، فلم تزل هناك إمبراطوريتهم الواسعة جنوب روسيا ... [٤].

* * *

وعن انقسام القوط إلى شرقيين وغربيين ، فالمعروف أنهم منذ مطلع القرن الثالث الميلادى ، وهم على شواطىء البحر الأسود الشمالية انقسموا إلى فرعين كبيرين هم : القوط الشرقيون (Greutungs) أو (Greuthungi) والقوط الغربيون (Thervings) أو (Tervingi) . أقام الأولون شرقى نهر دنيستر بينما استقر الآخرون فى غربه ، ولا تعنى هذه التسمية سوى دلالتها على الوضع الجغرافى لهذين الفرعين [٥] ، ولو أن من المؤرخين من أضاف إلى هذا التمييز المكانى تمييزاً

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 69 - 70, 73 - 4; Bradley, pp. 34 - 7

(٢) Hodgkin, 1, pp. 71 - 4

(٣) C. med. H., 1, p. 39; Bradley, pp. 40 - 1; Lot, pp 35 6

(٤) Hodgkin, 1, p. 71; Deanesly, pp 26 - 7

(٥) Moss, p.44; lav. et ramb., 1, p.49; C. med. H, 1, p.39; Bradley p.5

معنويا آخراً ، فيفسر كلمة (Creuthungi) أو (Greutungs) التى صارت فيما بعد (Ostrogoths) بمعنى القوط اللامعين من الكلمة (Autr) بمعنى اللامع ، وكلمة (Thervringi) أو (Tervingi) وهى التى عرفت فيما بعد باسم (Visigoths) ، بمعنى القوط العقلاء أو الراشدين[1] ومهما كان التمييز بين الفرعين فالثابت أن الحد الفاصل بين عنصرى القوط هو نهر دنيستر (Thyras) والثابت كذلك أن القوط بشطريهم ظلوا يعملون معاً ، كما وضح من الأحداث السابقة وأن العنصر الغالب فى الفريق الذى احتك بالإمبراطورية الرومانية كان من القوط الغربيين ، ولو أن الجميع يخضعون لسيادة عليا واحدة هى سيادة ملك القوط الشرقيين ، ثم إن الغربيين هم الذين عقدوا المعاهدة مع الإمبراطور أورليان ، واستقروا بمقتضاها فى منطقة داكيا ، وهم الذين خرجوا على عهد قنسطنطين الباكر وحاربوه وانهزموا أمامه فعقدوا معه معاهدة . وكان من نتيجة الإقامة الطويلة فى ولاية داكيا وتقدر بنحو مائة سنة من (٢٥٠ — ٣٥٠ م) أن الشقة قد اتسعت بين فرعى القوط[2] . ومن عجيب الصدف أن هذا التمييز الجغرافى بين فرعى القوط ظل واضحاً حتى بعد تكوين دول القوط فيما بعد ، فكان القوط الغربيون فى تولوز فى الغرب بينما كان القوط الشرقيون ، إما فى المجر أو فى إيطاليا ، أى شرق أشقائهم[3] .

ظل القوط الغربيون يخضعون لسيادة أشقائهم الشرقيين فترة طويلة ، وكما القوط الشرقيون قد كونوا لهم امبراطورية متسعة بلغت ذروة مجدها واتساعها خلال القرن الرابع الميلادى وذلك على عهد ملكها ارمازيك (Ermannric أو

---

(١) Davis, p. 22; Hodgkin, 1, pp. 400 - 2; Lot, p. 50

(٢) Encycl. Britt; Bradley, p. 38; Deanesly, p. 26; Hodgkin, 1, p. 74

(٣) Hodgkin, 1, p. 73

Hermanrice الذى ولى العرش عام ٣٥٠ م وهو سليل أسرة الأماليين[(١)] شملت هذه الامبراطورية ما هو أوكرانيا الحالية تقريباً ، ولبعد صيت هـذا الملك شبهه جوردين مؤرخ القوط بالاسكندر المقدونى ، وقالوا عنه إنه اسكندر القوط الشرقيين[(٢)]. ورغم خضوع القوط الغربيين لسيادة إرمانريك ، فإنهم كانوا مستقلين من الناحيـة العملية ولهم حكامهم فـكانوا ينقسمون إلى قبائل على رأس كل قبيلة حاكم أو قاضى ، وليست لهم رئاسـة موحدة ، وأن اعترفوا جميعاً — ولو نظرياً بالسيادة العليا لملك القوط الشرقيين[(٣)] .

* * *

وفى داكيا وصلت المسيحيـة إلى القوط الغربيين وكذلك إلى بعض الشرقيين فى أوكرانيا[(٤)] على يد المبشر القوطى أوليفلاس — Ulfilas — (٣١١ — ٣٨٠ م)[(٥)]. ويرجع هذا المبشر إلى أسرة يونانية الأصل كانت تقيم فى إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ، حيث وقع جده القبادوقى أسيراً فى يد القوط حين غزوا آسيا الصغرى ونهبوها عام ١٦٧ م . وولد أوليفلاس فى المنطقة التى كان يقيم

---

(١) أنظر ما سبق ص ٣٦ حاشية ١ .

(٢) قامت امبراطورية القوط الشرقيين على حساب عنصر السارمانيين الايرانى ، وهو الذى كان قد حل بدور محل السكيثيين (Scythians) الايرانيين كذلك ، شمالى الدنوب حتى نهر دنيستر ، وذلك منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، فانحاز السكيثيون إلى الأطراف عند نهر الدن (Tanais) ، وإلى شبه جزيرة القرم ، توالت عزوات السارماتيين حتى القرن الأول الميلادى وعندما جاء القوط ، انحاز هؤلاء السارماتيون إلى بلاد الامبراطورية الرومانيـة لاجئين (Bradley, pp. 38 - 9, 43 - 4; Lot, pp. 50 - 2 Hodgkin, I, p. 76 ; C. med. H. IV pp. 183 - 4).

(٣) Hodgkin, 1, pp. 400 - 2; Bradley. pp. 39, 43 - 6

(٤) Thomp , 45; Lot, p. 170

(٥) كتب اسم أوليفلاس بأوضاع مختلفـة منها : Vulfila, Ulphilas, Wulfila ، Woelfen ، ومعنى هذه التسمية : الذئب الصغير ، (Lav. et Ramb, 1, p 50) .

بها القوط حوالى عام ٣١٠ أو ٣١١ م ، وأسماه أبواه اسماً قوطياً ونشأه على النظام القوطى ، وعلى أثر هزيمة القوط أمام الامبراطور قسطنطين الأكبر ، عقدت محالفة بينهم وبين الامبراطورية البيزنطية عام ٣٣٢ م ، وقدم أوليفلاس ضمن السفارة القوطية إلى القسطنطينية لمفاوضة الامبراطور قسطنطين فى شروط الصلح ، ليتولى أمر الترجمة إذا كان يجيد الأغريقية بجانب القوطية ، وربما كان سبب مجيئه إلى بيزنطية أمراً آخر غير هذه السفارة ، فقد قيل إنه كان من ضمن الرهائن الذين بقوا فى بيزنطة لضمان تنفيذ المعاهدة ، وأيا كانت العلة فى وجوده بالقسطنطينية ، فإن أوليفلاس أقام بهذه المدينة فترة من الزمن حيث تعلم وتثقف بالثقافة الاغريقية كما درس اللاتينية[1] .

ولكن أوليفلاس قام بدور يشبه إلى حد ما قام به النبى موسى عليه السلام ، فرغم أن موسى تعلم حكمة المصريين وتربى فى بلاط فرعون ، فإنه عمل على انقاذ قومه وهدايتهم إذ لم يقبل أن يعيش رافها مهذباً وقومه فى ضلال وبؤس . ولسنا نعلم بالضبط ، هل كان أوليفلاس يعتنق المسيحية قبل وصوله إلى القسطنطينية أم لا ؟ والمؤكد أن المسيحية كانت قد وصلت إلى نفر قليل من القوط قبل عهد أوليفلاس تحمس أوليفلاس للمسيحية ورغب أن يكون رسولها بين قومه . صار قسيسا فى بيزنطة (Reader, Rector)عام ٣٤١ ، وحين بلغ سن الثلاثين قرر مجمع انطاكية الدينى بارشاد ايزوب — Eusebius — (٣٦٠ — ٣٤٠ م)[2] رئيس الحزب المعارض للبطريق الاسكندرى أثناسيوس ، تعيين أوليفلاس أسقفا ومبشرا بين القوط المقيمين شمالى الدانوب[3] .

---

(١) Hodgkin, 1, pp 80-1; Bradley, p. 57

(٢) Barker (E.): From Alex. to Constantine, pp. 472 - 80

(٣) Bradley, pp. 57 - 8; Lot, p. 38; Deanesly, pp. 26 - 7; Hodgkin, 1, p. 81; Lav. et Ramb., 1, p. 60

ظل أوليفلاس نحو سبع سنوات ينشر المسيحية بين القوط فى اقليم دا كيا حيث كثر أتباعه رغم اضطهاد ملكهم اثاناريك للمسيحية ولما اشتد اضطهاده كتب أوليفلاس إلى الأمبراطور قنسطنطيوس (٣٣٧ — ٣٦١ م) يطالب منه أن يمنح القوط وطنا داخل الامبراطورية للخلاص من هذا الاضطهاد فاستجاب له الامبراطور وجاء أوليفلاس مع بضعة آلاف من القوط المسيحية وعبروا الدانوب واستقروا قرب نيقو بوليس فى مؤسيا عند سفح جبال البلقان فكان هذا الفريق من القوط سباقا إلى الدخول فى المسيحية والتحمس لها؛ وأعجب قنسطنطيوس بأوليفلاس حتى كان و يتحدث عنه دائما باسم (نبيناموسى الثانى) — (Our second Moses) ظل هذا الفريق الموادع من القوط المسيحيين يقيمون فى تلك المنطقة عدة قرون فى هدوء يزرعون أرضهم ولا يشتركون فى الحروب العنيفة التى تدور حولهم ، ونظراً لبعد صيت أوليفلاس فى مهمة التبشير صار يعرف باسم رسول القوط أو حوارى القوط — (Apostle of the Goths) كما أطلق عليه جوردين (Jordanes) المؤرخ القوطى فى القرن السادس الميلادى : القسيس والمطران (Priest & Primate)[1] .

ويلاحظ أن جميع القوط المسيحيين لم يغادروا دا كيا مع أوليفلاس ، بل بقى عدد كبير منهم ، وازداد عدد المسيحيين بالتدريج ، حتى أنه حوالى عام ٣٦٩ م قرر أثاناريك اتخاذ اجراءات اضطهادية ضدهم، ولاسيما وأن منافسة فريتجرن[2] كان مسيحياً أو يميل إلى المسيحيين ، ولما غادر أثاناريك البلاد وذهب إلى مرتفعات ترانسلفانيا ، لم تكن هناك ثمة مقاومة فى سبيل انتشار المسيحية ، وفى سنوات قليلة تحول جميع القوط الغربيين والشرقيين على السواء إلى المسيحية[3] .

(١) Deanesly, pp. 26 - 7; Pirenne (H.) p. 25 Hodgkin, 1, p. 83

(٢) عن أثاناريك وفريتجرن أنظر ما يلى ص ٤٨ وما يليها .

(٣) Hadrill, pp. 21 - 23, Hodgkin, 1, p. 81; Bradley, p. 58

كانت المسيحية التي اعتنقها أوليفلاس ونشرها بين القوط ، على المذهب الأريوسي نسبة إلى أريوس (Arius) الاسكندرى (ت ٣٣٦ م) الذى كان أول من أثار الجدل حول طبيعة المسيح ، وقرر بأن المسيح و إن اتصف بالألوهية إلا أنه مخلوق بأمر الآله الأب وهو لذلك أقل مرتبة منه ، ورغم ما ظفرت به هـذه العقيدة من تأييد وخطوات رسمية بسبب تعضيد الأسقف ايزوب — مستشار الامبراطور قنسطنطين الأكبر ، فإن مجمع نيقيا قد استنكرها فى المجمع المسكونى الذى عقد عام ٣٢٥ م(١) .

أما نتائج اعتناق القوط للمسيحية الأريوسية من الوجهة السياسية ، فلم تظهر إلا فيما بعد(٢) وحسبنا أن نقول إن الأريوسية كانت كريهة للأمبراطورية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية ، وأعمق أثراً فى تفكك الدول الجرمانية التى دانت بها ، من الاختلاف الجنسي أو الثقافى أو الحضارى بين الرومان والبرابرة .

على أن أهم ما قام به أوليفلاس بعد التبشير بالمسيحية هو ترجمة الإنجيل إلى اللغة القوطية التى يجيدها ، وتدريب عدد من القوط ليخلفوه فى مهمته الدينية بين قومه . قضى جزءاً كبيراً من حياته فى ترجمة الإنجيل ، وكان للقوط حروف أبجدية وكتابة بلغتهم ، لـكنه كتب هذه الترجمة القوطية بحروف إغريقية كبيرة كما كان المألوف فى كتابة الـكتب حينئذ ، وفى حالة الأصوات القوطية التى يصعب التعبير عنها بالحروف الأغريقية ، عبّر عنها أوليفلاس فى ترجمته بالحروف القوطية ، مع تغيير أشكالها حتى تبدو متفقة إلى حد كبير مع الحروف الأغريقية(٣) .

---

(١) راجع فيشر : (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) جـ ١ ص ١٧ — ١٨؛ Hodgkin, I, pp, 90 - 2 Encycl of Rel. Ethics, Vol. I, ; Lav. et Ramb., I, p. 61 Aat. , "Ariamism"

(٢) أنظر السياسة الدينية .

(٣) Hodgkin, 1, pp. 84 - 86; Bradley, p. 61

وأقدم مخطوط للأنجيل المترجم إلى القوطية ، كتب بعد أوليفلاس بنحو ١٥٠ سنة ويحتمل أن أشكال الحروف قد تغيرت قليلا قبل هـذا الوقت ، ولـكن من السهل أن نرى الحروف الأبجدية القوطية هى نفس الحروف الأبجدية الأغريقية تقريباً مع إضافة ستة حروف جدد[١] ، وبذلك يكون قد أتم الحروف القوطية[٢] .

وتعتبر ترجمة أوليفلاس للأنجيل ترجمة جيدة بالنسبة للعصر الذى عملت فيه حين لم يكن من السهل فى القرن الرابع ، على قوطى أن يجيد الأغريقية لدرجة تمـكنه من فهم نصوص الأنجيل . والترجمة الدقيقة من لغة إلى أخرى تقتضى عقلية رشيدة دربت على التفـكير الدقيق . ولـكن توجد فقرات قليلة لم يستطع أوليفلاس أن يوضح فيها المعنى المقصود من أصل النص . فـكثير من الـكلمات التى وردت بالأنجيل ليس لها مقابل فى اللغة القوطية نظراً لأنها تشير إلى أشياء أو حوادث تتعلق بالحياة الحضرية ، أو تشير إلى أفـكار وآراء تمت إلى طرق التفـكير المسيحية ، وهذه جد غريبة على عقول الوثنيين . ولـكى يتغلب أوليفلاس على هذه الصعوبة ، كان يترجم مثلا كلمـة كتابة (Writing) فى الإنجيل الأصلى إلى كلمـة تدل على معنى الرسم أو التصوير والتأشـير (Painting or marking) فى اللغة القوطية . وكلمة القراءة (Reading) إلى ما يدل على معنى الغناء (Singing)[٣] .

وليس من المعروف على وجه الدقة مقدار ما ترجمة أوليفلاس من الإنجيل ، ذكر بعض المؤرخين القدماء أن أوليفلاس ترجم الإنجيل كله ما عدا سفر الملوك (Book of Kings) الذى تركه عمداً لأنه يعتقد أن قصص حروب بنى اسرائيل

---

(١) Hodgkin, 1, pp, 84 - 5

(٢) Lav. et Ramb., 1, p, 60

(٣) Bradley, p, 62

من الخطورة قراءتها عند قوم تغلب عليهم النزعة الحربية [١] . وكذلك خشى من تأثير هذه الحروب على عقول القوط ، ويناقض هذا أن سفرى يوشع (Joshua) والقضاء (Judges) اللذين ترجمهما ، ربما كان لهما من الأثر فى إشعال الروح الحربية والرغبة فى الحرب أكثر مما يؤدى إليه سفر الملوك ، و يحتمل أن هذا التفسير الذى ذهب إليه المؤرخ القديم غير صحيح والراجح أن أوليفلاس مات قبل أن يتم ترجمة الأنجيل [٢] .

أما نهاية أوليفلاس ، فكانت بالقسطنطينية ، حين زارها عام ٣٨١ م بدعوة من الأمبراطور تيودسيوس الكبير ، وعند وصوله إلى العاصمة الامبراطورية ، مرض ومات ، وكان تلميذه الذى خلفه فى مهمته هوا كسنتيوس (Auxentius) [٣] .

هكذا كان انتشار المسيحية الأريوسية بين القوط ، أما كيف اتخذ الغربيون لهم طريقاً مستقلا عن أشقائهم الشرقيين ، فلم يحدث هذا إلا بعد انحلال امبراطورية القوط الشرقيين ، ومع ذلك فقد ظل التعاون والارتباط بينهما بشكل ما ، حتى بعد تأسيس دولتى القوط .

تحطمت امبراطورية القوط الشرقيين على يد الهون من المغول إذ انساحت جموعهم الكاسحة حوالى عام ٣٧٠ م بقيادة ملكهم الخان بالامبر (Balamber)

---

(١) Lav. et Ramb., 1, p. 60

(٢) اكتشفت أهم نسخة من ترجمة أوليفلاس فى القرن السادس عشر الميلادى فى دير بمدينة ڤردن (Werden) ، وتداولت هذه النسخة أيدى كثيرة ، حتى اشتراها الكونت دولاجاردى (De La Gardie) السويدى ودفع ثمنا غاليا عبارة عن كمية كبيرة من الفضة، ولذا عرفت هذه النسخة باسم الكتاب الفضى أوالمجموعة الفضية (Codex Argenteus) ، وهذه النسخة محفوظة الآن فى مكتبة جامعة ابسالا (Upsala) ، ويعد من أثمن ما تحويه مكتبات أوروبا ، فهو مكتوب بحروف من ذهب وفضة على ورق من الجلد القرمزى ، واكتشفت نسخة أخرى من هذه المخطوطة فى القرن السابع عشر بألمانيا ، أما بقية النسخ الست ، فقد اكتشفت فى إيطاليا منذ نحو قرن (Bradley, pp, 63 - 4) .

(٣) Bradley, pp. 63 - 4; Hodgkin, 1, pp. 86 - 9

وحطموا فى طريقهم امبراطورية الآلان الإيرانية التى كانت تمتد من جبال القوقاز وفى قلب آسيا حتى بحيرة آرال[١]. ولما عجز أرمانريك — اسكندر القوط الشرقيين — عن رد هذه الموجة المدمرة ، انتحر عام ٣٧٥ م بعد أن عمّر قرنا من الزمان .

ومن ثم انهارت امبراطوريته الواسعة ، فتفرق القوط الشرقيون إلى وحدات أربع :

١ — فريق لم يقبل الخضوع لسيادة الهون وهاجر بقيادة سافراكس والأثيوس (Safrax, alastheeus) ومعهما صبى يسمى Widerlo) وهو من الأسرة الآماليه الشهيرة ، انتخبوه ملكا عليهم وتوجهوا غربا إلى الدانوب ، حيث انضموا إلى القوط الغربيين الذين كانوا قد سبقوهم[٢] .

٢ — فريق وجه إلى القوم وهو الذى أطلق عليه كتاب بيزنطة القوط الأغريق : (Gotho-Grecs)[٣] .

٣ — فريق ثالث ظل ببلاده وانتخب له ملكا هو (Winitharl أو winithaharyis) حفيد أخى أرمانريك ، وهذا الفريق ثائر حاول طرد الهون وقام بتخريب بعض البلاد الخاضعة للهون كما ارتكب كثيراً من الفظائع[٤] .

---

(١) تقيم بقايا عنصر الآلان اليوم — ويسميهم العرب اللان — وسط جبال القوقاز ويعرفون باسم الأوستين (Ossétes)؛ وهو عنصر أشقر ذو قامة متوسطة(Lot, p. 52 Lav, et Rame, I, p. 59)

(٢) Firenu (II,) p, 26; Daanesly, p, 16, Lot, pp, 58, 9Ere, p, 58

(٣) Lot, p. 58

(٤) كان حفيد الملك ونيثارى هو الذى تولى الملك على الفريق الرابع المسالم للهون ، حوالى عام ٤٤٠ م وذلك بإذن من ملك الهون . واسم هذا الحفيد ولامر Walamer غير أنه لم يلبث أن خرج على الهون حين ضعف أمرهم بعد موت ملكهم أتيلا عام ٤٥٣ م واستطاع أن يهزم الهون . وكان له أخوان أشركهما فى الحكم هما ودومر وثيودمر (Widumer) (Theudemer) وفى يوم النصر على الهون أنجب الأخ الأخير ثيودمر ولدا هو ثيودريك الذى اشتهر أمره فيما بعد وصار ملكا على إيطاليا وأعظم ملوك القوط قاطبة (Bradloy, pp. 48 - 9)

٤ — فريق رابع لم يتبرم بسيادة الهون وملك هـذا الفريق هينمند (Hunimund) ، ابن أرمانريك ظل يعترف بسلطة الهون وحارب فى جانبهم ضد الفريق الثائر[١] .

أما مصير القوط الغربيين الذين كانوا خلال النصف الأخير من القرن الرابع الميلادى جزءاً من الامبراطورية القوطية الشرقية ، ومن رعايا ارمانريك فانه منذ وضح خطر الهون وبدأ هجومهم وثارت الشعوب الخاضعة للقوط الشرقيين ، منح ارمانريك رعاياه من القوط الغربيين مزيداً من الاستقلال وحرية العمـل فسمح لهم بتدبير جميع شـؤونهم بأنفسهم حتى فى المسائل الخارجية كإبرام المعاهدات أو شن الحروب، من غير ضرورة لأخذ موافقة الملك ، وكانوا حينئذ ينقسمون إلى ثلاث قبائل على رأس كل قبيلة رئيس أو قاض (Judex) وهؤلاء القضاة هم الثلاثة أخـــوة[٢] . أثانريك وفريتجرن وألوى (Athanaric, Fritigern, Alawiw) وكان أثاناريك أقوى الثلاثة ، ويبـدو أن الإثنين الآخرين قد سلما له بنوع الرئاسة العليا[٣] . بذل أثانريك جهداً كبيراً محاولا طرد الهون ولـكنه فشل[٤] .

ورث زعيم القوط الغربيين منزلته وسلطته عن أبيه روتسيتز (Rhothesteus) الذى عرف بإخلاصه للرومان حتى أنهم أقاموا له تمثالا بالقسطنطينية ورغم ما عرف عن أثانريك من الشجاعة وقـــوة المراس فى الحرب، إلا أن شهرته ارتبطت بالخداع والمـكر أكثر من ارتباطها بالشجاعة . رغب مخلصـاً فى المحافظة على سياسة أبيه فى محالفة الرومان ، غير أنه ارتـكب غلطة كلفته وقومه ثمناً غالياً ،

---

(١) Ibid, p. 47

(٢) Lav, et Ramb., 1, p. 61

(٣) Bradley, p, 50

(٤) Deanesly, p. 26

ذلك أن بروكبيوس[1] (Paocopius) أحد أقرباء الإمبراطور ڤالنس (٣٦٣ — ٣٧٨) خرج عليه وتمكن من طرده من العاصمة والاستيلاء على عرش الإمبراطورية فترة من الزمن ، طلب هذا المغتصب مساعدة حربية من القوط الغربيين بمقتضى المعاهدة معهم ، فأسرع أثاريك وأرسل إلى تراقيا قوة قوامها نحو ٣٠ ألف مقاتل ، اعترافاً منه بالأمر الواقع ، والملاحظ أنه لم يقد الجيش بنفسه ، إبقاء للقسم الذى قيل إن أباه استصدره منه قبيل وفاته ، بعدم قيادة جيش ضد الرومان . وفى عودة هذه القوة القوطية خربت فى طريقها ولايات تراقيا ونهبتها بموافقة الامبراطور القائم ، وحينئذ وقع ما لم يكن فى الحسبان إذ جاءت الأنباء بمقتل بركبيوس عام ٣٦٩ م وعودة ڤالنس إلى عرشه[2].
و بدلا من أن يكف القوط عن نهبهم و يطلبوا الصفح من ڤالنس ، تمادوا فى تخريبهم ، فلم يكن هناك بد من العمل على إيقاف هذا النهب ، وتمكنت الجيوش الإمبراطورية من قطع الطريق على القوط ومنع وصول التموين إليهم كما حالت دون عودتهم إلى الدانوب ، وضيقت عليهم الحصار حتى أجبرتهم على التسليم من غير قيد أو شرط . لم يقتلهم الرومان و إنما استرقوهم و باعوهم كما سجنوا قوادهم فى أماكن نائية . وعندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى أثاريك بعث بسفرائه إلى القسطنطينية لا لطلب الصفح والمغفرة بتواضع وصراحة ، بل ادعى سلامة النية وأن كل ما فعله القوط الغربيون إنما هو إيفاء بشروط المعاهدة المعقودة بينهم و بين الرومان واستدلوا على سلامة النية والسذاجة بمساعدتهم للإمبراطور الذى اتضح أنه كان داعياً ومن ثم طالبوا بإطلاق سراح أسراهم . اقتنع ڤالنس وكاد يصفح ، غير أنه حين استشار أخاه ڤالنتنيان

---

(١) بروكبيوس سليل أسرة نبيلة من قيليقيا (Cilicia) بآسيا الصغرى ، وله سمعة عالية فى الخدمات المدنية والعسكرية على السواء ، قام بثورة انتهت بانتزاع العرش لفترة معينة
(Hodgkin, 1, pp. 139 - 44)
(٢) Ibid, p. 156

(٣٦٤ — ٣٧٥) امبراطور القسم الغربى من الإمبراطورية ، نصحه بسرعة الهجوم على أثانريك فى بلاده (داكيا)[١].

لبى فالنس نصح أخيه وحارب القوط الغربيين لمدة ثلاث سنوات وانتصر فى أكثر المواقع ، ولكنه لم يكن انتصاراً حاسماً وانتهت الحرب بالصلح ، ووافق أثانريك المخادع على أن يقطع الجعل الذى كان يتقاضاه زعماء القوط من الرومان بشرط اعتراف الرومان به ملسكا على جميع القوط ، كما أن فالنس رأى أن تعدل الشروط عن طريق المقابلة الشخصية مع سيد القوط الذى بدا محترماً فى نظره ، فاعتذر أثانريك عن استحالة انتقاله عبر الدانوب بمقتضى القسم الذى أخذه أبوه عليه بألا يعبر الدانوب أو يطأ أرض الرومان[٢]، وفى نفس الوقت هدد باعتبار المعاهدة منقوضة إذا دخل فالنس أرض القوط فى داكيا ، واقترح أن تتم المقابلة فى زورق وسط نهر الدانوب ، وهنا نجد بعض الطرافة فى أن أثانريك تحاشى التعرض أو الإشارة إلى كل ما يدل على اعترافه بهزيمته أمام الرومان ، ولابد أن فالنس قد شعر بأن البربرى يسخر منه ولكنه لم يجرؤ على رفض الترتيب المقترح ، وقعت المعاهدة وأخذ الطرفان رهائن لضمان تنفيذها ، ومن ثم عاد فالنس ودخل عاصمته دخول الظافر فى احتفال مهيب ، حيث نعته الخطباء بأنه « قاهر القوط » الثانى[٣].

شغل أثانريك بعد ذلك فى اضطهاد المسيحيين الذين كثروا بين رعاياه[٤] كما انشغل فى حرب ضد منافسه فريتجرن[٥]، ولم يكد يأتى عام ٣٧٦ م حتى أنهى قضاة القوط أو زعماؤهم ما بينهم من منافسة ونزاع ، ولما كان

---

(١) Bradley, pp. 52 - 3

(٢) أنظر ما يلى ص ٦٠

(٣) Bradley. p 54 ، أنظر ما سبق ص ٢٦ .

(٤) Hodgkin, 1, p. 177

(٥) Ibid, p. 183

أثاناريك هو المتولى للقيادة العامة لجيش القوط جميعهم ، فقد فوجىء وهو على غربى نهر الدنيستر بعبور الهون على ظهور خيولهم ومهاجمتهم له ، فلم يستطع الثبات أمامهم وفر ، وحينئذ أرسل زعيما القوط الآخران : فريتجرن ، وألوى ، فى طلب الإذن من الأمبراطور فالنس ، لعبور نهر الدانوب ، إذ لم يعد باستطاعة القوط المقام فى داكيا التى هددتها جميع الهون العنيفة ، وعبثا حاول أثاناريك فى حمل قومه المدبرين على مقاومة الهون ، ولذا رحل مع فرقة من جيشه نحو مرتفعات ترانسلفانيا فى الشمال الغربى ، واختفى عن مسرح الحوادث نحو أربع سنوات أو خمس[1]. وفى خلال هذه الفترة أضحى منافسه فريتجرن الملك الفعلى للقوط[2].

انتظر القوط الغربيون الإذن من فالنس لعبور الدانوب ، فراراً من خطر الهون المحدق ، والذى يقترب منهم يوما بعد يوم ، وكان فالنس فى أنطاكيا مشغولا بحرب الفرس[3]، حين استقبل قصاد القوط من قبل فريتجرن ، شرح له هؤلاء القصاد مدى خطورة الهون ووعدوه بأن يكونوا من رعاياه المخلصين إذا منحهم وطناً فى تراقيا عبر الدانوب ، وكان لا بد من الإجابة بنعم أولا فى ذلك الظرف الدقيق ، ليس هناك فرصة للتردد أو المشاورة ، تردد بعض مستشارى فالنس فى السماح لهم لما قد يكون هناك من آثار سيئة قد لا تكون واضحة فى ذلك الوقت ، على حين رأى البعض الآخر أن هناك فائدة كبرى فى الإذن لهؤلاء ، وذلك لحاجة الإمبراطور إلى الرجال ، وهذه فرصة سانحة لإضافة نحو مليون من الرعايا فى لحة عين ، انتهى الأمر بالموافقة ، وصدرت الأوامر إلى حكام الرومان عند الدانوب بعمل ما يلزم لنقل القوط عبر النهر ، وسرعان

---

(١) أنظر ما يلى ص ٦٠

(٢) Creighton, p.117; Gibbon, III, p.380 Bradley p.,55

(٣) Pirenne (H.) pp. 26 - 7; Lot, p. 59

ما جمعت القوارب وبدأ النهر يموج بأعدادهم الزاخرة ، المتحرقة للعبور أمام خطر الهون حتى أن بعضاً منهم قد غرق فى النهر لشدة الازدحام ، ولعل فى هذا ما يشبه حين تزاحم أهل بغداد على عبور الدجلة أمام خطر المغول فى القرن الثالث عشر فيما بعد ، استمروا يعبرون النهر عدة أيام أمام حماقة الجماهير وحراس الحدود ، عبر القوط بنسائهم وأطفالهم وسائمتهم ، ولما كان عدد القوارب غير كاف أمام هذه الجموع المتهافتة ، فقد استخدمت الألواح الخشبية السميكة والقرب المنفوخة وكذلك البراميل ؛ حاول الرومان تعدادهم أثناء العبور فلم يتمكنوا[1] ، فهذا شعب بأكمله يهاجر ، تم ذلك فى ربيع عام ٣٧٦م واستقروا بموافقة فالنس فى منطقة دورستورم (Durostorum) وهى فى مؤيسيا السفلى أو بلغاريا الحديثة ، وعين فريتجرن ، ملك القوط الغربيين ، قائداً فى الجيش الرومانى حتى يشعر زعيم القوط بأن له صفة رسمية فى الأمبراطورية[2] .

لم يكد القوط الغربيون يستقر بهم المقام كمعاهدين فى هذه المنطقة حتى بدأوا يتبرمون من سوء المعاملة التى لقوها على أيدى الرومان ، ولا سيما وقد جاءتهم الأنباء بأن أطفالهم سوف ينتزعون منهم كرهائن ، ويوضعون فى أماكن نائية بالإمبراطورية ، لأن الرومان رأوا اتخاذ مثل هذا التدبير لكى يحملوا القوط على الهدوء وعدم الإخلال بأمن الإمبراطورية ، وحينئذ بدأ القوط يفكرون فى الانتقام حين نفذ هذا التدبير .

على أن فالنس سرعان ما اكتشف غلطته الكبرى فى السماح لهؤلاء بالإقامة فى قلب الإمبراطوريه ، فرأى اتخاذ إجراء آخر ليأمن شرهم ، وهو أنه أمر بتجريد الرعايا الجدد من سلاحهم ، إلا أن ثروة القوط التى جمعوها من

---

(١) قدرهم المؤرخ بيورى بنحو مائتى ألف (أنظر Bury (J.) : Hist. of the Later Rom. Emp 1, p. 104)

(٢) Deanesly, pp. 26 - 7; Lot, p 59; Hodgkin, 1, p. 245; Gibbon, III, pp. 380 - 382; Diehl : hist. generale, pp. 5-6

منهو بأنهم السابقة مكنتهم من رشوة الموظفين الرومان حتى تركوا لهم أسلحتهم ، كذلك أمر الإمبراطور بتوزيع القوط فى فرق مختلفة وفى جهات مختلفة .

وفى هذا الوقت وصل فريق القوط الشرقيين الذى لم يقبل الخضوع لسيادة الهون ، وهذا الفريق بقيادة سافراكس والأثيوس ، وعند الدانوب التمسوا من فالنس السماح لهم بعبور النهر ومنحهم ملجأ ، فرفض الإمبراطور حتى لا تتضاعف مشاكله ، غير أن القوط الشرقيين لم يستجيبوا لهذا الرفض ، وعبروا الدانوب من أماكن خالية من الحراسة ، وتابعوا سيرهم لينضموا إلى أشقائهم الغربيين[1] .

ورغم التوصيات الصادرة من الإمبراطور فالنس بحسن معاملة القوط وعدم المغالاة فى بيع المواد الغذائية اللازمة لهؤلاء المعاهدين ، حتى يتمكنوا من الزراعة والإنتاج ، فإن تصرفات الحكام الرومان ، كانت اسوء الحظ الوقود المباشر لإثارة القوط ودفعهم للخروج على شروط المعاهدين فضلا عن عدم رضائهم عن الشروط التى فرضت عليهم ، فمثلا تطرف حاكما تراقيا وهما : ليبيكنوس وماكسيموس (Lupicinus & Maximus) واستغلا حاجة القوط للمواد الغذائية إذ وجدا فى محنتهم فرصة للأثراء ، فاحتكرا شراء هذه المواد من المنتجين بأرخص الأسعار وباعاها للقوط بأثمان خيالية ، لدرجة أن كان القوطى يدفع عبداً من عبيده ثمناً لرغيف الخبز الواحد ، أو عشرة أرطال من الفضة نظير الحصول على ماشيه للذبح ، وغالباً ما أجبر القوط على أكل لحوم الكلاب[2] .

لم يحتمل القوط الصبر على هذا الوضع ، فقرروا الخروج على الرومان والثورة على فالنس[3] ، وربما كان ذلك بتشجيع من الهون الذين حرضوهم[4] ، ولم يكن

---

(١) Pirenne (H.) d 26; Lot, pp. 58 - 9; Eyre, p. 24; Bradley, pp. 65 - 67; Deanesly, p 26

(٢) Hodgkin, 1, pp. 254-6; Bradley, pp 67-8; Gibbon, III, pp. 385-6

(٣) Moss, pp. 44 - 5

(٤) Deanesly, p. 26

القوط بحاجة كبيرة إلى من يثورهم ، وسرعان ما عبروا جبال البلقان عام ٣٧٧م)
ودخلوا تراقيا ومقدونيا فهرب قائد الحامية ليبكنوس — سالف الذكر —
ولجأ إلى مدينة مارقيان قرب ڤارنا ، وحينئذ قرر ڤالنس مغادرة آسيا الصغرى ،
وعاد فى صيف عام ٣٧٨ إلى عاصمته حيث قوبل أسوأ استقبال بسبب تلك
الغلطة الشائنة . ولذلك عوّل على إصلاح ما أفسد ، بأن يقوم بنفسه على رأس
جيش لمهاجمة القوط . وزاد فى حماسته أن الناس أخذوا يعيرونه بما فعل ويقارنون
موقفه المتخاذل من موقف زميله فى الغرب وهو جراتيان بن أخيه ڤالنتيان الذى
أدرك خطورة الحال وعمل على متابعة نشاط أبيه ، فهزم الجرمان عند الراين ،
ثم هبط إلى الدانوب لينقذ البلقان من خطر القوط ووصل فى تقدمه إلى سرميوم
عاصمة الليريا فى صربيا[1] ، أما ڤالنس فقد أسرع ووصل إلى أدرنة وقاد الجيش
الذى يعسكر حول أسوار هذه المدينة ، وبينما هو فى مجلسه الحربى مع قواده
يناقش الخطط جاءه رتشومر (Richomer) أحد قواد جراتيان موفداً من قبل
سيده ليطلب إلى ڤالنس التريث حتى يصل جراتيان بجيشه ، غير أن المتملقين
من قصار النظر ، ألقوا فى روع ڤالنس ألا يتيح الفرصة لقسيمه الغربى فى أن
يشاركه مجد الانتصار على القوط ، والرأى عندهم أن يبادر هو بالدخول فى المعركة
والانتهاء منها قبل وصول جراتيان ، ولم يرق هذا الرأى فى نظر أعظم قواد
الامبراطورية وهو سباستيان (Sebastian) ، قائد المشاة فى الجيش الرومانى ،
كما فنده فيكتور (Victor) السارماتى[2] قائد الفرسان ، وحينئذ وصل قسيس
مسيحى — يشك فى أنه أوليفلاس — جاء فى وفد من القوط من قبل فريتجرن
وعرض على ڤالنس المفاوضة فى الصلح بشرط اعتراف الامبراطور بامتلاك القوط
لتراقيا . وهذه هى الرسالة الرسمية ، التى لابد وأن تكون قد صدرت بموافقة

---

(١) Deanesly, p. 26; Perroy, p. 11; Lot, p. 91

(٢) Lot, p. 61 أنظر ما سبق ص ٨ حاشية ٥

جمعية القوط . وهناك رسالة خاصة سرية ، أبلغها القس إلى الإمبراطور ومؤداها أن فريتجرن يخشى ألا يحافظ القوط على ولائهم للرومان إذا ما أجيبوا إلى طلبهم فى يسر ، ولذا فهو ينصح الإمبراطور بأن يتظاهر بالقوة حتى لا تبدو سرعة موافقته دليل ضعف أو خور ولـكن الرسل عادوا من غير إجابة .

وفى صباح ٩ أغسطس من عام ٣٧٨ م أودع ڤالنس أمواله داخل أدرنه. وخرج لا يلوى على شىء معتزماً مهاجمة القوط الذين يعسكرون على مقربة منه ، وكان جيشه مفسكـكا تبلغ عدته عشرة آلاف مقاتل ، وبعد مسيرة نحو ثمانية أميال تحت أشعة الشمس المحرقة لاحت له مطالع عربات القوط التى يتحصنون وراءها ، فرتب صفوف جيشه واستعرضه استعداداً للمعركة ؛ فوجىء القوط بهذه المباغتة فصاحوا صيحة تصم الآذان وهم ينشدون نشيدهم الحربى ، كعادتهم لبث الشجاعة قبيل المعارك ، أما فريق القوط الشرقيين فلم يكن قد وصل إلى أشقائه بعد ، إذ كان على بعد عدة أميال من ميدان المعركة ، بحثاً عن النهب والسلب ، فأرسل إليهم فريتجرون يستدعيهم على عجل ، ولـكى يعمل فريتجرن على تأجيل بدء المعركة حتى يصل أشقاؤه ، اصطنع الحيلة والدهاء ، وأرسل إلى الرومان يطلب إليهم الدخول فى مفاوضات على قاعدة تسليم القوط ؛ نجحت الخديعة ووافق الرومان على أن يبعث القوط من قبلهم وفداً من كبار القوط ، فأجاب فرتجرن بأنه يرغب فى الحضور بنفسه بشرط أن يرسل الرومان بعض كبار الضباط إلى المعسكر القوطى كرهينة ، حينئذ فرح الرومان ، وبدأوا يتناقشون فيمن يقع عليه الاختيار ، ولما وقع الاختيار على التربيون إكويتيوس (Equitius) رئيس حرس القصر وقريب الإمبراطور ، أبى وأصر على عدم القيام بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر ، وحجته فى ذلك أنه سبق أن وقع مرة أسيراً فى يد البرابرة واستطاع الهروب منهم لـكنه لا يدرى ما يفعل به لو عاد إليهم ثانياً ، وحسم النزاع حين تقدم رتشومر متطوعاً للقيام بهذه المهمة ، ورتشومر هذا

هو رسول جراتيان . وخلال هذه المناقشات الطويلة ؛ كان الجنود الرومان قد شعروا بالتعب والإنهاك نظراً لوقوفهم تحت أشعة الشمس مدة طويلة ، حتى اصابهم الجوع والظمأ ، على حين كان القوط فى معسكراتهم.

وبينما كان رتشومر فى طريقه إلى المعسكر القوطى أستدعى ثانياً ، إذ لم تعد هناك حاجة لذهابه ؛ لأن المعركة قد بدأت فعلا بسبب طيش الفرقة الأيبيرية [1] المنضمة للجيش الرومانى فهذه قد سئمت طول الإنتظار وقامت بهجوم على العدو من غير انتظار أمر الإمبراطور فأبيدت عن آخرها . كانت هذه الفرقة بقيادة باكوريوس الأيبيرى (Bacurius)[2] وفى ذلك الوقت وصلت فرق الفرسان من القوط الشرقيين ، حينئذ أمر فريتجرن بدق الطبول إيذاناً بالمعركة وحمل القوط حملة عنيفة ، شبهها بعض المعاصرين بالصاعقة ، فشتتوا شمل فرسان الرومان ، وأحاطوا بالرجالة وضيقوا عليهم بحيث لم يستطيعوا استخدام أسلحتهم لشدة التصاقهم ببعض ، فذبحوا بالآلاف وقتل الإمبراطور ، وظلت المذابح قائمة فى الجيش الرومانى ولم يوقفها إلا ظلام الليل ، وبقى القوط فى ميدان المعركة لعدة أيام بعد انتهاء الموقعة وهم ينهبون الموتى دون أن يجرؤ أحد من الرومان على التقدم للبحث عن جثة الإمبراطور[3] .

تلك هى كارثة أدرنة ، وتعد فى تاريخ الكوارث المدمرة التى حلت بالإمبراطورية الرومانية ، الثانية بعد دبروجه[4] ، وإن كانت فظاعة أدرنة

---

(١) الأيبريون (Iberians) سكان مقاطعة إيبريا الأسيوية بين البحر الأسود وبحر قزوين ويحتمل أن هذه المنطقة كانت تابعة للفرس ثم أخضعها الرومان (أومان : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور طه بدر) ص ١٩٠ حاشية ١) .

(٢) Gibbon, III; p. 404

(٣) Lot, pp. 60 - 61; Pirenne (H.), p 27; Bradly, pp. 71 - 74; Encycl. Brit., Hodgkin, I, pp 271, Lav. et Ramb., I, p. 61 Gibbon, III, pp. 401-404

(٤) أنظر ما سبق ص ٣٧ .

تفوقها ، فقد خسر الرومان ثلثي الجيش وصفوة القادة من مختلف الرتب أمثال سباستيان وتراجان وأكويتيوس وفالريان ، و٣٥ آخرين من رتبة الكولونيل أو التربيون (Tribuni)[١].

أردف القوط بعد هذه الوقعة بالتقدم نحو القسطنطينية وهاجموها بعنف وكادوا يقتحمونها لولا ظهور فرقة من الفرسان العرب ، كانت تعمل فى الجيش الرومانى ،قامت هذه الفرقة العربية بهجوم خاطف مضاد زلزل مواقع أقدامهم وألقى الرعب والفزع فى قلوبهم ؛ ومما أفزع القوط ذلك المنظر الذى هالهم ، إذ رأوا أحد فرسان العرب وهو ينقض على فريسته ممن من قتل القوط ، وأخذ يشرب دمه فأيقن القوط أن القتال مع مثل هؤلاء ضرب من التهور والحمق ، ومن ثم خارت قواهم فتراجعوا ورفعوا الحصار عن العاصمة وعادوا محملين بما نهبوا ، وأجاب الرومان على هذه الكارثة خلال السنتين اللتين تلتا الموقعة ، بإقامة مذبحة شنعاء فى أبناء القوط من الشبان الذين كان الرومان قد أخذوهم رهينة ، عند السماح للقوط بعبور الدانوب ؛ وكان هؤلاء الشبان يقيمون فى ولايات آسيا الصغرى ، أبدى الشبان القوط نوعاً من التبرم والتمرد على سادتهم من الرومان على أثر وقعة أدرنه ، فأصدر يوليوس (Julius) وزير الحرب الرومانى ، وهو الذى تولى أمر الإمبراطورية غداة مقتل فالنس وقبيل انتخاب خلف له ، أصدر أمره إلى حكام آسيا الصغرى بتفويض من السناتو ، بأن يستدرج هؤلاء الرهائن إلى المدن حيث يحاط بهم فى الأسواق العامة ويذبحون عن آخرهم . نفذت هذه الجريمة البشعة التى أساءت إلى سمعة الرومان مهما كان الدافع عليها[٢] ومهما يكن من أمر الانتقام الرومانى ، فإن كارثة أدرنة بلغت من الفظاعة ما حمل المؤرخ اللاتينى المتأخر (Ammianus Marcellinus) على أن يمسك

---

(١) Hodgkin, I, pp. 274 - 75, Bradley., p. 75, Lot, pp. 61 - 62

(٢) Gibbon, III, pp. 411 - 12, Bradley, pp. 76 - 9

عن ذكر تفاصيلها ؛ فجاءت أنباؤه عنها غامضة مبهمة وهى وقفة حسرة وألم يشبه تلك التى وقفها المؤرخ الإسلامى ابن الأثير حين أزال المغول دولة خوارزم شاه عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) .

أما المؤرخ الانجليزى جيبون (Gibbon) فقد كان أحد الأوائل الذين لحوا فى وقعة أدرنة عام ٣٧٨م ؛ نقطة تحول هامة فى التاريخ ، على حين كتب المؤرخ (الفرنسى) فيكتور ديرى (V. Duiry) فى تاريخه عن الرومان عند حديثه عن هذه الواقعة : « لم يبق شىء من روما ، لقد اختفت عقائدها ونظمها المدنية والحزبية ، وكذا فنونها وآدابها ، وبدأ الغزو والقهر . وصل فريتجرن حتى أسوار القسطنطينية ، وبعد سنوات قلائل استولى ألاريك على روما »[1]

كان لهذه المأساة أثرها البالغ فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية وفى مدنيتها بوجه خاص وفى تاريخ البرابرة ومستقبلهم بوجه عام ، ولو كان القوط يجيدون فن استغلال الفتوح والنصر ، لاستطاعوا بهذه الواقعة أن يطووا صفحة الإمبراطور الشرقية قبل أختها الغربية ، غير أنهم فشلوا فى الإفادة من هذا النصر الساحق .

هذا وتعتبر كارثة أدرنة نكبة حربية ؛ إذ لم يستطع الرومان بعدها أن يحشدوا جيشاً قوياً يمكن الاعتماد عليه فى قهر البرابرة ، ثم هى من جانب آخر بداية جديدة لفترة الصراع والحروب التى تلاحقت بعد ذلك وملأت تاريخ العصور العصور الوسطى ، وتميزت بالعنف ، كما أضحت فرق الفرسان الثقيلة العامل الحاسم فى تلك الحروب ، وتلك حقيقة واقعة ظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادى[2] .

* * *

(١) Lot, p. 61

(٢) Moss, p. 45

بمقتل فالنس فى أدرنه ، أضحى جراتيان حاكم الغرب ، الإمبراطور الوحيد على الرومان ، غير أن الأمور قد جرت منذ نحو قرن على أن الإمبراطورية لا يمكن إدارتها بواسطة إمبراطور واحد ، فاضطر لاختيار قسيم له فى السلطة ، وأجبر على أن يكون هذا القسيم هو القائد الرومانى والأسبانى المولد تيودسيوس ، ولعل تردد جراتيان فى اختيار تيوسيوس ، قسيما له ، يرجع إلى أن أبا تيودسيوس وسميه ، كان قد اشتهر أمره ونبه ذكره كحاكم فى بريطانيا وأفريقية ، فرأى جراتيان فيه منافساً خطيراً فى مطلع حكمه ومن ثم تخلص منه بأن أجبره على الانتحار ، وبمجرد وقوع كارثة أدرنه قام حزب ينادى بتولية تيودسيوس الإبن ، فتم اختياره وأعلن أغسطساً فى سيرميوم فى ١٩ يناير ٣٧٩ م[1] .

ومن حسن طالع الإمبراطورية الرومانية أن كان تيودسيوس هو خليفة فالنس ، فهو يختلف فى مشاعره عن يوليوس وزير الحرب الذى دبر الأمور قبل انتخاب تيودسيوس .

رأى تيودسيوس أن يعيد شيئاً من سمعة الإمبراطورية الحربية قبل أن يدخل فى مفاوضة القوط ، حتى يلقى عليهم درساً يجعلهم يعترفون بأن الإمبراطورية لم تمت ، وأنه لم يزل يخش بأسها ، فأسرع بإعادة تنظيم جيشه وإعادة الروح المعنوية له ، وذلك فى الوقت الذى كانت همة القوط فيه قد ثبطت ، وتفككت وحدتهم بسبب النزاع الذى دب بين صفوفهم ، ومغادرة بعض القوط وانضمام هذا البعض إلى الرومان ، إذ كلما شعر أحد من من كبار القوط ، بإهانة تلحقه من قبل فريتجرن ، فارقه وانضم إلى الرومان ، وتيودسيوس خلال ذلك يرحب بهم ويغدق عليهم الجوائز والمناصب . من هؤلاء القائد القوطى المظفر موداهارى (Modahari) الذى عين قائداً فى الجيش الرومانى وإليه يرجع الفضل فى إحراز

---

(١) Lot, p 62

أعظم انتصار ظفرت به الإمبراطورية فى تاريخ وقائعها الحربية[١] .

مات فريتجرن خلال عام ٣٧٩ م ، وبعد ذلك ظهر أثانريك مره أخرى وعبر الدانوب ، ولسنا ندرى كيف استجاز لنفسه أن يحنث فى يمينه الذى أقسم بعدم عبور الدانوب[٢] ؛ لكن يرجح أن اعتراف أغلب القوط بزعامته هو الذى دفعه إلى ذلك ، ولا سيما بعد وفاة فريتجرن .

وأول عمل قام به هو الاتفاق مع الرومان ، فدخل فى مفاوضة مع الإمبراطور تيودسيوس الذى دعاه إلى القسطنطينية ، فتوجه إلى العاصمة حيث استقبل بحفاوة ، وهناك أخذت مظاهر العاصمة ومباهجها بلبه ، حتى قال إنه كثيراً ماسمع بعظمة القسطنطينية لكنه لم يكن باستطاعته أن يتصور أو يصدق إلا بعد أن شهدها بنفسه وأن الإمبراطور بدا فى نظره إلهاً يمشى على الأرض ، ومن يجرؤ على الخروج عليه فهو مذنب جزاؤه الإعدام . على أن إقامة أثانريك لم تطل بالعاصمة فقد مات فى يناير عام ٣٨١ م ، واحتفل بدفنه[٣] .

وانتهت المفاوضة بعقد معاهدة فى أكتوبر عام ٣٨٢ م بمقتضاها أقرت الإمبراطورية القوط على الإقامة فى منطقتى مؤيسيا وتراقيا بوصفهم معاهدين (Foedorati) بالإضافة إلى منطقة بانونيا[٤] التى تنازلت عنها الإمبراطورية لهم قبل ذلك بعامين[٥] .

---

(١) الاشارة هنا إلى الانتصارات التى ظفر بها الامبراطور تيودسيوس عام ٣٧٩م على شراذم القوط الغربيين الذين تفرقوا يخربون وينهبون فى مدن تراقيا عقب واقعة أدرنة ، وموداهارى هذا سليل ملوك القوط ، والغريب أنه على المذهب الأرثوذكسى ، خدم الامبراطورية الرومانية وأخلص لها (Bradly, pp. 79 - 80, Hodgkin, 1. pp. 301 - 303) .

(٢) أنظر ما سبق ص ٥٠ .

(٣) Gibbon, III, p.423 Lot, p.64; Bradley, p.80; Hodgkin, 1, pp.308-309

(٤) تقع هذه المنطقه شرق ڤينا وشمالى بلغراد الحالية .

(٥) Lot, p. 62

وبعد وفاة أثاريك بخمس سنوات عادت فرقة القوط الشرقيين التى كانت بقيادة سافراكس وألاثيوس ، ولكنها الآن بقيادة زعيم جديد هو أوداثيوس (Audathaeus) ،

عادت هذه الفرقة إلى منطقة داكيا بعد أن نهبت شمالى ألمانيا وغربها ، وحاولت عبور الدانوب للدخول فى تراقيا ، غير أن الرومان هجموا عليهم أثناء عبورهم وشتتوهم قتلا وتغريقاً ، ومن نجح فى الإفلات والعبور إلى الشاطىء الآخر سلم للرومان ، وبذلك صارت سلطة الإمبراطور تيودسيوس مبسوطة على جميع العناصر القوطية المقيمة داخل الإمبراطورية[١] .

أدرك تيودسيوس أن سياسة اللين والموادعة أجدى على الإمبراطورية من سياسة العنف والقوة ، فقد وضح تماماً أن القوط الذين دخلوا الإمبراطورية بأعدادهم الكثيفة لم يتراجعوا قط ، لذا لم ير بأساً من إعطاء القوط الشرقيين منطقة فريجيا بآسيا الصغرى ليقيموا فيها ، كما أقر أشقاءهم الغربيين على الإقامة فى البلاد التى استقروا فيها ؛ وأمر بإمدادهم بالقمح والماشية كما سمح لهم بحكم أنفسهم وفق قوانينهم الخاصة وأن يكون لهم جيش قائم بذاته ومنفصل عن الجيش الرومانى ، له قيادته الوطنية تحت إسم « حلفاء » (Socii) وفضلا عن ذلك فقد أغدق عليهم الرواتب الضخمة وعين بعض نبلائهم فى المناصب العليا[٢] . ومثل هذا الوضع الذى آل إليه أمر القوط الغربيين وبعض الشرقيين ، يختلف عن غيرهم من القبائل الجرمانية التى تغلغلت فى أراضى الإمبراطورية الرومانية مثل عنصرى الشامافيين ، والهاتوريين (Chamaves & Hauttuariens) وهذان العنصران من فروع الفرنجة ، استقرت هذه القبائل ، وآثرت الاندماج

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 320 - 323

(٢) Hodgkin, 1, pp. 311 - 313, Lot, p. 81

فى المجتمع الرومانى حيث تفرغت لزراعة الأرض التى حصلت عليها ، وخضعت للقوانين الرومانية كما استعملت اللغة اللاتينية الدارجة[١] .

ظل القوط على عهدهم وولائهم للإمبراطورية خلال عهد تيودسيوس ، رغم وجود بعض التذمر بينهم ، لكن المحقق أنه طالما كان ثيودسيوس على قيد الحياة فقد بقى القوط على طاعته أو ما يقرب من الطاعة ، وساعدوه فى حروبه التى انتصر فيها على منافسيه ، ومن أبرز قواده من القوط الغربيين جايناس (Gaïnas) وألاريك[٢] ، وعرف عن ثيودسيوس أنه كان شديد الحرص على موادعة القوط ، حتى أنه انتقم لمقتل بوثريك (Bothèric) الضابط القوطى بأن أقام مذبحة فى أهل تسالونيكا مما حمل القديس أمبروز (Ambrose) فى ميلان على أن يحرم الإمبراطور من الكنيسة أزاء هذا الفعلة الشنعاء ولم يظفر الإمبراطور بالعفو إلا بعد اعتذار[٣] .

وربما ظل القوط على ولائهم للإمبراطورية لو كان خلفاء ثيودسيوس بمثل سعة أفقه ولو لم يكن وزراؤهم ومستشاروهم قصيرى النظر تغلب عليهم الأنانية والحماقة .

(١) Lot, p. 63

(٢) Ibid, pp. 64 - 5

(٣) Courcelle, p. 13;Moss, p 49, Hodgkin, 1, pp. 528 - 30

الفصل الثانى

قيام مملكة القــــوط الغربيين

ظهور ألاريك البالطى — مغامراته — بين ألاريك وستيليكو الوندالى — ألاريك وتخريب روما ٤١٠ م — صدى هذا الحادث — وفاة ألاريك ومسرحية دفنه — آتولف والامبراطور هونريوس وقيام دولة القوط الغربيين فى غالة وأسبانيا ٤١٢ م — ناربون العاصمة ٤١٣ م — زواج آتولف من بلاسيديا ٤١٤ م — أسبانيا قبل دخول القوط الغربيين — القوط الغربيون فى أسبانيا واتخاذ برشلونة عاصمة ٤١٤م — خلفاء آتولف وعلاقتهم بالامبراطورية الرومانية — واليا وأكويتانيا ٤١٩ م — خطر الهون وأثره فى التقارب بين القوط الغربيين — عودة العلاقة القوطية الرومانية إلى التوتر .

توفى الإمبراطور ثيودسيوس فى يناير عام ٣٩٥ م ، بعد أن انفرد بالحكم على جميع أجزاء الإمبراطورية الرومانية فى الشرق والغرب ، وخلفه ولداه : أركاديوس ، وهو الأكبر الذى تولى على القسم الشرقى من الإمبراطورية ، أما أخوه الأصغر هونريوس ، فقد ولى القسم الغربى [(١)] ، والواقع أن خليفتى ثيودسيوس كانا كالدمى فى أيدى وزرائهما والمقربين إليهما [(٢)] .

على أن أخطر حادث وقع عقب وفاة الإمبراطور ثيودسيوس ، وكان ذا مغزى بعيد فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية وفى تاريخ القوط الغربيين ومستقبلهم ،

(١) توفى أركاديوس عام ٤٠٨م وهونريوس عام ٤٢٣م .

(٢) Zeller, p. 61 Bradley, p. 84

ذلك الحادث هو انتخاب القوط الغربيين ألاريك الجسور (Alh-Reiks) ملكا عليهم [١] . فكأن الأحوال قد تهيأت تماماً لمستقبل القوط الذى تحدد ، حين ولى الأمر ضعيفان متهالكان مغلوبان على أمرهما ، وقام دونهما قوى جسور طامع .

انتخب القوط الغربيون الأريك ملكا عليهم ، والملاحظ أن لقب ملك فى ذلك الوقت ، يعتبر فى المفهوم العام وفى نظر المعاصرين يومئذ ، دون لقب القائد العام المعروف عند الرومان (Magister militum) [٢] .

كان عمر ألاريك فى ذلك الوقت يربو قليلا على العشرين ، وهو من سلالة أسرة البالطيين (Balthings) أو (Balthi) أى « الشجعان » ، وهذه صفة اشتهرت بها هذه الأسرة حتى صارت علماً عليها نظراً لما تميزت به من أعمال البطولة فى الحرب ، ولم تزل هذه الصفة باقية حتى اليوم علماً على البحر البلطى ، نسبة إلى هذه الأسرة الشهيرة [٣] . وجاء اختيار ألاريك ملكا على القوط الغربيين ، ابتداءاً لحكم هذه الأسرة .

لم يقنع ألاريك بوصفه وقومه معاهدين فى الدولة الرومانية حتى ولو كان ملكا ، رأى أن قومه قد أدوا خدمات جليلة للرومان ، وأن الإمبراطور ثيودسيوس لم ينل ما نال من نصر وتوفيق إلا بفضل ما أبداه الاريك وقومه من شجاعة وإخلاص ، فضلا عما أبداه جايناس (GaYnas) القوطى من مقدرة

---

(١) Moss, p. 49

(٢) Lot, pp. 65 - 6

(٣) تعتبر هذه الأسرة فى المرتبة الثانية بعد أسرة الآماليين التى انحدر منها ملوك القوط الشرقيين ، وتعنى كلمة الآماليين : « العظماء » هذا مع ملاحظة أن كلا الفرعين لم يستمرا فى الحكم باضطرار . أما ألاريك فيحتمل أنه ولد فى الفترة ما بين ٣٦٠ و ٣٧٠ م فى جزيرة بيوكى (Peuce) فى دلتا الدانوب (Donnealy, p 26, Lav., et Ramb, 1, p. 49
Hodgkin, 1, pp. 950 - 15

وكفاءة ، إذ كان ألاريك وصنوه جايناس أكفأ قواد القوط يومئذ ، وهما يعملان فى طموح لتكوين مستقبل لهما ولشعبهما ، وذلك عن طريق الخدمة فى الإمبراطورية الرومانية ، والواقع إن أقصى ما كان يطمحان إليه بالنسبة لشخصيهما هو الوصول إلى مرتبة القيادة العامة أو العليا للجيوش الإمبراطورية وما معها من جيوش حليفة وذلك على غرار ما ظفر به أربوجاست (Arbogast) الفرنجى وهو القائد العام لجيوش الإمبراطور ثيودسيوس ، وستيليكو الوندالى القائد العام لجيوش هونريوس فى الغرب . هذه هى الأسباب الحقيقية التى حملت ألاريك على أن يخرج على شروط المعاهدين ويحارب الإمبراطورية ، وقد جاءت أحداث الخمسة عشر عاماً التالية مؤيدة لهذه الحقيقة [1] ؛ احتج ألاريك بأن ثيودسيوس كان قد أعطاه وعوداً صريحة بالمكافأة بعد الانتصار على منافسه أيوجين أستاذ البيان وإمبراطور الغرب بعد مقتل فالنتيان الثانى [2] ، لكنه لم يظفر بشىء سواء أكان ذلك من جانب ستيليكو الذى يحكم فى الغرب باسم هونريوس أو من جانب رفينوس (Rufinus) كبير وزراء أركاديوس بالشرق . ولعل السبب المباشر الذى دفع بالقوط الغربيين إلى الثورة والخروج هو أن شعوراً معادياً للقوط قد بدأ يظهر فى بلاط أركاديوس ، حين اقترح عليه بعض مستشاريه ، طرد القوط إلى ما وراء الدانوب ، ولما لم يكن باستطاعة الامبراطورية المغامرة فى مثل هذا المشروع فقد جاء أول عمل ضد القوط باسم الامبراطور أركاديوس ، إنقاصاً لرواتبهم وقطعاً للتقادم والصلات التى كانت تمنح لهم من الامبراطورية الشرقية [3] .

لهذه الأسباب ، غادر ألاريك مؤيسيا على رأس جيشه وضرب مقدونيا

---

(١) Moss, p. 45

(٢) Hodgkin, 1, pp. 555-578

(٣) Bradley, pp. 84 - 85; Deauesly, p. 27

وتراقيا ، وهاجم القسطنطينية ، ولم يكن هناك جيش رومانى يستطيع مقاومة ألاريك الجسور ، إذ كانت جيوش ثيودسيوس التى سيرها لحرب أربوجاست لم تزل بإيطاليا ومن ثم غدت البلقان تحت رحمة القوط ، وهنا لم يجد رفينوس بدأ من الخروج من القسطنطينية وفاوض ألاريك ودفع له مبلغاً من المال نظير تراجعه عن العاصمة وذلك فى مارس عام ٣٩٥م ؛ أى بعد وفاة ثيودسيوس بنحو شهرين فقط . والواقع إن رفينوس آثر رشوة القوط لإنقاذ العاصمة بسبب تحرج الأمور فى ذلك الوقت ، إذ كان الهون فى الشرق قد عبروا القوقاز وخربوا أرمينية وقبادوقيا وسوريا ، ولم يقف زحفهم رغم مقاومة أنطاكيا العنيفة[1] ، على أن مطامع الاريك لم تقف عند هذا الحد ، لأنه إنما يعمل لهدف أكثر من مجرد الحصول على المال لنفسه ولقومه ، لأنه إذا كان قومه يرضيهم الحصول على المنح المالية والهبات ، فإنه لم يصل إلى ما يطمح فيه وهو الحصول على منصب رفيع فى حكومة الإمبراطورية ، فتابع غزواته حتى استولى على تساليا وغيرها[2] ، وقرب لاريسا وجد نفسه وجهاً لوجه أمام ستيليكو الوندالى[3] ولى الأمر الفعلى فى الغرب ، جاء ستيليكو على رأس بقايا جيش تيودسيوس ، والمعروف أن

---

(١) Bury, 1, pp. 110-111; Hodgkin, 1, pp. 654-5; Lot, pp. 66-7

(٢) فشر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) س ٢٣ ؛ Hodgkin, 1, p 654 Lav. et Ramb. 1, pp. 62 - 3

(٣) ولد ستيليكو (Stilicko) فى الفترة ما بين ٣٥٠ ، ٣٦٠م وهو ابن زعيم وندالى دخل فى خدمة الامبراطور فالنس وكان يقود فرق المعاهدين فى الجيش الرومانى . وبعد أن تزوج ستيليكو من سيرينا حوالى عام ٣٨٥م عين فى منصب عسكرى رفيع وذلك قبل وفاة تيودسيوس . برز ستيليكو فى كثير من المواقع ضد القوط الغربيين ، كما تولى الوصاية على هونريوس بعد وفاة تيودسيوس مع النيابة فى حكم القسم الغربى من الامبراطورية ، ويحتمل أن تيودسيوس وهو على فراش الموت ، كان قد أوصى ستيليكو برعاية مصالح القسم الشرقى كذلك ومن ثم أعطاه بعض الصلاحية والحق فى الوصاية على اركاديوس ، وهذا ما أثار حقد وزراء أركاديوس ولا سيما رفينوس (Hodgkin, 1, pp. 645 - 50)

ستيليكو هذا وندالى من جهة أبيه غير أنه اصطبغ بالحضارة الرومانية واشتغل فى خدمة الإمبراطورية وتزوج من سيرينا (Serena) المثقفة ابنة أخى تيودسيوس ، وأنجب من هذا الزواج مارى التى خطبت للامبراطور هونريوس [1] .

تحرك ستيليكو لمدافعة الاريك تحت تأثير عاملين قويين أولهما إخضاع بربرى ثائر وثانيهما الحيلولة بين الاريك وبين الاستيلاء على ولاية الليريا الشرقية ، وهى ولاية هامة وكبيرة وتضم من البلاد مقدونيا وتساليا وأتيكا والبلوبونيز ، وبعد أن كانت هذه الولاية تابعة للقسم الغربى من الإمبراطورية أضافها تيودسيوس قبيل وفاته إلى القسم الشرقى منهما حين قسم الإمبراطورية بين ولديه ، فأراد ستيليكو بدافع المطامع الشخصية أن يقوم بهذه الحركة باسم الإمبراطور هونريوس ، ليعيد هذه الولاية إلى الوضع القديم ، وهذا يفسر تراخى رفينوس أمام الاريك سابقاً ووقوفه الأحمق عن مساعدة ستيليكو إذ حمله حقده على منافسه فى الغرب على تحويل مطامع الاريك نحو الغرب مفضلا أن تقع ولاية الليريا فى يد الاريك عن أن تعود إلى يد منافسه الغربى ، ولكن ستيليكو عجز عن تحقيق ما حاوله وتقهقر أمام الاريك عائداً إلى إيطاليا [2] .

وهنا لا بد من ملاحظة أن ستيليكو لم يكن جاداً فى محاربة الاريك ، إذ يبدو أن الكراهية التى يكنها له منافسوه فى بلاط هونريوس ، فضلا عن اتهامه دائما بالخيانة ، ولا سيما خلال الفترة التى ذاع فيها صيته فيما بين ٣٩٥ ومقتله عام ٤٠٨ م ، يبدو أن هذا كله كان من أسباب تراجعه دون نتيجة حاسمة ، ويرجح أن أركاديوس تحت تأثير رفينوس ، قد أمر ستيليكو بالعودة إلى حدود القسم الغربى من الإمبراطورية ، لأن رفينوس ألقى فى روع سيده

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 770 - 73; Lot, p. 66

(٢) Lot, p. 66; Moss, p. 45

أن ستيليكو يعمل لصالح القسم الغربى وأنه خائن[1]، فأتاح بذلك الفرصة لألاريك لأن يتابع هجومه على اليونان بعد عودة ستيليكو فاستولى على جميع بلاد اليونان حيث انهارت أمامه جميع الحاميات الرومانية عام ٣٩٦ م ، ونجت أثينا من الدمار نظير فدية ضخمة ، بل أنها استقبلته استقبالا حافلا يليق بالظافرين ، ولا سيما وأنه مسيحى هدم بعض المعابد الوثنية وأنهى الطقوس القديمة ، وتوغل ألاريك فى بلاد البلوبونيز ، ولعل القوط رغبوا فى هذه المنطقة الجنوبية لتكون ملجأ لهم فى المستقبل إذا اضطروا لذلك ، وعجزت حكومة القسطنطينية عن إيقافه ، فاضطرت إلى الاستنجاد بالإمبراطور هونريوس وفى هذا الاستنجاد ، كان أركاديوس قد عاد إلى الصواب إذ استمع لمستشاريه الجدد وكانوا أكثر إدراكا لمصالح القسم الشرقى من رفينوس الحاقد الطامع الذى قُتل على يد الجيش الثائر[2]، فأوضحوا له أهمية ستيليكو فى حماية القسم الشرقى[3]. وحينئذ عاد ستيليكو بجيشه والتقى بالقوط الغربيين وطردهم من أركاديا فتقهقر ألاريك نحو الشمال ، ولكن ما كاد ستليكو يعلم بأن أركاديوس عقد معاهدة مع ألاريك وهى إحدى المعاهدات (Foedera) التى ملأت تاريخ الامبراطورية الشرقية نزلت بمقتضاها على رغباته ، حتى عاد دون أن تؤدى حملته إلى أية نتيجة ، وبعد ذلك لم يفكر ستيليكو فى التدخل الحربى لصالح القسم الشرقى من الامبراطورية[4] . وبمقتضى هذه المعاهدة عينت حكومة بيزنطة ألاريك قائداً عسكريا عاما لمنطقة الليريا (Magister militum Per Illyricum) وتشمل هذه المنطقة جميع الأجزاء الأوروبية من الامبراطورية

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 659 - 59

(٢) Boury 1, p. 115

(٣) كان جايناس القوطى وقائد عام جيوش القسم الشرقى هو الذى دبر مقتل رفينوس لطامعه وسوء تدبيره فضلا عن أن جايناس كان صديقا لاستيليكو .

(٤) Hodgkin, 1, pp. 698 - 61; Bradley, p. 86; Lot, p. 67

البيزنطية[١] ،ظل ألاريك في منصبه الجديد نحو أربع سنوات هادئا حيث استغل هذا المنصب فى تقوية جيشه بأن أمر جميع المصانع الامبراطورية فى هذه الولاية بصنع أسلحة لجيشه القوطى ولم يستطع أركاديوس أن يحول دون ذلك ، كما أنه قضى وقته فى تدريب جيشه وإعداده لمغامرات أوسع متى لاحت الفرصة إذ كان يتطلع إلى ترقية جديدة أخرى من جانب بيزنطة ولا سيما وأنه رأى صنوه ومنافسه القوطى جايناس يعين فى منصب أسمى منه وهو منصب القيادة العامة للجيوش الرومانية فى الشرق بلقب (Magistor militum in Praesenti)[٢].

ورأى ألاريك أن مستقبله فى الغرب ، ويجب عليه أن ينفض يده من الشرق نهائيا ، بعد أن رأى حركة المقاومة للجرمان عامة تقوى يوما بعد يوم ، كما أن البلقان لم تعد تصلح مستقراً دائما للقوط لما أصابها من تخريب وتدمير

---

(١) Zeller, p. 18, Halphen, p. 15, Gibbon, IV, p. 10

(٢) جاءت توليه جايناس لهذا المنصب مثيرة للحقد والضغينة فى نفوس الرومان فنشط الحزب المعارض للجرمان عامة ، وأصدر سينسيوس (Synesius) فى برقة كتابا عنوانه (Peri - Basileias) يدعو فيه ضد الجرمان ، وهو نوع من التشهير والدعاية ضد الجرمان كما اجتاحت القسطنطينية فى ذلك الوقت حركة معادية للجرمان ، أدت إلى اختفاء جايناس نهائيا ، إذ حدث أن كلفته حكومة بيزنطية ، باعتباره القائد العام لجيش الشرق ، باخماد ثورة القوط الشرقيين المقيمين فى فريجيا بآسيا الصغرى ، منذ عهد ثيودسيوس ، فلم يكد يصل جايناس إليهم حتى انضم الى صفوفهم وزحف بهم نحو العاصمة حيث أجبر أركاديوس على تسليمه بعض الشخصيات البارزة فى الحكومة الامبراطورية وحمله كذلك على أن يثبته فى منصبه كقائد عام ، ومن ثم دخل جايناس بجموعه العاصمة عام ٣٩٩م ، فأثار هذا الوضع حركة المعارضة ضد البربر ، حتى أنه عند ما غادر جايناس العاصمة خلف فيها حامية من نحو ٧٠٠ قوطى فقام هذا الحزب المعادى للبرابرة وذبح الحامية عن آخرها فأجاب جايناس على هذه المذبحة بإقامة مذبحة فى تراقيا ، وتمكن فروڤيتا (Frovitta) منافس قوطى آخر كان يخدم فى جيش اركاديوس من الإستيلاء على أسطول جايناس وتحطيمه فى بوغاز الدردنيل ، وفر جايناس الى شمالى الدانوب حيث وقع أسيرا فى يد ملك الهون أولدين (Uldin) فذبحه وأرسل رأسه الى أركاديوس عام ٤٠٠م ، وبهذا اختفى جايناس عن مسرح الحوادث .

(Moss, p. 60; Lot, pp. 66 - 68 أنظر ما سبق ص ٦١)

فليس فيها مطمع مادى يحمله على التمسك بها ، بل أنها لم تعد تصلح لتكفية قومه ، ومن ثم انتهز فرصة انشغال ستيليكو فى الغال ، فخرج فى خريف عام ٤٠٠م وأخلى البلاد التى احتلها تدريجيا . فجلا عن مؤيسيا وتساليا والبلوبونيز - وإبيروس، ودخل إيطالياعام ٤٠١م ، حيث ظل بحوسنة ونصف يخرب وينهب فى المدن الإيطالية الشمالية ، وكان بلاط الامبراطور هونريوس فى ذلك الوقت فى مدينة ميلان ، فأعد العدة للفرار إلى الغال ، وأصلحت أسوار روما وحصونها استعداداً لمدافعة هجوم ألاريك المتوقع ، غير أن كفة الرومان رجحت فجأة حين عاد ستيليكو من بلاد الغال بعد أن أنهى حروبه فيها بمهادنة أعدائه ، واستدعى أمداداً من بريطانيا ، وفاجأ ألاريك فى عام ٤٠٢ م وهزمه فى وقعتى بولانتزو (Pollanzo) وفيرونا شمالى إيطاليا فكان لهذا النصر أثره فى مبالغة المتملقين فى مدح ستيليكو والإشادة بمقدرته وكفاءته النادرة ، حتى قارنوه بماريوس[١] ، وقيل فى مدحه الشعر الكثير[٢] .

تقهقر ألاريك بعد أن كاد يقع فى الأسر لولا سرعة جواده ، وأحسن ستيليكو معاملة زوجة ألاريك وأسرته التى وقعت فى الأسر ، ودخل فى مفاوضات مع ألاريك انتهت بجلائه عن إيطاليا وإن ظل على أبوابها يتحين الفرصة للغزو والبطش[٣] . والواقع إن ستيليكو لم يرد أن يقضى على ألاريك قضاء نهائيا لغرض فى نفسه وهو أن يدخره ليوم يضطر فيه لاتخاذه أداة عند اللزوم فى نضاله ونزاعه مع وزراء أركاديوس ، ولذا لم ير مانعا من أن يعطى ألاريك رشوة كبيرة ليرحل عن إيطاليا خلال مفاوضاته إياه رغم انتصاره عليه ، وبذلك استطاع ستيليكو وسيده هونريوس أن يدخلا روما دخول الظافرين

---

(١) أنظر ما سبق ص ٢٤ .

(٢) Gibbon, IV, pp. 15 - 20; Hodgkin, 2, p. 709; Pirenne (H), p. 27

(٣) Lot, pp. 69 - 70

عام ٤٠٤ م وأن يحتفلا بالنصر ، وأقيمت أقواس النصر وعليها لافتات كتب عليها « لقد خضع الشعب القوطي وان تقوم له بعد ذلك قائمة » ، ومن سخرية القادير ألا يمر أكثر من ست سنوات على هذا الاحتفال حتى دخل الاريك روما وقرأ هذه العبارات ، لم يقم هونريوس فى روما بعد هذا الاحتفال سوى بضعة أشهر حتى نقل عاصمته إلى رافنا التي أضحت منذ ذلك الحين عاصمة للقسم الغربي من الامبراطورية وعاصمة ملوك البرابرة (أدواكر وثيودريك) وأخيراً مقراً للأرخون البيزنطى بعد استرجاع جستنيان لإيطاليا[1].

ورغم أن إيطاليا نجت من غزوات ألاريك بفضل سياسة ستيليكو وموقفه فإنها لم تتخلص نهائيا منه ، ومضت فترة تقدر بأربع سنوات كانت إيطاليا بمنأى عن أخطار الاريك الذى كان يعسكر خلال تلك الفترة فى منطقة ابيروس (Epirus) وعلى اتصال باستيليكو ويقال إنه كان يرتب معه تدابير الاتفاق على الاشتراك معا فى مهاجمة الامبراطورية الشرقية[2].

غير أن إيطاليا لم تلبث أن تعرضت إلى غزوة جديدة من جانب القوط الشرقيين وأحلافهم من الوندال والسويف والبرجنديين والآلان وذلك عام ٤٠٥ / ٤٠٦ م بقيادة رداجيس (Radagaisus) الوثني الذى يحتمل أن يكون من القوط الشرقيين المقيمين حول البحر الأسود حيث ظهر وتزعم فريقاً من قومه وثار ضد الهون ثم خرج يلتمس الغزو والنهب مع هؤلاء الأحلاف . ويعتبر راداجيس أكثر وحشية من جميع أعداء روما فى الماضى وفى ذلك الوقت الراهن ، فقد أحدث هذا العدو البربرى بإيطاليا من التخريب والتدمير والنهب والقتل أكثر مما أحدثه الاريك[3]. استطاع ستيليكو أن يقضى على جموعهم قرب فلورنسه مستعينا بجنود مرتزقة من الهون والآلان وأعدم راداجيس وباع

(١) Bradley, pp. 88 - 9; Lot, pp. 69 - 70

(٢) Hodgkin, 1, p. 731

(٣) Dilll, p. 41, Halphen, p.p 16 - 17

من أسر من أحلافه رقيقاً بثمن بخس كما انضم إليه زعيم قوطى غربى ينافس ألاريك هو ساروس (Sarus)(١) .

كان لدى ستيليكو فكرة الإفادة من ألاريك لإذلال القسم الشرقى من الإمبراطورية ونجح فعلا فى إغراء ألاريك على الدخول فى خدمة القسم الغربى وعلى أن يتعهد بضم منطقة الليريا التى يحكمها ألاريك من قبل بيزنطة إلى القسم الغربى ، ولكن قبل إتمام التنفيذ لهذا الاتفاق عدل ستيليكو عن هذا المشروع لوقت أكثر ملاءمة نظراً لما سمعه من انتصارات الثائر قنسطنطين فى الغال .

أما ألاريك فقد تمسك بالمكافأة التى وعد بها نظير خدماته وأرسل من مقره فى نوريكورم (Norricum) يطلب ٤٠٠٠ جنيه ذهبى أو أربعة آلاف رطل من الفضة نظير الخدمات التى أداها للأمبراطور هونريوس ، فاضطر ستيليكو إلى عرض هذه المطالب على مجلس السناتو ، مزكيا ألاريك كحليف قوى نافع ، ومن الخطورة رفض ما يطلب كما دعم حججه بأن الملك القوطى قد وعد بالقضاء على قنسطنطين الثائر والذى أعلن نفسه إمبراطوراً فى الغال ، وأن القوات الإمبراطورية لا تكفى لهذا الغرض . استاء الشيوخ عند ما طلب ستيليكو منهم الموافقة على دفع هذا المبلغ ، واعتبروه « جزية » لملك بربرى ، وحمل الحماس بعضهم فقال إنه يفضل أن تحرق منازلهم فوق رؤوسهم على أن يوافق على مثل هذا التسليم الشائن ، وانتهى الأمر بالموافقة الإجماعية حين أخذت الأصوات ما عدا عضو واحد هو لامبرديوس (Lampridius) الذى خرج من قاعة المجلس وهو يقول لزملائه : إن الذى وافقتم عليه ليس معاهدة للسلم بل صك بالعبودية

---

(١) Bradley, p. 89; Lot, pp. 70 - 71; Pirenne (H.), pp. 28 - 9; Hodgkin, pp.731 -33 Gibbon, IV, pp 32-35

أنظر ما يلى ص ٧٩

(Non est ista pax sed pactio servitutis)[1] ، ورغم أن هذا الأتفاق لم ينفذ ، فقد أخذ غالبية الأعضاء يتشككون فى مدى إخلاص ستيليكو بسبب أصله الجرمانى ، الذى لم يغتفروه له ، كما ازدادت شكوكهم حين عزم الإمبراطور هونريوس على التوجه إلى القسطنطينية على أثر وفاة أخيه أركاديوس ليساعد ثيودسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) على ارتقاء عرش أبيه ، فعطل ستيليكو هذا المشروع واقترح أن يتوجه هو إلى الشرق ، ففسرت مشورته بأنه ما اقترح الذهاب بنفسه إلا لتنفيذ مشروع أثيم غادر هو تنصيب يوكريوس (Eucherius) ابن ستيليكو على عرش بيزنطة ؛ وانتشر السخط بين صفوف الجيش الرومانى حتى أنه رفض إطاعة أوامره بالتوجه إلى الغال لقمع الثورة القائمة فيها ، وبدلا من تنفيذ أوامر القائد العام ، قبض الجيش على عدد كبير من كبار الموظفين ممن رأى فيهم مشايعة لآراء ستيليكو ، منهم رئيس الدواوين ووزيرا المالية[2] ورئيس الحرس الإمبراطورى وغيرهم ، ولم ينج الإمبراطور هونريوس نفسه من غضبة الجيش إلا حين وافق على تسليم ستيليكو له ، أما ستيليكو فقد التجأ إلى كنيسة رافنا حيث قبض عليه وأعدم بأمر سيده فى أغسطس عام ٤٠٨م ، وذلك بعد سنتين فقط من انتصاره على القوط الشرقيين وأحلافهم ، ويعد ستيليكو أقدر قواد هونريوس[3] .

تلا هـذا الحادث موجة كراهة كاسحة ضد البرابرة عامة وضد الجنود المرتزقه منهم بصفة خاصة ، وتصرف وزراء هونريوس أسوأ تصرف فى مثل هذه الأحوال ، فقد أمروا بطرد جميع القوط والضباط والبرابرة الآخرين من مناصبهم ، بل أصدروا قانونا يحرم دخول الأريوسيين أو الوثنيين فى خدمة الإمبراطورية

---

(١) Lav. et Ramb., 1, p. 64; Hodgkin, 1, pp. 748 - 9

(٢) Bradley, pp. 90 - 91; Hodgkin, p 747

(٣) Bury, 1, pp. 106, 160-62, 166-170; Hodgkin, pp. 754-8, Lot, pp. 72-3

فى المستقبل[١] ، وحينئذ غادرت الفرق الجرمانية مراكزها وأغلبها على الأريوسية ولم تجروء هـذه الفرق على الثورة خوف تنكيل الرومان بذويهم ، ومع ذلك انتشر الهياج فى إيطاليا ، وسرى بين الناس أن المراطقة والأجانب أصبحوا خارجين عن حماية القانون ، فقام الغوغاء وكذلك الجيش بذبح أسر هذه الفرق ونهب أموالها ، وكانت النتيجة أن نحو ٣٠ ألف من الجنود المرتزقة من البرابرة قد تركوا الجيش الرومانى وانضموا إلى الاريك المتحفز ، وهم يتحرقون شوقاً للانتقام من الرومان[٢] .

أضحى هونريوس وجهاً لوجه أمام ألاريك ومن تجمع لديه من الساخطين والناقمين وحينئذ أرسل ألاريك لتنفيذ شروط المعاهدة بدون جدوى[٣] ، فقاد جيشه إلى شمالى إيطاليا بحجة الانتقام لمقتل ستيليكو ، ولم تكن هناك أدنى مقاومة وصار الطريق مفتوحاً أمامه فوصل إلى رافنا حيث كان الإمبراطور متحصناً ، لكنه عدل عنها نظراً لقوة حصونها وما يحيط بها من مستنقعات ، وتوجه رأساً إلى روما حتى لا يضيع وقته ، وعسكر قرب أسوار روما فى سبتمبر عام ٤٠٨ م ، مفضلا الحصار وإجاعة المدينة عن أن يفتحها عنوة حتى لا يفقد أحداً من رجاله ، وهذا أول حصار ألاريك لروما ، حاصرها وقطع عنها إمدادات تموينها ، فاستبد الجوع بأهل روما عامة كما اشتد الفزع بأعضاء السناتو فصبوا جام غضبهم وحقدهم على ستيليكو الذى كان السبب فى هذه الكارثة بأن أعدموا أرملته سيرينا (serena) لاعتقادهم أنها هى التى استدعت ألاريك للانتقام لزوجها . مات الآلاف من الجوع داخل المدينة ، وظل السناتو معانداً لا يقبل التسليم على أمل أن يصل جيش هونريوس لإنقاذ المدينة ، بعد أن استطاع رسول

(١) Hodgkin, p. 762

(٢) Bradley, p 91 .

(٣) Hodgkin, I, pp. 761 - 2

هونريوس أن يدخل المدينة فى غفلة من القوط المحاصرين وأن يبعث فى أهلها الأمل بهذا الوعد ، ولكن الجيش المنشود لم يصل فلم يسع السناتو إلا أن يبعث برسل المفاوضة طالباً من ألاريك أن يرفق فى الشروط ومظهراً له فى نفس الوقت أن الرومان سوف يقومون قومة رجل واحد إن جاءت شروط القوط مذلة لهم ، وأنهم سوف يستعذبون الموت عن أن يسلموا بشروط مهينة ؛ وأن لديهم جيوشاً ضخمة ، فما كان من ألاريك إلا أن أجاب الرسل ساخراً « كلما كان المرعى خصيباً كلما سهل رعيه » وأخذ يضحك من استعداد أهل روما للحرب ، وأخيراً سأله الرومان عن الشروط فقال : إنقاذ المدينة بشرط تسليم جميع ما فيها من ذهب وفضة ، وتسليم جميع العبيد الأجانب » ولما استفسره المفاوض الرومانى عما يبقى للرومان بعد ذلك ، أجابه ببساطة : حياتكم (Salvalos) . والواقع لم يرد ألاريك سلب كل ثروات المدينة ولكنه أراد أن يلقى فى قلوب الرومان الفزع والهلع ، وتمت المفاوضة بتحديد الفدية المطلوبة وهى (خمسة آلاف رطل ذهب وثلاثة آلاف رطل فضه ، وأربعة آلاف ثوب امبراطورى من الحرير ، أربعة آلاف أخرى من الحلل الإمبراطورية الإرجوانية من صباغة صور الفاخرة ، أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف رطل فلفل) .

وقد يبدو غريباً أن يكون الفلفل من ضمن ما طلبه ألاريك ، وأن يعد ضمن المواد الخاصة بالترف غير أن ثمنه كان حينئذ مرتفعاً جداً ، ويستورد من الهند وقد تذوقه القوط فى مطابخ الرومان فأدركوا طعمه[1] .

دفع الرومان الفدية وجلا ألاريك وتوجه إلى تسكانيا ، وبهذا ينتهى الحصار الأول لروما حيث لم يستخدم السيف ولم ترق فيه دماء وإنما كان الجوع هو السلاح الوحيد الذى استعمله ألاريك . حافظ ألاريك على حسن معاملة

---

(١) Bury, 1, pp.174 - 77; Hodgkin, 1, pp. 770 - 4, Bradley, pp.92-4

الرومان ومنع رجاله من الاعتداء أو النهب ، بل إنه عاقب بعض رجاله لأنه سخر من الرومان ، وازداد أتباعه عندما انضم إليه ٤٠ ألف عبد تخلصوا من سادتهم فى روما ، كما انضم إليه عدد كبير من القوط الذين جاءوا صحبة صهره آتولف (Ataulfus) من شواطىء الدانوب، وآتولف هذا من القوط الشرقيين[1] .

لم يكن لدى ألاريك حتى ذلك الوقت أية فكرة عن القضاء على الامبراطورية الغربية ، بل كان كل ما يطمع إليه هو تأسيس مملكة قوطية تابعة للرومان على أن يعين قائداً عاماً للجيوش الرومانية ، ومن ثم دخل فى مفاوضات مع الامبراطور هونريوس ، وكان ألاريك فى ذلك الوقت فى معسكره فى تسكانيا، وطلب من الامبراطور أن يسلمه البندقية ونورسيا ودالماشيا وهى المناطق التى يسكنها القوط باعتبارهم معاهدين . ودارت المفاوضات فى مدينة ريمينى (Rimini) بين ألاريك ورئيس وزراء هونريوس وهوجوفيوس (Jovius) . فأرسل جوفيوس إلى سيده بمطالب الاريك ، مقترحاً فى نفس الوقت أن يعرض الامبراطور على ألاريك منصباً عسكرياً سامياً . فأجاب هونريوس لائماً وزيره على هذا الاقتراح الأخير باعتباره من اختصاصه هو لا من اختصاص جوفيوس، وختم رسالته بأن مثل هذا المنصب لن يعطى لألاريك أو أى واحد من جنسه، فقرأ جوفيوس هذه الرسالة على مسمع من ألاريك ، وما كاد يتمها حتى أمر ألاريك بقطع المحادثات وهدد بحصار روما والانتقام لهذه الاهانة التى لحقته وقومه . فعاد جوفيوس إلى رافنا واستحلف سيده هونريوس ألا يضم السيف حتى يقضى على القوط البرابرة[2] . والواقع أن هونريوس ورجال بلاطه فى رافنا

(١) يحتمل أن يكون اسم أتولف (ata-ulfus) مشتقا من كلمة (atta-wulfus) بمعنى أبى الذئب ، وبقيت هذه التسمية فيما يعرف حديثا باسم أدولف (Adolf) (Bury, 1, p. 178 - 185; Hodgkin, 1, p. 821)

(٢) Hodgkin, 1, pp. 780 - 2

لم يقطعوا الأمل نهائياً فى إزالة القوط والتخلص منهم ، إذ أنهم لم يحسوا بوطأة خطرهم حين كانوا فى رافنا فلم يتعرضوا لما تعرضت له روما من جوع بسبب الحصار . ورغم هذا فإن ألاريك خفف من شروطه ورغب مخلصا فى معاهدة الامبراطورية ، ووعد بمساعدتها حربياً ، وأرسل فعلا إلى الامبراطور ولكن الامبراطور رفض [١] .

لذلك لم ير ألاريك بداً من استئناف هجومه ، وتوجه نحو روما ، أواخر عام ٤٠٩ م بعد أن فقد كل أمل فى الاتفاق مع الامبراطور وهدد روما بالاستيلاء على ثغرها أوستيا (Ostia) حيث توجد أهراء القمح ، وفرض الحصار مرة أخرى وهذا هو الحصار الثانى ، وسرعان ما دخل السناتو فى مفاوضة ألاريك ، واستجاب لشروطه التى تقضى بعزل الامبراطور هونريوس وتعيين امبراطور جديد ، ووقع الاختيار على تعيين حاكم روما الوثنى برسكوس أتالوس (Priscus Attalus) الذى اعتنق المسيحية وعمد على يد أسقف قوطى على المذهب الأريوسى وتوج إمبراطوراً مما أثار كراهية الكاثوليك [٢]

وافق الامبراطور الجديد على تعيين ألاريك قائداً عاماً للجيوش الرومانية وتعيين آتولف أخى زوجة ألاريك فى منصب : قائد الحرس الامبراطورى بلقب (Comes Domesticorum) . والتف حول الحكومة الجديدة عدد كبير من أعضاء السناتو البارزين أمثال لامبريدوس الذى عين فى وظيفة رئيس القضاة وهو الذى كان منذ قليل أشد الناقمين على اقتراح ستيليكو فى إعطاء ألاريك الأموال التى طلبها [٣] .

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 783 - 4

(٢) Ibid, pp. 780 - 6

(٣) Lot, pp. 75 - 6

من هذا يتضح أن ألاريك حتى نهاية عام ٤٠٩ م قد وصل إلى ما كان يطمح إليه ، فقد حصل على منصب رسمى رفيع فى الامبراطورية الغربية ، واستقر قومه فى المناطق التى احتلوها ، بل إن القوط الغربيين أخذوا يتغلغلون حتى أضحت الامبراطورية الغربية برمتها تحت سيطرتهم ومشيئتهم ، وعلى الأقل فى إيطاليا ، ولم يكن هناك أدنى اعتراض أو مقاومة يخشى منها ، إذ كان الامبراطور أتالوس دمية فى أيدى القوط ، أما هونريوس فلم يعد أمامه شيء سوى أن يعد العدة سراً للفرار إلى القسطنطينية (١).

والواقع إن المدن الايطالية كانت قد سئمت حكم الامبراطور هونريوس ، وسرعان ما اعترفت بالامبراطور الجديد ، وشملتها موجة من السرور . تقدم ألاريك بجيشه ومعه الامبراطور أتالوس حتى وصلوا إلى أبواب رافنا ، حيث يقيم هونريوس ، فتقدم وزراء الامبراطور المعزول وعرضوا على أتالوس فكرة اقتسام الامبراطورية بينه و بين هونريوس غير أن أتالوس رفض هذا العرض ، وأصر على أن يعتزل هونريوس العرش فى الحال وأن يتوجه إلى المنفى ، وخلال هذه الأحداث دب نزاع بين ألاريك وصنيعته أتالوس ، منشأه أن هرقل كونت أفريقية ، كان قد ساءه ما وصلت إليه الأحوال فى روما ، فأوقف إرسال القمح من أفريقية ، و بدأت روما تحس بالمجاعة ، و إزاء هذا التصرف اقترح ألاريك التوجه إلى أفريقية لإخماد هرقل ، وربما كان فى تحقيق هذا المشروع سلامة إيطاليا من أخطار القوط نهائياً ، غير أن أتالوس رفض هذا الاقتراح ، وأخذه الغرور ، ولعله كان يحلم أن باستطاعته أن يحكم مستقلا عن الملك القوطى ، ولم يضع ألاريك وقتاً فى حسم ما قد يراود هذا الامبراطور وعقد مجلساً من القوط والرومان قرب مدينة ريمنى ، وأرغم أتالوس على حضور هذا المجلس فى زيه

(١) Bradley, p. 95, Lot, p. 76

الامبراطورى وعلى مشهد من المجلس أمر ألاريك بانتزاع الشارات الامبراطورية عن أتالوس ، وأعلن أن أتالوس لم يعد امبراطوراً وإنما صار مواطناً عادياً ولم يقس عليه أكثر من هذا بل سمح له أن يعيش فى بلاطه وظل على هذا النحو على عهد خليفته آتولف الذى رأى فيه نديماً مسلياً وموسيقياً بارعاً [1].

حينئذ استأنف ألاريك المفاوضات مع هونريوس ، وبدأها بارسال الروب الامبراطورى إليه كعلامة لرغبته الخالصة فى الاتفاق معه وحسن العلاقة ، وكادت المفاوضات تنجح وتبرم المعاهدة فى يوليه ٤١٠ م بعد مقابلة شخصية بين ألاريك وهونريوس ، لولا وصـــول المدد الذى كان هونريوس قد وعد به من قبل تيودسيوس امبراطور الشرق ، جاء هذا المدد بقيادة ساروس (Sarus) الزعيم القوطى النـــربى الذى يخدم الرومان وينافس ألاريك [2] ، وهجم فجأة على معسكر ألاريك فى ريمنى ، فقطع ألاريك المفاوضات وثارت مخاوفه لاعتقاده أن هونريوس قد خدعه ، ومن ثم ترك رافنا وتوجه إلى روما ولم يفكر فى حصارها كما حدث فى المرتين السابقتين بل دخلها عنوة فى مساء ٢٤ أغسطس ٤١٠ م ، هذه هى المرة الأولى التى يدخل روما جيش بربرى بعد تخريبها الأول منذ ثمانية قرون على يد الغال ، استباح ألاريك روما لرجاله ستة أيام ، ولـكن نظراً لأن ألاريك يدين بالمسيحية فقد أمر رجاله بقصر نهبهم على بيوت النبلاء وإحراقها والاستيلاء على الفضة والذهب والماشية والأثاث والجواهر ، ومنعهم من قتل العزل من السلاح كما استثنى الـكنائس والآثار الدينية ، ورغم هذا فقد حدث قتل لـكنه قليل ، ولعل كتاب الرومان قد بالغوا فى عدد القتلى الذين وصـفوهم بأن جثثهم كانت تملأ الشوارع بسبب امتناع أصحابها عن التعريف عن أماكن أموالهم وثرواتهم ، والواقع إن أوامر ألاريك قد نفذت إلى حد بعيد لأنه وقومه

---

(١) Hodgkin, 1, pp. 789-91, Lot, p. 76, Bradley, p. 95

(٢) أنظر ما سبق ص ٧٢ .

كانوا لا يزالون يعتبرون أنفسهم معاهدين وأن هدفهم الحقيقى هو الحصول على مكان ثابت معترف به فى الامبراطورية وليس تدميرها [١]، كما وضح من حرص ألاريك فى الأحداث السابقة على الاتفاق مع الرومان بشتى الوسائل [٢].

ترك ألاريك روما خراباً يباباً ، ولكن استيلاءه عليها لم يفده وأدرك هذا جيداً بل إنه أدرك كذلك أن أحلامه قد تبددت ، فها هى ذى إيطاليا ليست أحسن حالا من الليريا بعد أن عمها الخراب والركود بحيث أضحت عاجزة تماماً عن إمداده وقومه بالاستقرار الحقيقى الآمن ، حقيقة هو أضحى سيد إيطاليا المطلق ، لكن ينقصه لتدعيم مركزه وسلطانه أن يضع يده على منابع القمح التى تمون شعبه ، وسرعان ما فكر فى مشروع غزو أفريقية .

هذه هى الكارثة التى حلت بروما ، وكان لسقوطها ضجة وهزة فى أركان العالم الرومانى ، إذ فقدت روما مكانتها وسمعتها ، وانتشرت أنباء الكارثة فى العالم حيث بدأ للكثير أن نهاية العالم قد دنت ، وشاع بين الناس نظرية تقول : إن المدنية الخالدة التى احتفظت بأباطرتها الوثنيين ، كان ينبغى أن تسقط عندما اعتنق أحد حكامها الديانة المسيحية ، وأقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون عما إذا كان ذلك هو كل ما استطاعت المسيحية أن تأتى به ، أم كانت الطامة انتقاماً للوثنية ومعابدها القديمة ، أما كان ما حدث هو الجزاء لاعتناق المسيحية [٣].

وقد رد القديس أوغسطين — أسقف هيبو (Hippo) بأفريقية الرومانية وهى بونا الحالية بتونس — على كل تلك الأقاويل فى كتابه مدينة الله (De Civitate Dei) الذى بدأ تأليفه عام ٤١٢ م وانتهى منه عام ٤١٧ ،

(١) Thomp., pp .57-8; Boiss., p.246 moss, pp. 45-6, Lot, pp 96-7, Pirenne (H),

Courcelle, p. 45; p.280, Gibbon, IV, p. 108-118, Deanesly, p.27, Eyre p.18

(٢) Hodgkin, 1, pp. 792-8

(٣) فشر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) ص ٢٤ .

وفى ذلك الكتاب الذى يعد أعظم ما خلفه الآباء الأولون من الكتب الدينية ، أجاب أوغسطين بأن روما مدينة من صنع البشر ، وهى لا تقاس فى شىء إلى مدينة الله التى لا تنال منها الظواهر المادية ولا تحدها الحدود ، بل تسع كافة المؤمنين أينما يكونون [١] .

* * *

هكذا كان صدى الكارثة التى حلت بروما على يد الأريك زعيم القوط الغربيين ، أما مشروع ألاريك لغزو أفريقية ؛ فهو فضلا عن فائدته المادية فى الحصول على منابع القمح ، يفيده من ناحية سلطانه إذ بتحكمه فى هذه المنابع يستطيع أن يتحكم فى إيطاليا نفسها ؛ وتقدم إلى جنوب إيطاليا وعند عبوره المضيق إلى صقلية هبت عاصفة عند مدينة ريجيو (Reggio) فى جنوب إيطاليا دمرت أسطوله ، ولم يكد يقترب عام ٤١٠ من نهايته حتى مرض ألاريك ، وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره — ومات قرب مدينة كوسنتزا (Cosenza) [٢] ، ولم يعثر له على قبر على الطريقة الرومانية ، نظراً لأن رجاله أرادوا أن يجعلوا من قصة دفنه موضوعاً للملحمة ، فدفنوه تحت مجرى نهر بازنتو (Basento) الذى يجرى بالقرب من مدينة كوسنتزا ومعه كنز كبير من الفضة والذهب والملابس والأسلحة ولكى لا يعرف مكانه قتلوا الأرقاء الذين قاموا بعملية الحفر والدفن ليظل قبر ألاريك لغزاً وسراً على مر العصور [٣] .

* * *

---

(١) نفس ص ٢٤ ، Courcelle, pp. 49 - 55; Dill, pp. 59 - 67 Hodgkin, 1, Moss, pp.799 -805; p. 46

(٢) Moss, p. 46; Lot, p 77

(٣) Bradley, pp, 97 - 81 Pirenne (H.) p, 29; Deanesly, pp. 17 - 8 Hodgkin, 1, pp, 806 - 9

حتى وفاة ألاريك عام ٤١٠ م ، لم تكن دولة القوط قد قامت بعد ، فلم تكن مناطق استقرارهم السابقة ، مناطق استقرار دائم ، رغم اعتراف الإمبراطورية الرومانية بهم ، وإنما كانت أقرب إلى مناطق الانتقال منها إلى أماكن الإقامة الدائمة المستقرة . هكذا كان شأنهم فى شمالى البحر الأسود حيث كانوا مندمجين مع أشقائهم الشرقيين وكذلك كان الشأن فى داكيا ثم فى الليريا وأخيراً فى إيطاليا وكان يمكن أن يستقروا فى إيطاليا وأن تقوم فيها دولتهم ، لولا موت ألاريك المفاجىء أواخر عام ٤١٠ م .

تولى أمر القوط الغربيين بعد ألاريك ، أخو زوجته آتولف (Ataulphus) (٤١٠ — ٤١٥ م) ، و بمجرد ولايته على عرش القوط ، عدل عن مشروع الغزو الأفريقى . و يبدو أنه لم تكن لديه مشروعات محددة ، فلم يلبث فى إيطاليا بعد وفاة ألاريك أكثر من سنة ونصف ، نهب خلالها تسكانيا ، ثم صمم على مغادرة إيطاليا والتوجه إلى غاليا[1] .

دخل فى مفاوضة مع الإمبراطور هونريوس انتهت بمعاهدة عام ٤١٢ م وافق الإمبراطور بمقتضاها على الاعتراف بالقوط الغربيين كحلفاء معاهدين ، ومنحهم منطقة فى جنوب الغال هى المعروفة باسم ناربونة الغالية Gaul) (Narbonnaise ومنطقة فى أقصى شمالى أسبانيا هى تركونه الأسبانية (L'espagne Tarraconnaise)[2] ومما حمل هونريوس على الموافقة على هذه المعاهدة ، رغم ما فيها من تساهل من جانب الإمبراطورية ، ورغم احتجاج قنسطنطيوس قائد عام جيوش الأمبراطورية أن جالا بلاسيديا (G. Placidia) أخت الإمبراطور كانت أسيرة فى يد القوط منذ تخريب ألاريك لروما

---

(١) Halphen, pp. 20-21; Gibbon, IV, p. 124; Lot, p. 77; Moss, p. 46

(٢) Leclercq, p. 215

عام ٤١٠[1] ، وقد وعد آتولف بإعادتها ، وهذا بجانب اختلال أحوال الإمبراطورية بسبب الهزائم السابقة ، فضلا عن الثورة التى لم تخمد بعد فى غاليا حيث قام الدعى جوفينوس (Jovinus) وأعلن نفسه امبراطوراً ، لهذه العوامل ، رأى هونريوس أن ينهى مشاكله مع القوط وأن يستأديهم لقمع الفتنة القائمة ومحاربة الجرمان الأخرين وفى نفس الوقت يبعد شرهم عن إيطاليا .

ولذلك يمكن القول إنه حين عقدت هذه المعاهدة ٤١٢ م بين الإمبراطور هونريوس وبين آتولف ملك القوط الغربيين ، تكون دولة القوط قد قامت فعلا ، وأصبحت حقيقة ملموسة ، وذلك بالنظر إلى تاريخ القوط أنفسهم قبل ذلك العام وبعده ، فالمناطق التى سكنوها من قبل ، رغم أنهم سكنوها بمقتضى معاهدات مماثلة ، لم تثبت فى أيديهم ، ولعل ذلك راجع إلى مطامع القوط أنفسهم الذين لم يقنعوا بها ، أما عند ما منحوا جزءاً فى غاليا وآخراً فى أسبانيا ، وإن جاء هذا المنح على النحو الذى منحوا به سابقاً داكيا والايريا ، وبنفس الشروط تقريباً ، فإن هذه الأجزاء أضحت نواة لدولة القوط ثم لإمبراطورية القوط ، إذ حافظوا عليها وظلت بأيديهم حتى زوال دولتهم نهائياً من التاريخ ، ولا ينقص من هذه الحقيقة أن تعرضت أملاك الدولة القوطية من بعد هذا التاريخ ٤١٢م إلى الانقاص سواء جاء هذا الانقاص على يد الفرنجة ، أو على يد الإمبراطورية الشرقية ، لفترة ما ، يضاف إلى ذلك أن القوط ، وقد اقترن نضالهم بالظفر والغلبة فى سبيل الاستقرار والبقاء ، كانوا يتطلعون ، فى الواقع ، إلى الحكم فى بلاد الغال ، وهى أعظم جزء اصطبغ بالحضارة الرومانية ، وهذه تتيح لهم فرصة التوسع نحو الجنوب إذ لم تكن جبال البرانس حاجزاً أو مانعاً يعوق تقدمهم ، فضلا عن وجود طريق ساحلى تجارى بين غاليا وأسبانيا ،

(١) Hodgkin, 1, p. 821

ولذلك جاءت معاهدة عام ٤١٢م محققة لآمال القوط الغربيين ، وليس لهم بعدها إلا أن يحافظوا على ما منحوا وأن يعملوا على التوسع كلما أتيحت لهم الفرصة .

حقيقة حاول آتولف أن يثبت مركز القوط فى إيطاليا ، بل رغب فى التوسع وتحويل الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية قوطية[1] ، وأن يجعل نفسه امبراطوراً ، لكنه اقتنع خلال الفترة التى قضاها فى إيطاليا عقب وفاة ألاريك بعجز القوط عن إتمام هـذه الأمنية وحتى لو قدر لهم إقامة هذه الإمبراطورية فإنه يدرك قصور القوط عن إدارتها ، ولذلك رأى أن يغير وجهة نظره وأن يستأدى شعبه بوصفه معاهداً لخدمة الإمبراطورية وإعادة مجدها مؤملا بذلك أن يظفر بلقب محيي العالم الروماني . أو باعث العالم الرومانى (Restutor Orbis Romani) .[2]

كلفه الإمبراطور هونريوس فى بداية عام ٤١٢م بالتوجه إلى الغال لمحاربة جوفينوس الذى أعلن نفسه إمبراطوراً . توجه آتولف إلى بلاد الغال حيث حاول الدخول فى مفاوضة مع الثائر ، وبعث إليه أتاللوس ليفاوضه فى أمر اقتسام الغال بينهما ولما رفض جوفينوس عاد آتولف إلى مشروعه الأصلى الذى جاء من أجله ، وكان ساروس القوطى ، عدو آتولف العنيد — قد ثار ضد هونريوس وخرج مغاضباً وجاء إلى الغال لينضم إلى الدعى جوفينوس ، فقابله آتولف وحاربه وقتله[3] .

ولم يكد يقترب عام ٤١٣م من نهايته حتى كان آتولف سيداً على معظم جنوب الغال بما فيه المدن الكبيرة تولوز وبوردو وناربون وغيرها ، وفى ناربون التى اتخذها آتولف عاصمة له ، تزوج من بلا سيديا ، فيما يقال بموافقة هنريوس

---

(١) Eyre, 15; Bryce, pp. 18 - 19, 30

(٢) Encycl, Britt.; Deanesly, p. 28; Lav et Ramb. 1, p. 66

(٣) Dill, pp. 349 - 350; Lav. et Ramb., 1, p. 66; Bradley, pp. 100-101

الذى اضطر أن يقبل هذه المصاهرة ليأمن شر القوط[1] ، و بعد إلحاح من جانب آتولف الذى أبدى رغبة حارة فى مصاهرة الأسرة الإمبراطورية ليضمن من ناحية أخرى خضوع الرومان له فى الغال[2] ، وحتى يغفر له الرومان أصله البربرى . وتم الزواج فعلا فى مطلع عام ٤١٤م رغم قيام بعض الاحتجاجات والمعارضات من جانب الرومان الذين رأوا فى زواج بلاسيديا من زعيم بربرى أمراً منافياً لكرامة الرومان عامة والأسرة الإمبراطورية بصفة خاصة ، والواقع إن زواج البرابرة من الأسرة الإمبراطورية أمر مألوف — كزواج ستيليكو من بيت تيودسيوس ، ولم تخل المعارضة الرومانية لهذا الزواج من عوامل شخصية إذ كان قنسطنطيوس يطمع نفسه فى الزواج من بلاسيديا[3] ، ثم أن آتولف كان يرجو من وراء هذا الزواج أن يدعم لأسرته فى العرش إذا ما رزق بوريث للعرش من إبنة تيودسيوس العظيم[4] .

احتفل آتولف بهذا الزواج احتفالا رائعاً فى ناربون ، وقد عزف أتاللوس فى هذا الحفل[5] .

بعد ذلك توجه القوط الغربيون إلى أسبانيا ، وأحوال هذه قبل دخول العناصر الجرمانية إليها ، لم تزد عن كونها مشهداً من مشاهد البؤس والفاقة ، ولا سيما فى ظل الأباطرة الرومان المتأخرين ، فأراضيها الصالحة للزراعة والاستثمار مقسمة ضياعاً (Lutifundia) بين قلة من النبلاء الرومان وهم يتمتعون بكل الإمتيازات والحقوق ، ويعيشون فى ترف وعافية ، ينعمون فى قصورهم على شواطىء الأنهار أو عند سفوح الجبال ، حيث توجد حدائق الكروم

---

(١) Courcelle, pp. 68 - 69; Zeller, p 24; Pirenne (H.) p. 29

(٢) Bradley, p. 102

(٣) أنظر ما يلى ص ٨٩ حاشية ١

(٤) Moss, p. 40; Lot, pp. 82 - 4; Deanesly, p. 28 Leclerc, p. 216

(٥) Bradley, p. 102; Hodgkin, 1, 831

والزيتون ، وفيما عدا هذه القلة المترفة ، عاش بقية السكان أرقاءاً أو عبيداً يعملون فى ضياع السادة النبلاء ، باستثناء طبقة ليست كبيرة هى الطبقة الدنيا من الأحرار ، ومثل هذا المجتمع البائس كان لا بد وأن ينهار عند أول غزوة ، ولا سيما إذا كانت من غزوات الجرمان الصاخبة ، وبدأت مطالع هذه الغزوات تبدو فى الأفق منذ عام ٤٠٩م وعجز نبلاء الرومان عن الوقوف أمامها ، بل ظلوا سادرين فى مساخرهم وملاهيهم ، يطربون و يشربون (١) .

وأول من دخل شبه جزيرة إيبيريا من القبائل البربرية : عناصر الآلان الإيرانيين والسويف والوندال من الجرمان ، عبرت هذه الجموع بلاد الغال حوالى عام ٤٠٩ م وكان الآلان بقيادة ملكهم رسبارديال (Respardial) والسويف بزعامة ملكهم أرمانريك (Hermaneric) أما الوندال فكان يقودهم ملكهم جوندرك (Gunderic) . خربت هذه العناصر الغازية البلاد الإسبانية فى تركونه وغاليسيا ولوزيتانيا وجزء من بايتيكا وظلوا نحو سنتين يتجولون و يخربون فى إسبانيا ، حيث اقترنت أعمالهم بالقحط والوباء ، وكان الوندال أشد هذه العناصر تخريباً وتدميراً ووحشية ، وبعد قليل اقتسموا البلاد حوالى عام ٤١١ م ، فاستقر السويف وجزء من الوندال فى غاليسيا ، واستقر الآلان فى لوزيتانيا أما بقية الوندال فقد أقامت فى بايتيكا التى صارت منذ ذلك الوقت تعرف بالأندلس نسبة إلى الوندال (٢) .

على هذا الوضع الذى آل إليه أمر إسبانيا الرومانية ، دخل القوط الغربيون ورغم ما هنالك من تحالف ومعاهدة مع الامبراطور هونريوس وأن لآتولف حقا فى امتلاك شمالى أسبانيا بمقتضى المعاهدة ، وأن من واجبه أن يعمل على تطهير أسبانيا من الغزاه الذين استقروا فيها ، فإن حسن العلاقة مع الامبراطورية لم يدم

---

(١) Dozy, II, pp. 4 - 13

(٢) Courcelle, p. 81, Bury, 1, p. 185; Lecl., pp. 213 - 16; Pirenne, (H.), p. 28

عند ما وطىء القوط الغربيون الأراضى الأسبانية ، فقد حدث أن قنسطنطيوس الطامع فى زواج بلاسيديا ، والمستبد بأمور هونريوس لم يطق صبراً على زواج آتولف من بلاسيديا ، فأعاد آتولف تمثيل المسرحية التى مثلها الاريك من قبل، وهى إعلان الموسيقاو أتاللوس امبراطوراً ، فجاء قنسطنطيوس على رأس جيش كبير ، وفى نفس الوقت قطعت الأساطيل الرومانية الإمدادات عن القوط من الموانىء الغالية ، وانتصر قنسطنطيوس وطارد القوط الذين فروا من ناربون ، وعبر آتولف بجموعه إلى أسبانيا وأخذ ينهب البلاد التى يمر بها ، حتى استقر فى برشلونه بعد أن انتزعها من الوندال عام ٤١٤ م ، فاتخذها عاصمة لأملاكه الأسبانية ومركزاً لعملياته الحربية داخل شبه الجزيرة ، وتوغل بعد ذلك داخل أسبانيا ، وفى برشلونه ولدت بلاسيديا إبناً أسماه أبواه تيودسيوس ، وكانا يأملان أن يلى هذا الولد عرش الامبراطورية الرومانية يوماً ما[١] ، وقد حاولت بلاسيديا إغراء زوجها بفوائد الاعتماد على محالفة الرومان حتى يستطيع أن يكمل فتح شبه الجزيرة الأسبانية[٢].

ويعتبر آتولف أول ملك قوطى يدخل أسبانيا ، وعند ما توفى مقتولا على يد أحد أتباع ساروس عام ٤١٥م ، كان سيداً على أغلب أسبانيا ونحو ثلثى بلاد الغال . وعرف عن آتولف تعشقه للحضارة الرومانية والتقاليد الرومانية ، حتى أنه أوصى أخاه بأن يعمل دائماً على الاتفاق مع الرومان وأن يرسل بلاسيديا إلى أخيها بعد وفاته . غير أن أقلية من أتباع آتولف لم تشاركه هذا الإعجاب بالحضارة الرومانية ، ومن ثم جاءت وفاته فرصة للحزب المعارض للرومانية . ويتزعم هذا

---

(١) مات هذا الولد فى برشلونة التى ولد فيها ، فحزن عليه أبواه حزناً شديداً واحتفلا بدفنه ، فى كنيسة فى ضواحى برشلونة ، حيث وضع فى تابوت من فضة (Bury, 1, p. 199 ; Hodgkin, 1, pp. 833 - 34)

(٢) Bradley, p. 103, Lecl, pp. 215 - 16

الحزب سيجريك (Siegeric) أخو ساروس الذى كان آتولف قد قتله من قبل [٢].
وكثيراً ما تعرضت هذه الأقلية لزوجة آتولف بالإهانة والإيذاء فى حياة زوجها
الذى عمل مخلصاً على حمايتها واحترامها . فما كاد يقتل آتولف حتى انتخب القوط
سيجريك ملكا عليهم (٤١٥ م) ولم ينتخبوا أخ الملك المتوفى.

استهل سيجريك عهده بقتل أبناء آتولف الستة من زوجته الأولى كما أهان
بلاسيديا إهانة بالغة ، بأن جعلها تسير على قدميها نحو اثنى عشر ميلا بجوار
جواده [٣]، ولكن ولاية سيجريك لم تطل ، فقد لقى حتفه بعد أسبوع فقط
من تملكه ، على يد واليا (Wallia) الذى ولى على العرش القوطى من بعده
(٤١٥ — ٤٢٠ م) [٤].

وينتسب واليا إلى أسرة البالطيين ، وهو بذلك ثانى ملوك هذه الأسرة ،
والخلف الحقيقى لآتولف ، من حيث ميوله واتجاهاته فى الإفادة من الرومان
وحضارتهم ، أحسن معاملة بلاسيديا ، حقيقة حارب الرومان فى صدر حكمه ،
كما حارب السويف والوندال لبسط سلطانه داخل أسبانيا ، إلا أنه عند ما أصيب
بقحط ، وفشل مشروع الغزو الأفريقى الذى فكر فيه للاستيلاء على منابع
القمح ، كما فشل ألاريك من قبل ، حينئذ اضطر إلى مهادنة الرومان ، وعرض
على هونريوس إعادة بلاسيديا ، فرحب الرومان ولا سيما قنسطنطيوس ، وفى
نظير ذلك يمده الرومان بالقمح ، وتكون فتوحه فى أسبانيا باسم الامبراطورية ،
ثم الاتفاق عام ٤١٥ م ، وعادت بلاسيديا إلى رافنا ، حيث أرغمت على الزواج

---

(١) Hodgkin, I, p. 834; Deanesly. pp. 28 - 9

(٢) Bradley, p. 104

(٣) Lecl., 210; Moss, p 40; Lot, p. 84; Deanesly, pp. 28- 9

من قنسطنطيوس [1]، وأرسلت إمدادات القمح إلى القوط بعد أن كانت قد منعت فترة .

أضحى واليا يحارب البرابرة الذين استقروا فى أسبانيا بإسم الامبراطورة ونجح فى حروبه ، وتمكن من أسر اثنين من ملوك الوندال وأرسلهما إلى الامبراطور ، فاحتفل هذا الأخير بالنصر . أدت حروب واليا فى أسبانيا إلى إخضاعها تقريباً باستثناء الجزء الشمالى الغربى منها ، وخلال حروب واليا فى أسبانيا ، قاسى سكان الولايات الرومانية الكثير من العنت والإرهاق ، إذ أضحت الضيافة الإجبارية مقررة للقوط على الرومان ، وصار القوط يشرفون على أملاك الرومان ويستولون على ثلث غلتها أو ثلثيها ، واستطاع واليا أن يطرد الآلان من لوزيتانيا خلال عام ٤١٨ م ، فلجأوا إلى الوندال فى الأندلس [2] . غير أن قنسطنطيوس لم يرقه أن يصبح القوط بمثل هذه القوة والنفوذ فى أسبانيا ، واقترح على الامبراطور أن يعطيهم منطقة أكويتانيا بالغال [3]، فقبل الامبراطور ومنح واليا هذه المنطقة واعترف به حليفاً معاهداً عام ٤١٩ م . وتشمل أكويتانيا كل فرنسا الحالية جنوب نهر

---

(١) بدأ مستقبل بلاسيديا بعد عودتها إلى رافنا ، حيث تزوجت من القائد الكريه لها قنسطنطيوس ، رغم أنه أصبح شريكا للامبراطور هونريوس فى الحكم عام ٤٢١م . وبعد وفاة هونريوس عام ٤٢٣م من غير وريث ، صارت بلاسيديا لمدة ٢٥ عاما الحاكم المطلق على الجزء الغربى من الامبراطورية ، وذلك خلال حكم ابنها فالنتنيان الثالث (Valentinian III) من زوجها قنسطنطيوس وعلى عهدها ظل بلاط رافنا آمنا من غزوات البرابرة ؛ كما ظلت المواصلات البحرية آمنة مع بيزنطة بفضل يقظة الأسطول البيزنطى ، ويتميز عهد بلاسيديا بالامتزاج والاختلاط بين البرابرة ، والطبقة الرومانية الحاكمة ، ماتت عام ٤٥٠م بعد أن بلغت من العمر ستين عاما ، ولها ضريح فخم ضخم فى رافنا تجلت فيه معالم الفنون الشرقية الإيرانية بصفة خاصة . (Hodgkin, 1, pp. 823, 839 - 40, 886 - 7; Deanesly, p. 29, Bury, 1, pp, 202- 203 ; Bradley, p. 105; Lav. et Ramb., 1, p. 67)

(٢) Bradley, p. 107; Lecl., p. 218; Deanesly, p. 29

(٣) Bradley, p 106

اللوار ، وفيها من المدن الشهيرة ، بواتيية وبورد وتولوز . اتخذ واليـا مدينة تولوز عاصمة له [١] .

وقد تغنى الشعراء فى ذلك العصر ، بأ كويتانيا القوطية ، ووصفوها بجوهرة الغال وفردوس الأرض ، ودرة الولايات ، وأرض القمح والنبيذ والزيت وهكذا ، والواقع إن واليا فرح بهذه المملكة الجديدة وآثرها عن أسبانيا الضنية ، والتى لا يطيب الاستقرار فيها من غير عناء دائم [٢] . ومن تولوز ، ظل واليا يعمل على تدعيم مملكة القوط حتى توفى فى عاصمته عام ٤٢٠ م [٣] .

لم يترك واليا وريثاً من بعده ، سوى ابنة ، فانتخب القوط الغربيون ثيودريك ، ثالث ملوك أسرة الشجعان ، (٤٢٠ — ٤٥١م) وهو وإن حافظ على المعاهدة مع الرومان ، إلا أنه كان يضمر فى قرارة نفسه العمل على توسيع مملكته وتدعيمها ، وأمر الخروج على المعاهدات مألوف فى ذلك العصر ، فلا يعدم الخارج حجة يبرر بها خروجه ، رأى ثيودريك أن مملكته يحيط بها الفرنجة من الشمال والبرجنديون من الشرق ، بينما كان الرومان لا يزالون يمتلكون بعض المدن الثرية جنوب الغال مثل آرل (**Arles**) ، ونار بون (**Narbonne**) وهذه تتاخم مملكة القوط من ناحية الجنوب ، انتهز ثيودريك فرصة الاشتراك مع الرومان لإخماد ثورة حنا الخارج على الامبراطورية فى غاليا ، واستطاع ثيودريك أن ينتصر وأن يخمد الثورة التى انتهت بمقتل زعيمها ، لكن الملك القوطى لم يلق سلاحه بعد إخماد الثورة ، بل حاصر مدينة آرل ، وحينئذ لم يسع القائد الرومانى أيتيوس (**Aetius**) — وكان قد تهادن مع بلاسيديا وابنها فالنتنيان الثالث بعد خروجه مع الثائر — إلا أن يهاجم القوط الغربيين ويهزمهم

(١) Courcile, p.117; Lav. et Ramb., 1, p. 67; Moss, pp. 47-8

(٢) Bradley, pp. 47-7

(٣) Bradley, p. 107; Lecl., p 218; Deanesly, p. 29

ويأسر أونولف (Aanwolf) قائدهم ، ومنذ ذلك الوقت اضطربت العلاقة الرومانية القوطية ، بين الحرب والمهادنة ، وعقد المواثيق ونقضها بحسب ما يتراءى لمصلحة كل فريق منهم[١] .

تطلع ثيودريك إلى محالفة الوندال والارتباط معهم حتى يكونوا له عدة عند اللزوم ، وأقبل على هذه الخطوة فزوّج ابنته من ابن جزريك ملك الوندال — وعاصمة الوندال يومئذ قرطاجنة بأسبانيا — ولكن هذه الزيجة باءت بالفشل ، نظراً لأن جزريك الوندالى ، وقد عرف بالقسوة والوحشية ، شك فى إخلاص الزوجة القوطية وخشى أن تضع لابنه السم ، فجدع أنفها وقطع أذنيها وأعادها إلى أبيها[٢] .

غير أن ظروفاً خارجية عملت على تقاريب القوط من الرومان ، وتتلخص هذه الظروف فى خطر الهون الذين اشتد تخريبهم بزعامة ملكهم أتيلا ، وجاءت هذه الموجة الكاسحة من الشرق ، فارتبط الرومان مع القوط الغربيين والفرنجة والبرجنديين ، والتقت هذه الجموع المتحالفة عام ٤٥٠ م بالهون الذين اقتحموا الغال بجيش جرار بلغت عدته نحو نصف مليون جندى ، من مختلف العناصر التى خضعت لهم ، فكان من بين هذا الجيش قوط شرقيون وجبديون وغيرهم ، حاصر الهون مدينة أورليان ، لكنهم لقوا ضربة قاصمة من قبل الرومان وأحلافهم فى وقعة شالون (Châlons) عام ٤٥١ م ، وقد أنقذت هذه الوقعة أوروبا من خطر الهون ، وأبلى القوط الغربيون فيها بلاءاً حسناً ، حتى أن ملكهم ثيودريك قتل فيها[٣] .

---

(١) Bradley, p. 108, Lecl., pp. 225 - 26; Pirenne (H), pp. 29 - 30

(٢) Bradley, pp. 110 - 111

(٣) Bradley, pp. 111 - 112, Lecl., pp. 225 - 28; Eyre, pp. 15 - 18
Bury, 1, pp.291 - 6 Davis, p.26; Lav. et Ramb., 1, pp. 71 - 2

ورغم هذا النصر الذى أسهم فيه القوط الغربيون بالنصيب الأوفى ، فإن الحقد والغيرة فى قلوب الرومان لم تتركا مجالا للانتفاع من هذا المنتصر القوى ، إذ سرعان ما خشى القائد الرومانى (أيتيوس) من ازدياد نفوذ القوط ، بعد إزالة خطر الهون ، فأشار على ثورسمند (Thorismond) الذى خلف أباه ثيودريك على عرش القوط (٤٥١ــ٤٥٣ م) بأن المصلحة الخاصة لدولة القوط الغربيين ، تقضى عليه بالعودة إلى تولوز العاصمة ، وترك الميدان ، لأن هناك مؤامرة يدبرها إخوة ثورسمند ، عاد ملك القوط الغربيين إلى عاصمته ، تاركا ميدان الحرب ، مما أتاح لأتيلا فرصة التقهقر والجلاء والتوجه إلى جرمانيا دون أن يتعقبه أحد ، ولم ينقذ أوربا من عودة الهون بعد ذلك إلا موت أتيلا بعد هذه الوقعة بسنتين ، أما علاقة القوط الغربيين بالرومان ، فقد ازدادت سوءاً بسبب النزاع بينهم حول توزيع الغنائم التى غنموها من القوط ، فلم يقتنع ثورسمند بما أعطاه له أيتيوس[1] ، وبدأ يستعد لحرب الرومان على غير رغبة معظم قومه الذى آثر الإبقاء على الصداقة الرومانية ، وانتهت المعارضة بثورة تزعمها إخوة ثورسمند عام ٤٥٣ م أدت إلى قتله على يد أحد أخوته وتولية هذا الأخ عرش القوط الغربيين باسم ثيودريك الثانى (٤٥٣ - ٤٦٦ م) .

وطبيعى أن يعمل هذا الأخ المثقف على مداراة الرومان والمحافظة على الصداقة معهم ، فجدد التحالف مع الامبراطورية ، وجهد فى إقامة العلاقات الودية ، ومن أجل الحفاظ على الود مع الرومان ، وإيفاءاً بشروط المعاهدين ، حارب ثيودريك الثانى السويف عام ٤٥٦ م حين عبروا البرانس ، واشترك مع القوط الغربيين ، أحلاف الرومان الآخرون من الفرنجة والبرجنديين ، ودخل ثيودريك براجا (Braga) عاصمة السويف من غير مقاومة ، وأمعن فى نهب

(١) أنظر ما يلى ص١٠٩

البلاد السويفية ، بحيث أنه لم يترك مكانا إلا خربه ونهبه ، ولم تنج الكنائس والمذابح من سطوته ، فاتخذ منها مرابطا لخيوله ، كما قبض على الراهبات ، عاد تيودريك من أسبانيا إلى غاليا ، تاركا وراءه بقية الحلفاء مع جزء من جيشه ، لفتح اشتورجا (Astorga) وبلنسيه (Valencia) . ولسنا نبالغ فى أن ثيودريك فعل ما فعل من أجل حلفائه الرومان فحسب ، ولكن الحقيقة ، أن العامل الدينى كان ذا أثر بارز فى إشعال الكراهية بين القوط والسويف ، فالقوط أريوسيون متعصبون لأريوسيتهم[١]، بينما السويف على الكاثوليكية ، ومهما كان الدافع فى إمعان ثيودريك القوطى فى التنكيل بالسويف ، وأنه كان يهدف فى مطلع حكمه إلى الإبقاء على علاقة الود والتحالف مع الرومان ، فإن هذه العلاقة التى رنا إليها لم تدم طويلا أو لم تبق على النحو الذى أراده ، فقد وقعت الحرب بين الفريقين فى غاليا ، وهزم القوط أمام الرومان عام ٤٥٩م ، كما أن حياة ثيودريك نفسه قد انتهت بالقتل على يد يوريك أصغر أخوته ، وذلك عام ٤٦٦ م[٢].

---

(١) أنظر السياسة الدينية

(٢) Lot, p, 122, Leclercq, pp. 224 - 25

الفصل الثالث

تكوين امبراطورية القوط الغربيين فى غالة وأسبانيا

يوريك وفتوحه فى غالة وأسبانيا — ألاريك الثانى وعلاقة القوط بالفرنجة : وقعة ڤوييه ٥٠٧ م — نقل عاصمة القوط إلى ناربون — ولاية تيوديس القوطى الشرقى ملكا على القوط الغربيين وانتقال العاصمة إلى برشلونه — أجيلا وتركيز السياسة القوطية فى أسبانيا ونقل العاصمة إلى مارده — أثانا جلد وتدخل جستنيان — نقل العاصمة إلى طليطلة وبروز النفوذ البيزنطى — ليوڤجلد يحاول بسط سيادة القوط على جميع أسبانيا — ركارد الأول وتحول القوط الغربيين إلى الكاثوليكية ٥٨٧ م — سوئتلا وتقسيم الوظيفة الامبراطورية على النسق البيزنطى — زوال السيادة البيزنطية نهائياً من أسبانيا — وامبا آخر ملوك القوط الغربيين العظام .

يعتبر يوريك (Euoric) (٤٦٦ — ٤٨٤ م) أصغر أبناء ثيودريك الأول البالطى ، مؤسس امبراطورية القوط الغربيين فى غالة وأسبانيا ، ولى العرش على جثة أخيه وسمى أبيه ، والقوط يومئذ يتحكمون فى معظم بلاد الغال ، التى تقسمها الجرمان فيما بينهم ، ولم يعد للرومان فيها سوى مملكة سياجريوس (Syagrius) المنعزلة ، وعاصمتها سواسون .

اتبع يوريك سياسة تخلف سياسة أخيه القتيل وغيره ممن سبقه ، فهو يتزعم الحزب القوطى الذى ينادى بأن تكون الدولة القوطية خالصة مستقلة غير تابعة للرومان أو مرتبطة معهم بتحالف ما (١) . رأى أن سلفه والياً قبل التنازل من

---

(١) Thompson, p. 58 ; Lecl., p. 330; Deanesly, p. 96

قبل عن حكم الولايات الأسبانية فى مقابل حكم أكوتيانيا ، وذلك بمقتضى اتفاق بينه و بين الإمبراطور هونريوس[١] ، كذلك رأى تذبذب العلاقة القوطية الرومانية من بعد واليا ، ما بين الصفاء والعداء ، ولما كان هذا الوضع لا يتفق وسياسة حزبه وأهدافه ، قرر يوريك أن يحسم الموقف وأن يفصل فى مصير العلاقة القوطية الرومانيه فى وضوح وجلاء ، وكان سريعا وحاسماً ، فلم ينقض سوى عامين على ولايته العرش حتى قام بهجوم ساحق بقصد توسيع ملكه فى غاليا وأسبانيا معا ، واستولى فى عام ٤٧١ م على منطقة بروفانس وبرى (Berry) غير أنه وجد مقاومة عنيفة فى هضبة أوفرنى (Anvergne) وسط فرنسا ، ورغم انتصاره على أسطول رومانى يقوده بازيلسكوس (Basiliscus) ونجاحه فى الاستيلاء على مدينة بورج (Bourges) ، شمالى هضبة أوفرنى ، رغم ذلك استغرق استيلاؤه على هذه المنطقة عدة سنوات حيث اشتدت المقاومة ولا سيما لحماية مدينة كليرمونت[٢] وما حولها ، فاضطر يوريك إلى حصار هذه المدينة أكثر من مرة ، ومن الذين اشتهروا لاستبسالهم فى الدفاع عنها أسقفها سيدونيوس أبوليناريوس (Sid, Appollinarius) والقائد الرومانى نبوس إكدكيوس (N, Ecdicius) ، نجح يوريك فى إخضاع كليرمونت عام ٤٧٤ م وقبض على الأسقف ونفاه ثم عفا عنه بعد سنتين[٣] ، ولم تستسلم بقية أوفرنى إلا فى عام ٤٧٥ م .

---

(١) أنظر ما سبق ص ٨٩ .

(٢) لهذه المدينة شهرة فى الحروب الصليبية ، اذ انعقد فيها المؤتمر المنسوب إليها عام ١٠٩٥ م بتوجيه البابا اربان الثانى ، وتقرر فى هذا المؤتمر الدعوة إلى الحروب الصليبية .

(٣) عن حياة هذا الأسقف أنظر (Stevens : Sid. Appoll. pp. 161 - 164 ؛ Dill, pp. 187-193 Courcelle, pp.141 - 7 ؛ Lav. et Ramb , 1, p. 108)

وكانت الإمبراطورية الغربية ، التي توشك أن تنهار ، قد سلمت بمطالب القوط الغربيين نظراً لتعرض إيطاليا في ذلك الوقت لتهديد فرع من القوط الشرقيين ، فطلبت مساعدة القوط الغربيين ضد أشقائهم الشرقيين لإنقاذ إيطاليا[١] ، على أن يوريك لم يقتنع بما وصل إليه من فتوح ، بل تابع حروبه وأخضع قطالونيا عام ٤٧٦م وعبر البرانس ومعه إمدادات من القوط الشرقيين جاءته من ضفاف الدانوب — كما يقول ايزدور الأشبيلي[٢] — ودخل أسبانيا واحتل معظم القسم الشمالي منها من غير مقاومة تذكر ، اللهم إلا ما أبداه بعض النبلاء من مقاومة في منطقة تركونه[٣] ، ولم يمض غير قليل حتى كان شمال أسبانيا وشمالها الشرقي وكذلك جنوبها الغربي ، وأغلب ولاية قرطاجنة الرومانية والأندلس وبعض أجزاء من لوزيتانيا[٤] ، كان ذلك كله في قبضة يوريك ، أما غاليسيا وبقية لوزيتانيا فكانتا تحت سيطرة السويف[٥] .

والمعروف أن الإمبراطورية الغربية نفسها قد زالت نهائيا في ذلك العام وهو عام ٤٧٦ ، وأن يوريك قد حاول فعلا مقاومة أدواكر[٦] للحيلولة دون القضاء عليها ، ولكنه فشل ، بينما نجح من ناحية أخرى في حمل زينون امبراطور الشرق على التنازل له عن المنطقة الممتدة من الرون حتى جبال الألب جنوب نهر ديرانس (Durance)[٧] بحيث أضحى يوريك أقوى ملك في غربي أوروبا ، ويعتبر عام ٤٧٦ م السنة التي بلغت فيها امبراطورية القوط الغربيين ذروة اتساعها إذ امتدت حينئذ من بوغاز جبل طارق جنوبا إلى نهر اللوار بفرنسا

---

(١) Lot, p. 122; Deanesly p. 96 فشر (نفسه) ص ٢٩ .

(٢) أنظر النهضة الأدبية والفكرية .

(٣) Lecl., p. 231

(٤) Pirnne (H.), p. 29 ، أنظر الخريطة .

(٥) C. med H. II, p. 159

(٦) أدواكر (Odoacr) زعيم الروجيين من الجرمان الشرقيين ورئيس القوات العسكرية بإيطاليا (فشر ص٣٢ ؛ Courcelle, p. 197)

(٧) نهر ديرانس أحد فروع الرون (أنظر الخريطة) .

امبراطورية القوط الغربيين

٤٧٦م

الحدود - . - . - . - . -

ولايات شبه جزيرة ايبريا القوطية

١- تاراكون

٢- غاليسيا (جليقية)

٣- قرطاجنة

٤- لوزيتانيا

٥- بايتيكا (الأندلس)

فرنجة
باريس
اورليان
بواتيه
تولوز
أربونة
بيزيه
نيم
آرل
ليون
براغة
نهر منهو
نهر دويرة
نهر تاجه
طليطلة
ماردة
سرقسطة
لاردة
جيرونا
برشلونة
بلنسية
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
قرطاجنة
المرية
مالقة
جبل طارق
شذونة
قادس
سبتة
طنجة
منورقة
ميورقة
يابسة
البحر الابيض المتوسط
مرطانية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شمالا ، ومن المحيط الأطلسى غرباً إلى جبال الألب شرقاً[١] . ومركز هذه الإمبراطورية مدينة تولوز ، حيث أمسى بلاطه مقصد جميع العناصر الجرمانية المختلفة حتى من غير الجرمانيين مثل الفرس ، وفد هؤلاء جميعاً يلتمسون الحلف مع إمبراطورية القوط الغربيين ويرجون مساعداتها الحربية[٢] .

تلك هى إمبراطورية القوط الغربيين القصيرة العمر ، إذ ارتبطت بشخصية يوريك ، وهى لذلك من نوع الإمبراطوريات الشخصية التى يرتبط مصيرها بحياة مؤسسها و بانيها ، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة يوريك فى مدينة آرل (Arles) عام ٤٨٤م ، خلفه ابنه ألاريك الثاني (Alaric) (٤٨٥ — ٥٠٧م) الذى لم يكن يمثل كفاءة أبيه ومقدرته الحربية ، فهو ضعيف الخلق منحل الشخصية قصير النظر ودون معاصريه من ملوك الجرمان أمثال كلوفس الفرنجى ، فعند ما هرب سياجريوس الرومانى على أثر هزيمته أمام الفرنجة فى وقعة سواسون عام ٤٨٦م والتجـــأ إلى الاريك الثانى ، لم يسع الملك القوطى إلا أن سلم من التجأ إليه إلى عدوه ، فمهد بهذا التصرف الدنىء ، السبيل لأن يصبح القوط وجها لوجه مع الفرنجة الأقوياء بعـــد زوال الولاية الرومانية الأخيرة من بلاد الغال ، تلك الولاية التى كان يمكن أن تقوم دولة حاجزة بين القوط والفرنجة ، ومن ناحية أخرى أفسح المجال إلى الفرنجة لأن يكونوا هم لا القوط الغربيون ورثة الرومان فى الغال ، بل لعل أكبر صدمة حاقت بأمبراطورية القوط الغربيين على عهد ألاريك الثانى هى اعتناق الملك الفرنجى للمسيحية الكاثوليكية مما فصله عن زمرة الجرمان الأريوسيين فصلا روحيا عميقا فضلا عن بعد أثره فى مستقبل الفرنجة بصفة خاصة ، فقد جاءت كثلكة كلوفس وقومه ضربة لازب فى ذلك الوقت الذى اشتد فيه العداء

---

(١) Deanesly, pp 29 - 30; Lot, p. 157; Noss, pp. 62 - 3

(٢) Halphen, pp. 40-41; Lot, pp. 122 - 143; Leci , pp, 241 - 32

بين الرعايا الرومان وحكامهم من الجرمان ، رحّب أولئك الرعايا بتحول الفرنجة إلى المسيحية الكاثوليكية ، فضاقت الشقة التى تفصل بين الرعية والحاكم ، وهذا ما ساعد على دوام ملك الفرنجة دون غيرهم من العناصر الجرمانية [١] .

وفعلا بدأ كلوفس حركته التوسعية ضد القوط الغربيين واتخذت حربه ضدهم صفة دينية عام ٥٠٧ م ومهد لذلك بمفاوضات مع امبراطور الشرق أنسطاسى (٥١٨ م) وعقد حلفا مع البرجنديين الذين وكل إليهم مهاجمة منطقة أوفرنى على حين تولى كلوفس قيادة الجيش الأساسى وعبر نهر اللوار متوجها نحو بواتييه ، ومما يذكر لأهل أوفرنى، استبسالهم فى الدفاع عنها بجانب حكامهم القوط ، على أن الوقعة الفاصلة دارت فى ڤوييه (Vouglé) [٢] عام ٥٠٧ م حيث انهزم القوط وقتل ألاريك الثانى [٣] . ثم التقت الجيوش المتحالفة من الفرنجة والبرجنديين واشتركت معاً فى الاستيلاء على العاصمة تولوز وإحراقها بعد نهبها ، وكان من بين المنهوبات ما عرف باسم « كنز القوط » ويتكون من الأسلاب التى كان ألاريك الأول قد استولى عليها يوم نهب روما عام ٤١٠ م ، وتابع كلوفس فتوحه فى بلاد القوط الغالية ، واستولى على أشهر مدن أكوتانيا وهى انجوليم وبوردو وأخيراً على تور ، وفى نفس الوقت قام ثيودريك أكبر أبناء كلوفس بتخريب القرى القوطية ، وبهذا الانتصار أصبح كلوفس على كل مايعرف بفرنسا الحديثة باستثناء بروفانس القوطية والرون البرجندية [٤] ، على أن كلوفس لم يستطع القضاء التام على القوط ، وإن قضى على مملكتهم فى تولوز ، ويرجع

---

(١) Deanesly, pp. 96 - 7

(٢) تقع مدينة ڤوييه على بعد أميال قليلة جنوب بواتييه (أنظر الخريطة) .

(٣) Lav. et Ramb , 1, pp. 122 - 23; C. med. H. II, 160

(٤) Deanesly, pp 97 - 8; Locl., p. 234; Eyre, p 45

هذا إلى المساعدة التى ظفروا بها من جانب ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا[(١)].

كان لألاريك الثانى ولد لم يتجاوز الخامسة من عمره ، نجا من معركة فوييه ، ذلك هو أماريك (Amalaric) ورغم أنه الوارث الشرعى لأبيه ، إلا أنه لم يل العرش مباشرة بعد مقتل أبيه ، بل حكم بدلا منه جيسالك (Gesalech) لمدة أربع سنوات (٥٠٧ـ٥١١ م) وهو ابن غير شرعى لألاريك الثاني ثم تولى أماريك عرش أبيه بوصاية الكونت تيوديس (Theudis) وهو قوطى شرقى من أتباع ثيودو يك العظيم ، وكان ثيودريك قد تبنى حماية القوط الغربيين منذ هزيمتهم فى فوييه ، ولاسيما وأن ابنته كانت متزوجة من ألاريك الثاني وابنها أماريك الذى ولى العرش بمساعدة جده[(٢)]، ومن ثم كان ثيودريك هو الحاكم الفعلى لدولة القوط الغربيين ، وبذل القوط الشرقيون المساعدة الصادقة لأشقائهم الغربيين ، وبفضل هذه المساعدة انتصر الغربيون على الفرنجة فى وقعة آرل عام ٥١١ م وهى مدينة حصينة ذات موقع استراتيجى هام ، وبهذا النصر انفتح الطريق أمام القوط الغربيين لاتخاذ ناربون (Narbonne) عاصمة لهم بعد تولوز ، غير أن استقرار القوط فى غاله وبقاء ملكهم فيها ، أضحى أمراً غير مضمون بعد وفاة ثيودريك عام ٥٢٦م ، إذ غدا أماريك منحوس الطالع ، واكتنفته الأخطار من كل جانب ، أراد أماريك أن يضمن جانب الفرنجة أقوى أعدائه بربط بيته بالبيت الفرنجى بالمصاهرات السياسية ، فتزوج من كلوتيلدا (Chlotilda) ابنة كلوفس ، وحاول إغراءها لاعتناق الأريوسية ، فلما أبت أساء معاملتها مما حمل أخاها شلدبرت (Childbert) حاكم باريس ، على العمل للانتقام لأخته فغزا منطقة سبتمانيا القوطية ونهبها عام

(١) Bradley, p. 125

(٢) Eyre, p. 30

٥٣١ م ، وهزم أماريك فى عاصمته فى نفس العام وخلص أخته ، وحينئذ هرب أماريك إلى برشلونة مركز أملاكه الأسبانية ، وهناك قتل على يد أتباعه فى كنيسة برشلونة بأمر تيوديس [١].

وبمقتل أماريك إنقرض فرع أسرة الشجعان (Balts) ومن ثم تولى الكونت تيوديس عرش القوط الغربيين (٥٣١—٥٤٨ م) وهو كما وضح سابقا قائد قوطى شرقى ، ويدل وصوله إلى الحكم فى دولة القوط الغربيين وبقاؤه فيه هذه الفترة الطويلة ، على بقاء صلة القرابة والنسب بين فرعى القوط ، ولم يكن لدى القوط الغربيين فى ذلك الوقت أى أمل فى الحصول على مساعدة من جانب القوط الشرقيين لضعفهم وانحطاطهم بعد موت ثيودريك واستهدافهم لمطامع جستنيان [٢].

وعهد تيوديس بارز فى تاريخ دولة القوط الغربيين ، لأنه يؤرخ لانتقالهم الرسمى من غاليا واستقرارهم فى أملاكهم الأسبانية حيث صارت برشلونة عاصمة الدولة القوطية ، وهو لذلك أول ملك على القوط الغربيين يتخذ عاصمته فى الأرض الأسبانية كما كان آتولف أول ملك قوطى يدخل أسبانيا من قبل [٣] وكان متزوجاً من أسبانية تملك ثروة ضخمة ، ورغم اتجاهه إلى الإصلاح الداخلى إلا أن مشاكله الخارجية قد شغلته طوال حياته بسبب مغامرات أبناء كلوفس [٤].

على أن القوط الغربيين ظلوا يمتلكون بعض البلاد الغالية وهى : نيم (Nemes) بيزيى (Béziers) ، وكاركاسون (Carcassonne) ولم يكد يحل عام ٥٣٢ م حتى قام ولدا كلوفس وهما : شلدبرت الأول وكلوتير الثانى

---

(١) Deanesly, p. 98; Baadley, pp. 315-17

(٢) Deanesly, p. 98; Lot, pp. 149 - 150

(٣) أنظر ما سبق ص ٨٦ .

(٤) Lecl., p. 249

(Clotaire II) بشن الحرب على القوط فى البقية الباقية من أملاكهم الغالية واستطاعا الاستيلاء على بيزيى ، وفى السنة التالية اخترق الجيش الفرنجى جبال البرانس ونقل الحرب إلى نافار وأرجونه واستولى على بامبلونه (pompelune) ثم حاصر سرقوسه فامتنعت عليه وتلا ذلك هزيمة ساحقة للفرنجة بفضل شجاعة ومقدرة ثيودجسيل (Theudegesil) ابن الملك تيوديس ، فوقف بذلك تقدمهم فى الأراضى القوطية الأسبانية وأكمل الفرنجة استيلاءهم على منطقة بروفانس باستثناء شريط ساحلى ضيق[١]. وأراد تيوديس أن يعوض ما فقده فى غاله بالتوسع فى الساحل الأفريقى المقابل حيث التمس العون من الوندال ، وفعلا استولى على قلعة سوتا (Ceuta) من الأمبراطورية الشرقية عام ٥٤٣ م ولكنه لم يستطع المحافظة عليها ثم مات مقتولا فى أشبيلية عام ٥٤٨ م ، ولم يحكم وريثه وخليفته ثيودجسيل قاهر الفرنجة ، سوى عام واحد (٥٤٨ ـ ٥٤٩ م) إذ لقى مصرعه كأبيه من قبله[٢] .

وأبرز ما يميز عهد أجيلا (Agila) (٥٤٩ ـ ٥٥٤ م) ، الذى انتخبته الأرستقراطية القوطية خلفاً لابن تيوديس ، هو ذلك المنحى الجديد فى السياسة القوطية ، أملاه عليه الوضع الزمنى القائم ومنطق الأحداث ، وكذلك الوضع الجغرافى لدولة القوط الغربيين ، ويتلخص هذا المنحى فى التنازل رسميا عما تمسك به القوط من قبل فى حكم الغاليين وتركيز سياسة القوط ونشاطهم فى أسبانيا بصفة أساسية مع المحافظة على منطقة سبتمانيا التى بقيت لهم فى غاله . رأى أجيلا ، بثاقب نظره ، أنه طالما كان القوط يحكمون من تولوز ، ثم ناربون ثم برشلونة التى تقع فى الطرف الشمالى الشرقى فى أسبانيا ، فإن سلطتهم تكاد تكون

---

(١) Eyre, p. 50.

(٢) Bradley, p. 318; Lecl., pp 249 - 51; Lot, p. 150

اسمية في قلب أسبانيا ، فاستلزمت السياسة الجديدة نقل العاصمة من برشلونة إلى ماردة التي تقع على نهر جواديانا (Guadiana) حتى يكون فى وضع أقرب إلى تحقيق مشاريعه الجديدة ، ومن هذا الوضع وجه همته إلى إخضاع حكام الأقاليم فى الأندلس ، وهى وإن كانت تتبع القوط ، إلا أنها عملياً مستقلة ، ولقى مقاومة عنيفة من الكاثوليك الذين ثاروا ضده فى قرطبة وهزموه وقتلوا ابنه واستولوا على ثروته ، ونظر المسيحيون إلى ما حل بالقوط باعتباره عقابا من الله بسبب اعتدائهم على قبر القديس أكسكل (Acisclo) القائم عند مدخل قرطبة (١) .

على أن السخط العام الذى اقترن بحكم أجيلا بسبب هزيمته ، قد أثار نبيلا قوطياً منافساً له وهو أثاناجلد (Atanagild) . استعان هذا النبيل ضد غريمه ، بالإمبراطور جستنيان ، ولما كانت حروب جستنيان فى إيطاليا ضد القوط الشرقيين فى غير صالح بيزنطة بسبب ما تكبدته من خسائر فادحة (٢) ، وأن جستنيان يعمل على إعادة الإمبراطورية الرومانية بحدودها القديمة ، فقد أسرع ملبياً نداء النبيل القوطى ، وأرسل له جيشاً بقيادة ليبريوس (Liberuis) أحد عظماء قواده . كما أرسل أسطولا صغيراً من صقلية ، ورغم كفاءة ليبريوس فإنه لم يكن من طراز بلزاريوس أو نارسس ، جاءت جيوش بيزنطة إلى أسبانيا وهدفها الفعلى تحقيق المصالح الإمبراطورية لا القوطية ، فاستولت على المنطقة الجنوبية الشرقية وأهم مدنها ، قرطاجنة وملقة (Malaga) وقرطبة وأسيدونا (Assidona) وغيرها ولم يجد البيزنطيون فى فتوحهم هذه عقبات تذكر ، لأن أغلب السكان من الكاثوليك وبفضل مساعدة الجيش البيزنطى انتصر أثاناجيلد على منافسه قرب أشبيلية . فتقهقر أجيلا إلى عاصمته حيث قتله أتباعه قام ٥٥٤ م (٣) .

---

(١) Lecl., p. 251; Lot, p. 150

(٢) أنظر فشر (نفسه) ص ٤٨ — ٥٠ .

(٣) Halphen, pp. 102 - 301 ; Oman, p. 133; Moss, p 100; Lecl., pp. 251-52; Deanesly, d, 99 ; Bury, II, pp. 286 - 28

تولى أثاناجيلد العرش (٥٥٤ — ٥٦٧ م) وهو من أقدر حكام القوط خلال القرن السادس الميلادى ، غير أنه دفع ثمن عرشه بفقده ولاية بايتيكا (Baetica) — وهى الأندلس — وجزء من ولاية قرطاجنة ، فقد عادت هذه كلها إلى حكم الرومان الذين ولوا عليها عاملا رومانياً بلقب الحاكم العسكرى لأسبانيا (Magister Militum Spaniae) وكان من نتيجة هذا أن نقل أثاناجيلد عاصمة ملكه من ماردة فى الجنوب إلى طليطلة [١] شمالها ، وهى فى قلب أسبانيا فى موقع متوسط يمكن القوط من سهولة الإشراف على أملاكهم فضلا عن سهولة التوسع ، وجاء اختياره لها فى غاية التوفيق [٢] .

وربما كان أثاناجيلد قد اعترف بسيادة بيزنطة لأن النقود التى سكها كانت تحمل صورة الإمبراطور ، ومع ذلك فإن عهده امتاز بالعمل على إصلاح الغلطة التى أدت به إلى طلب المساعدة من البيزنطيين ضد منافسه أجيلا ، أما نتائج هذا العمل فلم تظهر إلى فى عهدى سيسبت وسونتلا فيما بعد [٣] . أما علاقته بالفرنجة فدلت على أنه لم يشاطر بعض أسلافه خطة العداء معهم ، بل عمل على محالفتهم ودعّم هذا التحالف بالمصاهرات السياسية حين زوج إبنته الجميلة العبقرية برونهلد (Brunhilde) ، عام ٥٦٦ م من سيجبرت (Sigebrt) ملك استراسيا ، وازداد نفوذ سحرها وجمالها على زوجها بسبب اعتناقها الكاثوليكية ، وعملت من ناحيتها على تزويج أختها جالسونثا (Galswintha) من أخى زوجها وهو شلبرك (Chilpéric) ملك سواسون ، ولم تلبث هذه الأخت الأخرى أن تحولت

---

(١) طليطلة مدينة صغيرة وهى قديمة عرفها الرومان باسم (Toleteum) حين استولوا عليها عام ١٩٢ ق.م ، وعرفت هذه المدينة التى نمت وازدهرت على عهد بنى أمية باسم « الثغر الأدنى » (الحلل السندسية ص ٣٦٣ ، نفح الطيب ج١ ص ٧٧) .

(٢) C. med. H. II, pp, 163-4; Lot, p. 150; Oman, p. 134; Lynch, p.26

(٣) أنظر ما يلى ص ١٠٧ — ١٠٨ .

إلى الكاثوليكية ، ولم يعرف أبوها شيئاً عن هذا التحول ، والمعروف أن الفرنجة رحبوا بهذه المصاهرة بل رأوا فيها تشريفاً لهم نظراً لما بلغه بلاط طليطلة من فخامة وروعة وقوة فاقت بلاط الفرنجة ، وإنه مما يرفع من أقدارهم الإرتباط الدموى بسادة الغال القدماء ، ونجحت سياسة أثاناجيلد فى أنها حالت دون توغل الفرنجة فى سبتمانيا القوطية فى الغال [١].

وظل حكم أثاناجيلد هادئاً ، فيما عدا مطاردته للبسقاويين إلى ناڤار فى الشمال ، ثم مات فى طليطلة عام ٥٦٧ م ميتة طبيعية ، وهو أول ملك قوطى يموت هذه الميتة منذ يوريك ، بينما قتل الخمسة الذين سبقوه [٢].

وتتميز الفترة التى تلت وفاة أثاناجيلد باشتداد النزاع الحزبى بين القوط ، فقد وجد حزبان يناقضان بعضهما البعض كل التناقض : حزب يشايع الحضارة البيزنطية (Pro-Byzantine) ، ويتشبه بها و يوالى بيزنطة ، وحزب وطنى بحت متحمس للقوطيــة (Pro-Gothic) والنزاع بين هذين الحزبين قديم يرجع إلى عهد آتولف ، اقتسم الحــكم فى هذه الفترة أخوان لأثاناجيلد هما : ليوڤا (Leova) ، ليوڤجلد (Leovgild) ورغب الأخوان صادقين فى الاكتفاء الذاتى والاستقلال التام للدولة القوطية ، ولما كان ليوڤا دوقا على ناربونه فقد انتخبه الغاليون ملــكا على الأملاك القوطية فى غالة ، غير أن كونتات أســبانيا قاوموا هذا الترشيح ورغبوا فى أن ينفرد الأخ الآخر بالحــكم ، وبعد حروب بين الأخوين اشــتركا فى الحــكم معاً [٣] ؛ ليوڤا فى الأملاك الغالية وليوڤجلد فى أسبانيا . ظل الأخوان قسيمين فى السلطة لمدة أربع سنوات حتى توفى ليوڤا عام ٥٧٢م فانفرد ليوڤجلد بالحكم وظل حتى عام ٥٨٦م [٤].

---

(١) Lecl., pp. 252 - 53; Deanesly, p. 99

(٢) Bradley, pp. 319 - 20

(٣) Oman, p. 136

(٤) Deanesly, p. 99

ومع رغبة ليوفجلد فى أن يحكم مستقلا عن النفوذ البيزنطى ، فإنه لم يلبث بعد انفراده بالحكم غير قليل حتى هجر الزى العسكرى القوطى وتوج نفسه على النسق البيزنطى لابساً زى الأباطرة البيزنطيين : الطيلسان الحريرى المقصب والحلى بالجوهر كما ضرب عملة ذهبية تذكاراً لهذا التتويج(١).

كان هدف ليوفجلد يتلخص فى بسط سلطانه التام على جميع أنحاء شبه جزيرة إيبيريا وهو هدف بعيد المرمى لا يتحقق إلا إذا تغلب على جميع العناصر المناوئة والمشاركة له فى حكم إيبيريا ، فهناك الإغريق فى جنوب أسبانيا ، وهناك البسقاويون فى الشمال ، وسلطة القوط الغربيين على السويف فى غاليسيا إسمية ، ولعل أعنف العقاب التى لم يستطع التغلب عليها هى مقاومة النبلاء الأسبان والأساقفة الكاثوليك داخل دولته وسط أسبانيا .

نجح ليوفجلد فى طرد البيزنطيين من بعض المدن التى يحتلونها مثل اسيدونيا (مدينة سيدونيا) وملقه وقرطبة عام ٥٧١/ ٥٨٢م ، ولما ثارت قرطبة عام٥٧٢م أقام فيها مذبحة كبيرة جعلتها عبرة لغيرها من المدن التى خضعت واضطهد الكاثوليك وصادر ونكل ، بحيث تعد الفترة التالية فترة مذابح وتعذيب(٢) ، وامتدت الثورات من جانب النبلاء إلى طليطلة ، وذلك فى الوقت الذى كان يحارب فيه السويف وأحلافهم من الكانتبريان بزعامة مير (Mir) ملك السويف ، وفى نفس الوقت أعلن الفرنجة الحرب على القوط وغزو اسبتمانيا كما أرسلوا أسطولا إلى غاليسيا لإثارة السويف الخاضعين للقوط ، غير أن ليوفجلد تمكن من تحطيم هذا الأسطول ، كما تمكن ابنه من رد غزوة فرنجية فى ناربونة(٣) ، واختتم ليوفجلد عهده بمطاردة الكاثوليك واضطهادهم حتى أنه

---

(١) Lecl., pp. 253 - 4

(٢) Lecl., p. 245

(٣) Deanesly, p. 100; Lot, pp. 179 - 180, Oman, pp. 135-6

أعدم ابنه[١] ، ويعد ليوفجلد من عظماء ملوك القوط الذين اقترن عهدهم بالانتصار والقوة وسعة رقعة الدولة القوطية .

أما ابنه ركارد (٥٨٦ — ٦٠١ م) فأراد أن يضع حداً للتوتر القائم بين القوط الأريوسيين وبين الرعايا الكاثوليك ، فأعلن اعتناقه للكاثوليكية عام ٥٨٧م بعد عشرة شهور فقط من ولايته للحكم ، وعمل بهذا التحول على إقامة علاقة ودية مع البابا جريجورى الأول[٢] ، واتخذ لنفسه لقب : فلافيوس العظيم (Flaviusy Glorissimus)[٣] ، ووجد هذا اللقب فى القانون الذى أصدره وأضافه إلى مجموعة القوانين التى أصدرها ألاريك الأول باسم (Breviaire)[٤] ، كما وجد فى اللوحة التذكارية التى نقشت تخليداً لتحوله إلى الكاثوليكية بكتدرائية طليطلة[٥] ، حاول ركارد أن يجعل عهده هادئاً كى يتفرغ للأخذ بمعالم الحضارة البيزنطية ووسائلها ، فخطب ود الفرنجة طالباً الزواج من أخت ملك استراسيا ولكنه رفض[٦] ، ومع هذا الرفض فقد استمر ركارد يعمل لتحقيق أهدافه السلمية فأوغل فى استعارة مظاهر الحضارة البيزنطية

---

(١) Lynch, pp 26-8, C. med. H., II, p. 168 أنظر السياسة الدينية .

(٢) Lav. et Ramb., 1, pp. 249 - 250

(٣) اتخذ ركارد هذا اللقب تشبها بالأباطرة الفلافيين (Flavian Emperors) الذين حكموا خلال النصف الأخير من القرن الأول الميلادى (٧٩ — ٩٦م) واشتهروا فى تاريخ الامبراطورية الرومانية القديمة ، وذلك بقصد زيادة التقريب بين الرعايا الرومان وحكامهم الجرمان ، ومن ملوك الجرمان الذين اتخذوا هذا اللقب (flavius) الملك أوتارس (autharis) اللومباردى، حوالى ذلك الوقت ، وكذلك قيل عن أدواكر من قبل . وكلمة (flavius) مأخوذة من لفظة (Flavus) بمعنى أشقر الشعر (Frank, pp. 444- 401; Hodgkin, 1, pp. 5-6).

(٤) انظر التشريعات القانونية فيما يلى

(٥) أنظر هذا النص فى السياسة الدينية

(٦) Bradley, pp. 331-32, Lecl., p. 279

وقرر استخدام اللغة اللاتينية فى الدواوين وفى العبادة ، كما سوى بين رعاياه من القوط والرومان .

ومنذ عهد ركارد صار ملوك القوط الغربيين على الكاثوليكية باستثناء ويترك — Witteric — (٦٠٣ — ٦١٠م) ذلك النبيل القوطى الذى ظل على أريوسيته وقتل ليوفا الثانى (٦٠١ — ٦٠٣) ابن ركارد[1] وتولى بعده ، ولكنه فشل فى إعادة الأريوسية إذا انتهت حياته بالقتل[2] ، وخلفه جوندمار (Gundemar) وهو نبيل قوطى آخر رشحه الكاثوليك (٦١٠ — ٦١٢م) فكان طبيعياً أن يعمل على تدعيم المذهب الكاثوليكى ، فهو كاثوليكى متحمس ورئيس لحزب الكنيسة ، ولم يمكث فى العرش سوى سنتين قضاها فى محاربة البسقاويين ومحاولة طرد البيزنطيين من أسبانيا ، ومات مقتولا[3] .

والذى يهمنا بصدد العمل على إزالة السيادة البيزنطية من أسبانيا ، هو خليفة جوندمار ، وهو سيسبت (Sisebut) النبيل القوطى المثقف (٦١٢ — ٦٢١) والقائد الحربى الكفء والعبقرى الممتاز ، من طراز ليوفجلد ، ثم سونثيلا . وينفرد سيسبت من بين ملوك القوط بأنه كان ذا نشاط أدبى ملحوظ[4] . حارب البسقاويين والاشتوريين الذين ثاروا ، ومن قواده البارزين فى هذه الحرب اثنان هما : رشيلا (Rechila) وسونثلا (Swinthila) ، ثم تقدم شمالا حتى عبر البرانس ، لكنه اضطر إلى العودة لمحاربة جيش بيزنطى وانتصر عليه ، فاضطر الإمبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١) الذى كان منشغلا يومئذ بالخطر

---

(١) جاء تسلسل الملوك من ليوفجلد إلى ابنه ركارد إلى حفيده ليوفا الثانى فريدا وشاذا فى سلسلة ملوك القوط الغربيين ، فهذه هى المرة الوحيدة التى ولى فيها ثلاثة ملوك من الجد إلى الحفيد .

(٢) Oman, pp. 143-221, Lecl., pp. 295-6, Deanesly, p. 103

(٣) Deanesly, p. 103, Oman, p. 222

(٤) أنظر النهضة الأدبية والفكرية

الفارسى ، إلى طلب الصلح وعقد معاهدة تنازل بمقتضاها عن الأملاك البيزنطية على الساحل فيما عدا منطقة صغيرة غربى جبل طارق [١]. وبمجرد أن وضع سيسبت يده على الموانى الساحلية ، عمل على بسط سيادته على التجارة الرائجة فيها وعلى التجار اليهود الذين يتحكمون فى التجارة ، وكانت تجارة البحر الأبيض فى قبضة اليهود السوريين والبيزنطيين ، بل إن كلمة « يهودى » كانت ترادف فى عرف الكتاب المعاصرين يومئذ كلمة « تاجر » وهؤلاء يعيشون بأعداد ضخمة فى أسبانيا ، منذ عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة [٢] .

على أن زوال سيادة بيزنطة نهائياً من أسبانيا جاء على يد الملك سوئتلا (٦٢١ — ٦٣١) الذى انتزع العرش من ركارد الثانى بن سيسبت بعد شهور قليلة من ولاية ركارد العرش ، والمعروف أن الدوق سوئتلا كان أحد قادة سيسبت البارزين فى حروب البسقاويين [٣] ، جدد سياسة البطش والقوة ضد المشكوك فى ولائهم نحو الملك حتى يتفرغ لجعل سيادة القوط على جميع أسبانيا حقيقة واقعة ، ومن ثم التفت إلى ما تبقى لبيزنطة من أملاك فى أسبانيا واستولى عليها فدخل كثير من البيزنطيين فى خدمة الجيش القوطى [٤] ، كما طرد البسقاويين إلى ما وراء البرانس عام ٦٢٤م ، بحيث أصبحت أسبانيا كلها بعد ذلك خالصة للقوط [٥] ؛ ومن أجل هذا يعتبر سوئتلا أول ملك حكم شبه الجزيرة الأسبانية كلها [٦] .

---

(١) Deanesly, p. 103, Lecl, pp, 297 - 8

(٢) Dozy, II, pp. 26 - 8, Lecl., p. 299 أنظر السياسة الدينية والمجتمع القوطى فيما يلى

(٣) هناك من الكتاب من يقول إن سوئتلا من أبناء ركارد الأول (Bradley, p. 335)

(٤) Bradley, p. 335 .

(٥) Lecl., p. 301, Deanesly, p. 104

(٦) Bradley, p. 335

ولـكى يضمن سونتلا بقاء العرش فى أسرته ، على غير ما ألفه القوط ، أشرك معه فى الحـكم ابنه ريسمر (Ricimer) وكان عمره سبع سنوات ، وزوجته ثيودورا (Theodora) ، وكذلك أشرك أخاه جيلا (Gella) وذلك على الطريقة البيزنطية[١] ، ولما لم يألف نبلاء القوط وأساقفتهم هذا الوضع ، وهؤلاء وأولئك أصحاب السلطة الحقيقية فى دولة القوط ، فقد اعترضوا على هذا التدبير وأصروا على بقاء الملـكية القوطية انتخابية فى أيديهم ولا سيما وأن سونتلا كان كريهاً لطبقة النبلاء بسبب ميوله الشعبية إذ رعى طبقة صغار الملاك الأحرار من القوط الذين كانوا ينقرضون بالتدريج نتيجـة لارتمائهم فى أحضان جيرانهم الأقوياء على النحو الالجائى الأقطاعى[٢] ، حتى أنه لقب من أجل هذه الرعاية ولـكثرة أعمال البر التى قام بها : « أبى الفقراء »[٣] ، والواقع إن سونتلا كان يرمى من وراء سياسته هذه إلى الحد من نفوذ النبلاء والأساقفة[٤] . لم يسع النبلاء إلا أن ثاروا بزعامة سيسناند (Sisenand) عام ٦٢٩م حاكم سبتمانيا القوطى ، استعان الثائرون بالفرنجة نظير اعطائهم أثمن شىء فى خزانة القوط وهو « وعاء أو منضدة ذهبية صناعة رومانية مطعمة بالجوهر وتزن ٥٠٠ رطل وهذه كانت نصيب القوط من الغنائم التى استولوا عليها مع الرومان من أتيلا ملك الهون منذ عام ٤٥١م على عهد ثورسمند . نجح سيسناند

---

(١) ابتدع الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥م) تقسيم الوظيفة الامبراطورية بين أربعة أشخاص : إثنين كل منهما بلقب اغسطس يعاونهما إثنان بلقب قيصر ، على أن يحل القيصران عل الأغسطسين ، إلا أن الحوادث فى التاريخ البيزنطى أثبتت أن هذه الطريقة فاشلة نظرا للنزاع الذى كان يحدث بين أقسام السلطة ، فقضى على هذا النظام تدريجيا حتى منذ وفاة مبتدعه (أنظر فشر (نفسه) جـ١ ص٣)

(٢) يعرف هـذا الأسلوب الاقطاعى فى المصطلح الاقطاعى باسم « الألجاء » — (Feudalisation) (بحث للمؤلف عن النظام الإقطاعى المقارن تحت الطبع) .

(٣) Oman, pp. 223 - 24

(٤) Bradley, p 335

فى طرد سونتلا بمساعدة الفرنجة وتولى العرش مكانه عام ٦٣١م وتوج فى سرقوسة ، ثم قرر مجلس طليطلة الرابع الذى انعقد فى عام ٦٣٣ م كتدرائية القديسة ليوكادى حرمان سونتلا وأسرته من ولاية العرش ، وأعلن أن الملكية انتخابية فى يد النبلاء والأساقفة[١] .

ولما أراد الملك القوطى الجديد أن يفى بوعده وأعطى سفراء داجوبرت ملك الفرنجة هذه التحفة الثمينة ، عز على كونتات القوط أن يخرج هذا الكنز من بلادهم وصمموا على الحيلولة دون رجوعه ، وحينئذ اضطر سيسناند إلى إرسال مبلغ ضخم من المال يقدر بنحو ١٤٠ ألف جنيه استرلينى كبديل لما اتفق عليه[٢] ، ونظراً لأن سيسناند هو مرشح مجلس طليطلة ، فقد ظل حكمه هادئاً .

وبعد وفاته عام ٦٣٦م انتخب المجلس شنتلا أو كنتلا (Chintila) (٦٣٦ — ٦٤٠ م) وهو أخو الملك المتوفى[٣] ، ومن الطبيعى أن يكون مرشح المجلس أداة طيعة فى يده ، وقد أثبت شنتلا هذه الحقيقة ، إذ كان دائماً عند حسن ظن المجلس به ولا سيما الأساقفة من أعضائه[٤] .

والواقع إن سلطة الأساقفة فى ذلك الوقت كانت قد ازدادت وطغت على سلطة أقرانهم من النبلاء المدنيين ، مما أثار الحقد فى نفوس المدنيين وعوّلوا على التكتل معاً وتنظيم صفوفهم لمقاومة نفوذ رجال الدين ، والعمل على اتباع سياسة قومية أكثر نفعاً لبلادهم[٥] ، فلما شعروا بقوتهم فى عام ٦٤٢ م أعلنوا فى المجلس مرشحاً جديداً هو شنداسونث (Chindaswinth) وطردوا توجلا (Tugla) ابن

---

(١) Deanesly, p. 104, Lecl, pp. 299 - 306

(٢) Oman, pp. 224-25

(٣) Lecl, pp. 310 - 12

(٤) Bradley, p. 338

(٥) Deanesly, p. 134

شنتلا وألجأوه إلى الدير[١]، على أن الملك الجديد ما كاد يتربع على العرش حتى أشرك إبنه ركسونث فى الحكم ٦٤٦ م وبدا حكماً إرهابياً للضرب على أيدى النبلاء لكى لا يكون العرش ألعوبة فى أيديهم فقضى على نحو مائتين منهم بالقتل والنفى والاسترقاق ومصادرة الثروة ، كما قضى على نحو ٥٠٠ من الطبقة الوسطى ، وهربت عائلات هؤلاء النبلاء كما هرب عدد من رجال الدين ، ومن ثم دعا مجلس طليطلة السابع للانعقاد عام ٦٤٦ م لإقرار الأحكام التى أصدرها ونفذها ، فلم يعترض أحد [٢].

و بعد هذا العنف الذى استهل به حكمه عاد إلى الهدوء واللين بدليل أنه استطاع أن يتفرغ لشن بعض الحملات الحربية ضد البسقاويين الذين لم يكفوا عن غزو أسبانيا ، ثم منح الكنائس كثيراً من العطايا [٣] ، وبعد سبع سنوات من الحكم تقدم الأساقفة بإلتماس له ليتنازل عن العرش لإبنه ركسونث ، وربما كان هذا بإيعاز منه ، خشية قيام ثورات عند وفاته ، وليضمن العرش لإبنه ، فرحب بهذه الفكرة وتوج إبنه عام ٦٤٩ م بحضور النبلاء ورجال الدين ، وقضى شندسونث بقية حياته فى أعمال البر حتى توفى عام ٦٥٣م فانفرد إبنه بالحكم (٦٥٣ — ٦٧٢)[٤].

وربما كانت الخطوة الهامة المكملة فى سياسة التقريب بين القوط والرعايا الرومان بعد اعتناق القوط الكاثوليكية منذ عهد ركارد الأول ، هى ما اتخذه الملك ركسونث فى السنة الثانية من حكمه ، إذ أصدر مجموعة من القوانين أباح

---

(١) Lecl, p. 313, Oman, p. 225

(٢) Lecl, pp. 314 - 15, Omon, p. 226

(٣) Lecl, p. 316, Oman, p. 227, Deanesly, pp. 104 - 5

(٤) Bradley, p. 339

فيها الاختلاط بين العنصرين القوطي والروماني ، ذلك الإختلاط الذى كان محرماً بمقتضى قوانين ألاريك الثاني[١] .

وآخر ملك عظيم فى سلسلة ملوك القوط الغربيين هو الملك وامبا (Wamba) (٦٧٢–٦٨٠ م) فقد كان الملوك الأربعة الذين خلفوه ، والذين اختتم بهم تاريخ القوط كدولة ذات كيان سياسى غير قادرين على حماية دولتهم نظرا لازدياد الأخطار من الخارج وازدياد التفكك الداخلى .

أما وامبا فقد كان طاعنا فى السن ، ورفض فى أول الأمر تحمل أعباء العرش القوطى حين عرضه عليه النبلاء ، وكانوا حول فراش الملك السابق ركسونث حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة فى بلد الوليد[٢] (Valladolid) فأشار عليهم بانتخاب شاب يستطيع تحمل أعباء الملك ، وتمسك بالرفض حتى انبرى أحد ضباط القصر وأخرج حربته وأشهرها فى وجه وامبا صائحا : « وامبا ! لن تغادر هذه الغرفة إلا ميتا أو ملكا » ، ولما أيده الحاضرون لم يسع وامبا إلا القبول[٣] ، ويقال إن أحد أعضاء المجلس صاح « وامبا الملك ، هو وليس غيره » (Wamba Roi, Lui et nul autre) ؛ ورددت الجماهير هذه العبارة التى سمعتها فقبل وامبا الملك ، ومن ثم دخل طليطلة حيث أقيم حفل التتويج[٤] .

واجهت وامبا ثورة قام بها الدريك (Ilderic) النبيل القوطى حاكم نيم فى غاليا ، وقد ساعده أسقف ماجولون (Maguelonne) واليهود الذين هربوا من أسبانيا ، كما استعان بالفرنجة وأثار البسقاويين ، ولما احتج أسقف نيم

---

(١) Oeanesly, p. 105 أنظر التشريعات القانونية .

(٢) (Valladolid) أطلق عليها العرب بلد الوالى ثم حرفت إلى بلد الوليد ولا علاقة لهذه التسمية بشخصية تسمى الوليد أو غيره . (الحلل السندسية س ٢٣٨) .

(٣) Bradley, p. 343

(٤) Leci, pp. 335-6

على سلوك الثائر قيده فى السلاسل وعزله وعين مكانه رانيمر (Ranimer) أحد رؤساء الأديرة .

كان وامبا حينئذ فى منطقة كانتبريان يجهز لحملة ضد البسقاويين الأعداء التقليديين لملوك القوط ، فأرسل لإخماد الثائر حملة بقيادة الكونت بولص (Palaus) ، وهو إغريقى خائن ، ممن خدموا فى الجيش القوطى على أثر زوال السيادة البيزنطية من أسبانيا ، غير أن بولص انضم إلى الثائرين فاختاروه ملكا عليهم ٦٧٣ م ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت الأجزاء الشمالية الشرقية من المملكة القوطية فى قبضة الثائر ، أخذ الثائر لقب ملك الشرق وترك لوامبا لقب ملك الوسط (Roi du midi) وتوج بولص فى ناربون ، لم يسع وامبا إلا الخروج بحملة قوية اخترق بها بلاد الثائر واستولى عليها واحدة بعد أخرى وانتصر على الخائن وقبض عليه وجىء به مشدوداً من شعره إلى جوادين إلى معسكر وامبا حيث وعده الملك بعدم القتل[١] ، وكان من بين المقبوض عليهم أسقف قوطى وقسيس رومانى ، ١٧ كونتا قوطيا و ٧ كونتات من الرومان[٢] ، شهر بهؤلاء فى شوارع طليطلة بعد خلع شعور لحاهم ورؤسهم وأمامهم بولص وعلى رأسه تاج من جلد[٣] ، وحوكم الثائرون فى طليطلة أمام مجلس عسكرى برئاسة الملك وعضوية كبار الضباط وقررت المحكمة إدانتهم بعد اعترافهم بالجريمة ثم طلبت إعدامهم ، ومصادرة أموالهم ، ولكن الملك احتفظ بوعده لبولص ، وقرر استبدال الإعدام بالسجن مع زملائه طوال حياتهم[٤] .

---

(١) Oman, pp 228-30

(٢) Bradley, p. 344

(٣) Lynch, pp. 39 - 40

(٤) Lecl., pp. 337-8; Bradley, pp. 347-8; Deanesly, pp. 105-6

ولما أحس وامبا بضعف الروح الحربية عند القوط ، أصدر قانونا جديدا يقضى فيه بتعميم الخدمة العسكرية فى وقت الحرب ، فليس من الضرورى أن تقتصر على الأحرار ، كما كان الشأن سابقا ، ولذلك جند الرقيق كغيرهم سواء بسواء ، كما أنه لم يعف رجال الدين من جميع الرتب ، من هذه الخدمة[١] ، غير أن هذا الإجراء وإن جاء متأخرا ، إلا أن دلالته بالغة على ما آل إليه أمر القوط من ضعف أواخر عهد وامبا ومحاولة هذا الملك الإصلاح .

---

(١) Bradley, p. 348

الفصل الرابع

نهاية دولة القـــوط الغربيين

تعقد مشاكل أسبانيا القوطية — ضعف الروح العسكرية — ضعف الملوك من بعد وامبا إرفيج ومؤامرة وصوله إلى العرش — شدة وطأته على اليهود — اجيكا وتآمر اليهود — وتيزا والهدء النسبى — لوذريق وانقسام المجتمع القوطى — ظهور العرب والفتح العربى وإزالة دولة القوط ٩٢هـ (٧١١م) — أسباب سقوط القوط الغربيين — مدى سيادة العرب على أسبانيا القوطية — مصير العنصر القوطى فى التاريخ .

تقدر الفترة التى تلت وفاة وامبا بواحد وثلاثين عاما ، ولى العرش خلالها أربعة ملوك ، وليس فى عهود هؤلاء الأربعة ما يستحق الذكر سوى بروز مشكلات أسبانيا القوطية ، والمساوىء الكامنة فى نظام الحكم فيها . حقيقة ليست هذه المساوىء جديدة على هذه الفترة الأخيرة من تاريخ القوط الغربيين ، ولكنها مع إزمانها لم تستطع أن تجد لها علاجاً أو حتى مسكناً مؤقتاً ، لافتقارها إلى ملك أو حاكم من طراز وامبا أو ليوفجلد أو ركارد الأول أو غيرهم من الحكام الأقوياء .

ويمكن تلخيص هذه المساوىء فى النزاع المستمر على العرش وقيام المؤامرات ومشكلة توحيد العناصر الخاضعة للقوط والتأليف بينها ؛ وضحت هذه بصفة خاصة أواخر القرن السابع الميلادى ، ويبدو أن العلاج الناجع لها بدا يظهر من الخارج وليس من الداخل ، حين بدا خطر العرب يلوح فى الأفق . استولى العرب على طنجة عام ٦٨٩م (٧٠ هـ) ، وصحب هـذا استيلاؤهم على

مرطانية ، وكان ينبغى أن يكون هذا نذيراً لإسبانية القوطية ، ولكنها كانت فى شغل بهذه المساوىء التى مزقتها[١] . ثم إن أسطولا عربياً هدد سواحل أسبانيا رغم وجود الحاميات القوطية ، غير أن القوط بعد هذه الإقامة الطويلة فى أسبانيا ، وتقدر بنحو ثلاثة قرون تقريباً ، ثم ما تخلل هذه الفترة من حروب داخلية ونزاع دموى ، سواء أكان بين القوط أنفسهم أو بينهم و بين البيزنطيين أو رعاياهم من السويف أو غيرهم من البسقاويين ، أدى كل هذا إلى ملل القوط الحياة الحربية العنيفة ، ففدوا أقل استعداداً لخوض غمار حرب طويلة ، وازداد ضعف الروح العسكرية بينهم ، وكان المبدأ فى الخدمة العسكرية أن جميع الأحرار من الرومان والقوط والسويف مكلفون بالخدمة الحربية ، ولكن كثيراً من رجال الجيش قد هجره ولجأ إلى الانخراط فى سلك رجال الدين فراراً من الخدمة العسكرية ، وهذا ما حدا بالملك وامبا إلى تعميم الخدمة الحربية[٢] ، وعلى الأقل وقت الحرب ، وألغى جميع الإعفاءات القديمة الخاصة برجال الدين ، كما فرض على كبار الملاك بأن يجندوا و يسلحوا عشر من عندهم من العبيد[٣] ، ونظراً لضعف الروح العسكرية بدا مثل هذا الإجراء شاذاً فى مجتمع نسى حياته الحربية الأولى ، وأخذ الترف منه كل مأخذ مما يحقق ما قرره فيلسوف مؤرخى العرب ابن خلدون من أن الدول تهزم إذا ما ركنت إلى الدعة والترف[٤] . ومع ذلك فلم ينفذ هذا القانون على رجال الدين، إذ أن الملك ارفيج (Flavius Ervigius) (٦٨٠ — ٦٨٧ م) رفضه عند ولايته للعرش .

وليس غريباً أن يسلك ارفيج هذا المسلك ، إذا علمنا أنه كان واقعاً تحت سيطرة جوليان المستهتر[٥] وهو رئيس أساقفة العاصمة وأبرز شخصية معاصرة فى

(١) مؤنس : ص١٩١ — ١٩٢، ٢١٧ — ٢١٨؛ Diehl : L'Afrique Byzantine, pp 587-88; Lot, p.187

(٢) Bradley, p. 348; Lot, pp. 186 - 7

(٣) Dozy, II, pp. 29 - 30

(٤) المقدمة ص ١٨٦ وما يليها .

(٥) Oman, p. 231

ذلك الوقت ، كما كان طاغية الكنيسة والدولة معاً ، ثم إن جوليان قد اشترك فى المؤامرة التى أدت إلى عزل وامبا عن عرشه ، وتولية إرفيج مكانه ، ويذكر بصدد هذه المؤامرة أن إرفيج سقى وامبا مادة مخدرة أدت إلى غيبوبته فترة من الوقت حتى ظن المحيطون به أنه مات ، وتبعاً للتقاليد السائدة فى المجتمع القوطى ، يدثر الميت فى ثياب راهب ويحلق رأسه للاعتقاد بأن من يموت وهو فى ثياب دينية يكتب له الخلاص فى الحياة الأخرى ، غير أن وامبا أفاق من هذه الغيبوبة ، ولما علم بما حدث له ، قال : إنه تبعاً للقانون القوطى ، لا يعد يصلح للحكم ما دام قد تدثر بهذه الثياب ، ووقع وثيقة تنازله عن العرش ، وتولى إرفيج من بعده عام ٦٨٠ م وتوّجه جوليان ، ثم انزوى وامبا فى دير بقية حياته[(١)] ، ومع ذلك فإن ولاية إرفيج اعتبرت غير قانونية فضلا عن أنه ليس من دم قوطى نقى ، فهو وإن كانت أمه قوطية ، إلا أن أباه إغريقى من أصل فارسى[(٢)] .

وأبرز ما يميز عهد إرفيج هو تلك القرارات التى أصدرها مجلس طليطلة الثانى عشر الذى عقد فى مطلع حكمه برئاسة جوليان عام ٦٨١ م . وتعد هذه القرارات أخطر ما صدر ضد اليهود[(٣)] ، ومما زاد فى خطورتها أنها جاءت فى وقت غير مناسب ، ومن القرارات التى أصدرها هذا المجلس قانون ضد عودة وامبا إلى السلطة ، كما أنه أعاد القانون الذى كان قد أصدره وامبا سابقاً ضد العصاة والهاربين من الجندية .

ولم تكن الأحوال على عهد خليفة إرفيج ، أحسن منها على عهد سلفه ، فقد ولى إجيكا (Egica) (٦٨٧ — ٧٠١ م) واستمر على سياسة سلفه فى اضطهاد اليهود ، ورغم أنه تزوج من إبنة سلفه ووعد بالمحافظة على أملاك أسرته ، فإنه

---

(١) Deanesly, p. 106; Lecl., p. 341; Bradley, pp. 38 - 9

(٢) Bradley, pp. 49 - 50; Lecl., p. 341

(٣) أنظر السياسة الدينية Lecl., pp. 342 - 3

بمجرد ولايته على العرش أخذ يبحث عن مخرج من هذا العهد الذى قطعه على نفسه، وكان طبيعياً أن يبحث عن مخرج ، فهو قبل كل شىء من أقرباء وامبا الذى انتزع إرفج منه العرش سابقاً ، ولم يكن الحل عسيراً ؛ عقد مجلس طليطلة (١٥) وتقدم إليه ملتمساً حلاً للتوفيق بين قسمين أقسمهما : أولهما الخاص بالمحافظة على عائلة سلفه وأملاكها ، والثانى ما قطعه على نفسه بعد ولايته من العمل على العدل بين جميع الرعايا . أوضح للمجلس استحالة تنفيذ القسمين ، لأنه يعلم أن أغلب ثروة إرفج قد أخذ غصباً ونهباً ، وأن إرفج فى سبيل المحافظة على تاجه استرق الكثير من النبلاء واستولى على أملاكهم ، فهؤلاء أو ورثتهم يطالبون الآن بما اغتصب منهم ، ويرى إجيكا أن قسمه الذى أقسمه عند التتويج يخول له إنصافهم ، بينما يمنعه القسم الذى كان أقسمه لإرفج من قبل .

هذه هى المشكلة التى عرضها الملك إجيكا على مجلس طليطلة ، ولكن الحل بسيط عند الأساقفة الذين سرعان ما قرروا بأن القسم للوطن يرجح أى قسم خاص ، أو يجبُّ ما قبله من أيمان خاصة ، فهو فى حل مما أقسم لإرفج ، ولذا جاءت هذه الفتوى الدعامة التى استند إليها إجيكا فى اضطهاد عائلة سلفه[1] .

ثم إن عهد إجيكا لم يخل من مؤامرات خطيرة ، دبر إحداها سيسبرت (Sisebert) ، رئيس أساقفة طليطلة بعد وفاة جوليان ، فقد حاول النبيل القوطى الذى ولى رئاسة الأسقفية ، أن يصل إلى ما وصل إليه سلفه من نفوذ ، واشتهر فى صدر حياته بالتقوى والصلاح ، لكنه سار فى طريق الدعارة والفساد بعد انتخابه رئيساً للأساقفة ، ولما لم ينجح فى الوصول الى النفوذ الذى طمع فيه نظراً لأن أجيكا كان أقوى من إرفج ، فقد دبر مؤامرة للاخلاص من إجيكا وأسرته ، وشاركه فيها اليهود وكذلك الحاقدون من النبلاء ، غير أن هذه المؤامرة لم تلبث

Bradley, pp. 353 - 4; Leci , pp. 350 - 51 Oman, p. 232 (١)

أن كشفت وعوقب المتآمرون ، كما عوقب سيسبرت بالمصادرة والنفى والحرمان من الكنيسة ، وكانت هذه القرارات بمقتضى المجلس السادس عشر الذى عقد عام ٦٩٣ م ثم عين فيلكس (Felix) أسقف أشبيلية رئيساً لأساقفة العاصمة بعد سيسبرت (١) . وربما كانت أخطر مؤامرة دبرت فى تاريخ القوط هى التى كشف عنها المجلس السابع عشر الذى عقد عام ٦٩٤ م فقد نما إلى الحكومة أن اليهود قد عملوا « على دعوة أناس من وراء البحار لحمايتهم فى أسبانيا » بعد أن سمعوا أنهم سوف يتمتعون بالحرية الدينية والتسامح التام تحت حكم المسلمين ، واشترك فى هذه المؤامرة اليهود المقيمون فى افريقية ، لذلك عدل إجيكا عن تساهله الذى افتتح به عهده ، فيما يتعلق بتنفيذ القوانين الاضطهادية التى أصدرها سلفه ضد اليهود ، و بالغ فى إيذائهم مع إبنه وقسيمه فى السلطة وتزا (Witiza) ولعل أقسى ما نزل باليهود وقتئذ هو قرار إجيكا باسترقاق جميع البالغين و بيعهم باستثناء طائفة فى ناربونه كانت أقل جرماً من غيرها ، ويقضى هذا القرار كذلك بسبى الذرارى ممن بلغ السابعة من عمره وتنشئتهم على المسيحية وتزويجهم من مسيحيات عند البلوغ ، كما حرم على السادة الذين اشتروا اليهود فك رقابهم إلا إذا عمدوا . غير أن النتيجة جاءت على عكس ما هدف إليه إجيكا ، إذ أمعن اليهود فى فى كراهة القوط وتلمس أسباب القضاء عليهم (٢) .

وبعد وفاة إجيكا ، انفرد إبنه ويتزا بالحكم (٧٠٠ – ٧٠٩ أو ٧١٠ م) وتميز عهده بالهدوء النسبى ، أو الهدوء الذى يسبق العاصفة ، فقد سمح للمنفيين بالعودة ، وصفح عن كثير من اليهود أنفسهم ، وعلى عهده عقد آخر مجلس فى طليطلة ، وهو المجلس الثامن عشر (٧٠١ م) ، ويذكر عهد ويتزا بالانتصار على أسطول إسلامى صغير ، ونظراً لندرة الانتصار الحربى من جانب القوط فى

---

(١) Lecl., pp. 352 - 3

(٢) Bradley, pp. 355 - 6; Lecl., p. 353

تلك الفترة ، فإن ويتزا أراد أن يستغله لصالح أسرته ، وأوصى بأن يخلفه إبنه من بعده ، ولـكن مجلس طليطلة قرر دعوة الدوق رودريك (Roderic) — لوذريق كما يسميه العرب — لولاية العرش — وكان يشغل وظيفة حاكم الأندلس [١] .
غير أن منافسيه على العرش أمثال أشيلا (Achilla) ابن ويتزا وأتباعه قد استمدوا العرب من أفريقية لمساعدتهم ضد رودريك ، حينئذ تكشفت أسبانيا القوطية فى آخر صحيفة من سجل تاريخها عن حزبين خطيرين هما : حزب اليهود وحزب أشيلا ، وكلاهما يتطلع للمساعدة الخارجية [٢] ، وهذا بجانب طبقة العبيد والمدنيين الذين أمضهم الفقر وعضتهم المسغبة [٣] .

وهكذا يستفتح لوذريق عهده بمعاول هدمه وهدم الدولة القوطية ، فما كاد يطلع عام ٧١١ (٩٢ هـ) حتى تعرض القوط لأخطر ما تعرضوا له فى حياتهم من غزو كاسح ، ومهما قيل فى عوامل ضعفهم وكثرة ما خاضوا من حروب سابقة ، فلم يكن هناك خطر يهدد أسبانيا بالزوال ، قبل وصول فرسان العرب إلى أفريقية [٤] . فقد نجح القوط سابقاً فى ابعاد خطر الفرنجه خلال الفترة من القرن الخامس إلى القرن السابع الميلادى ، وحافظوا على ولاية سبتمانيا فى جنوب الغال ، كما استعادوا مدينة نيم التى كان الثائر بولص قد استولى عليها بمساعدة الفرنجة ، وذلك على عهد وامبا [٥] . أما هذا الخطر الجديد فكان سريعاً وحاسماً مما أذهل الفاتحين والمغلوبين على السواء ، لم يكن هناك أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك

(١) Lecl., pp 361 - 62

(٢) Diehl, op. cit, p. 589; Lecl., p. 362; Deanesly, p. 106

(٣) Dozy, II, pp. 29 - 30

(٤) Lot, p. 187

(٥) Lecl., p. 186

بفتح أسبانيا ، وحتى طارق بن زياد حاكم مرطانية وقائده موسى بن نصير ، يحتمل أن كليهما اعتبر الحملة على أسبانيا مجرد غزو[1] .

والواقع إن الفاتحين تشجعوا بالعناصر المناوئة للقوط وأن هذه العناصر سوف تعاونهم ، ويحتمل كذلك أن لوذريق نفسه اعتبر الأمر لا يعدو حرباً داخلية بين حربين متنافسين ، كما هو المألوف فى المجتمع القوطى .

حشد طارق بن زياد قوة كبرى من الفرق الاسلامية ، ومعه طريف بن مالك النخعى وكذلك الكونت جوليان (Julien) حاكم سوتا القديم[2] . وهو أفريقى المولد كاثوليكى المذهب ، توثقت عرى الصداقة بينه و بين المسلمين الفاتحين فى أفريقية ، وليس صحيحاً ما يقال عن قصة عبث لوذريق بابنة جوليان ، فهذه أسطورة غير محققة[3] . وعبر بوغاز الزقاق ، والذى عرف به بعد ذلك (ببوغاز جبل طارق) واستولى على الجبل الذى عرف باسمه ، وتسميه العامة « جبل الفتح »[4] . وسرعان ما أخضع المدن المجاورة من غير صعوبة تذكر ، وفى ذلك الوقت كان لوذريق يحارب فى الشمال ضد الفرنجة والبسقاويين ، فلما سمع بتقدم الجيوش الإسلامية بقيادة طارق ، جمع جيشاً ضخماً وأسرع لمقابلة المسلمين ، وفى ١٩ يوليه عام ٧١١ م (رمضان ٩٢ هـ) التقى الجيشان عند شواطىء بحيرة جاندا (Janda) وكان من بين الجيش القوطى رجال من حزب أشيلا المنافس وكذلك الأسقف أوباس (Oppas) أحد أخوة وتزا الذى يسمية

---

(١) Dozy, II, p. 32

(٢) كانت سوتا (Ceuta) أو سبتة — كما يسميها العرب — تابعة لبيزنطة كجزء من كل ساحل افريقية الشمالى ، ولما عجزت بيزنطة عن حماية أملاكها فى شمال افريقية من الفتح الاسلامى ربطت سوتا نفسها بالدولة القوطية فى أسبانيا بعد أن قاومت كثيرا ضد العرب (Dozy, II, pp. 33 - 35)

(٣) Watts, p 17; Lecl, p. 363; Oman, p. 233

(٤) نفح الطيب جـ١ ص ١٠٧ .

العرب غيطشه[١] . وسيسبرت أسقف طليطلة المعزول وهو من أقرباء وتزا . ترك هـذا الفريق مواقعــة أثناء القتال[٢] . فدارت الدائرة على القوط ، واستولى المسلمون بعد ذلك على أشبيلية وقرطبة وطليطلة العاصمة ، غير أن النصر النهائى لم يكن قد تم بعد ، فإن لوذريق جمع فلول جيشه وعاد يهدد طليطلة التى اتخذها العرب عاصمة لهم ، وحينئذ طلب طارق نجدة من موسى بن نصير فأنجده بجيش استولى به على عدة مواقع مثل مارده وغيرها من المراكز الهامة ، وذلك عام ٧١٣ م . وحينما توجه المسلمون قابلهم اليهود بالترحاب والمساعدات ، ونظروا إليهم باعتبارهم أحلافا وأصدقاء[٣] . ثم لحق موسى بطارق واشترك معه فى فتح البــلاد ، وتقدم المسلمون نحو برشلونه ، وكان موسى بن نصير يعتزم اتمام فتح جميع أسبانيا ليصل من هــذا الطريق إلى القسطنطينية[٤] . وفى سبيل الوصول إلى هذا الهدف كان عليــه أن يخضع المقاومات الوطنية التى تقابله ، وكذلك مقاومة لوذريق الذى انحاز إلى الأطراف فى المناطق الجبلية على حدود غاليسيا حيث أخذ يستعد للحرب والمقاومة . تقدم موسى وقضى على جيش لوذريق فى منطقة سلمنــكة (طلمنــكة) فى سبتمبر ٧١٣ م ، ويحتمل أن لوذريق قتل فى هــذه الوقعة ، فلم يعثر على جثته[٥] . ولم يمض غير قليل حتى صارت أسبانيا كلها تقريباً خاضعة للعرب ، وأضحت ضمن الإمبراطورية الاسلامية الممتدة من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى[٦] .

---

(١) ابن خلدون جـ١ ص ٣٦٥ ؛ ابن الأثير جـ ٤ ص ١٢١ — ١٢٣ .

(٢) Watts, p. 16; Dozy, II, p. 33 - 35; Lecl , p. 369

(٣) Oman, pp. 233 - 4, Deanesly, pp. 106 - 7

(٤) نفح الطيب جـ١ ص ١٠٨ .

(٥) بعد مائة وستين عاما من هذه الوقعة عثر فى مدينة ڤيسو (Viseu) فى لوزيتانيا ، فى مقبرة إحدى الـكنائس الـكبرى ، عثر على شاهد قبر عليه هذه العباره (هنا يرقد لوذريق ملك القوط) (Hic Requiescit Rudericus Rex Gothorum) إلا أن بعض المؤرخين يشك فى صحة هذا النص ويعتبره خرافة (Lecl., pp. 364 - 5)

(٦) Lot, p. 187

استدعى الخليفة قائده موسى بن نصير لمحاسبته على الغنائم ، أما أشتيلا الذى عاون العرب فقد ردت إليه أملاكه ، وعيّن الأسقف أوباس رئيسا لاساقفة طليطلة ، ووقعت مصاهرات بين حزب أشتيلا والعرب المسلمين ، وساعد هؤلاء الأنصار على استقرار الحكم الجديد فى قرطبة التى اتخذوها عاصمة بعد طليطلة وأشبيلية[1] .

※ هكذا انتهت دولة القوط الغربيين ، ويمكن التماس أسباب تدهورها وسقوطها من تاريخ هذه الدولة ، وأول ما يطالعنا هو القلة النسبية للطبقة الحاكمة من الجرمان ، كما هو الشأن فى كل الممالك الجديدة ، باستثناء الفرنجة ، والسبب فى هذه القلة هو انقطاع سيل الدماء الجرمانية منذ استقرار القوط فى أسبانيا ، فكان ذلك من عوامل ضعفهم ، ولذا لم يستطيعوا الاحتفاظ بعرشهم إلا بقوة السيف[2] ، كما أن الخلاف العنصرى بين الحاكم والمحكوم ظل قائما حتى نهاية دولة القوط ، ولعل الخلاف المذهبى من أكبر العوامل الهادمة لا لدولة القوط الغربيين فحسب بل لغيرها من الدول الجرمانية التى اعتنقت المسيحية على المذهب الأريوسى ، حقيقة أخذ القوط الغربيون خطوة خطيرة نحو إزالة هذا الفارق باتخاذهم الكاثوليكية منذ نهاية القرن السادس الميلادى[3] ، إلا أن هذا التحول جاء متأخراً وبعد فوات الأوان ، وإن كان خطوة فى سبيل التوحيد والاندماج ، فطالما كان القوط على الأريوسية ، كانت لهم كنائسهم الخاصة وأساقفتهم الأريوسيون ، وبدا تعصبهم لمذهبهم واضحا فلم يعينوا أحداً من الأساقفة الأرثوذكس ، كأنهم لم يعينوا مواطنا أسبانيا فى منصب رفيع ، ولذا كان المواطنون يكرهون سادتهم لهرطقتهم أولا ولأنهم برابرة ثانيا وعلى

---

(١) الحلل السندسية جـ١ ص ٣٦٤ ، Deanesly, p. 107; Dozy, II, pp. 32-8

(٢) Deanesly, p. 107; Oman, p. 130

(٣) Eyre, p. 56 ، أنظر السياسة الدينية .

الأهبة للترحيب بالفرنجة أو البيزنطيين ، ثم أخذوا يعينون منهم ، ولم يحدث هذا إلا بعد التحول إلى الكاثوليكية ، ومنذ ذلك الوقت ظهر لأول مرة أسماء رومانية بين الموظفين . وأقدم مثل لهذا الدوق كلوديوس (Claudius) قائد الملك ركارد الأول ، أول ملك قوطى كاثوليكى ، إلى العرش ، ونجح هذا القائد ضد الفرنجة فى هزيمتهم عام ٥٨٩م ، أما الفترة الأولى من سيادة القوط على أسبانيا حتى عام ٥٨٧م فقد ظل الوطنيون خلالها منفصلين تماماً عن سادتهم وهذا على عكس ماحدث فى غالة الفرنجية إذ جاء الارتباط والاندماج منذ فجر العصر الميروفنجى فيها ، فعمل الأساقفة الغاليون الرومان وزراء للميروفنجيين كما عمل الكونتات الرومان الغاليون حكاماً لهم[١] ، وكذلك جاءت الخطوات الأخرى المقربة بين الحاكم والمحكوم متأخرة ، وتتمثل فى اتخاذ اللاتينية لغة رسمية والتقاليد الرومانية البيزنطية بصفة خاصة ، وهذا فضلا عن القوانين التى سنت لإزالة الفوارق الاجتماعية بين الرعايا و إباحة الاختلاط بين عنصرى القوط والأسبان الرومان ، كل ذلك و إن جاء من وسائل التقريب والاندماج وأدى إلى بعض الفائدة إلا أن وقته كان متأخراً ، حين بدأت طلائع الفتوح الإسلامية تقترب من موطن القوط الغربيين ، وظلت أسبانيا القوطية ، شأن غيرها من الدول الجرمانية لا ربط عناصرها المختلفة سوى رباط الملكية أو وحدة الحكومة أما أن ارتباطاً قومياً أو وطنياً كان يؤلف بين عناصر سكانها ، فهذا ما لم يكن له أثر[٢] ، ظل الملك كما هو يجب أن يكون قوطياً وظل يحتفظ بلقبه العنصرى حتى زوال هذه الدولة (Rex Gothorum) ولذا بقيت الملكية كريهة غير محترمة ، فالمبادىء التى تساعد على تثبيت قواعد أسرة معينة فى الحكم لم تكن عميقة الجذور فى أسبانيا ، وهذا بجانب صلف وغطرسة الأرستقراطية القوطية[٣] .

(١) Oman, p. 130

(٢) Lot, p. 184

(٣) Ibid, p. 185

ومن الأسباب الهامة فى زوال دولة القوط الغربيين ، انتهاء سلسلة الملوك من أسرة الشجعان بموت ألاريك الثانى وابنه أماليك عام ٥٣١م وهى الأسرة التى ترجعها الأساطير القوطية إلى الآلهة الجرمانية (The heaven Born Balts) ولها سمعة حربية عالية ، ومنذ ذلك الوقت أضحى العرش القوطى مثاراً للنزاع بين الأسر الاستقراطية القوطية ، ولم تنجح أى أسرة فى الاحتفاظ بالعرش فى سلالتها فترة تذكر ، وكان الوصول إلى العرش يجىء عن طريق سلسلة من المؤامرات كما هو الشأن فى بيزنطة [1] ، والفاشلون فى الوصول إلى العرش لا يكفون عن تدبير المؤامرات والانقلابات ، ولذا نجد من الأربعة والثلاثين ملكاً الذين حكموا القوط الغربيين منذ ألاريك حتى لوذريق : أربعة عشر ملكاً فقط هم الذين ماتو ميتة طبيعية ، وثلاثة فقط هم الذين قتلوا فى وقائع حربية ، والباقين بين قتيل وطريد نتيجة للثورات والمؤامرات [2] .

وأدى التنافس على العرش إلى انقسامات وحروب داخلية ، وصلت آثارها إلى الجيش القوطى مما زاد فى إضعافه وتفككه ، ويحدث فى بداية عهد كل ملك مغتصب ، عادة ، حركة تطهير ضد منافسيه دون استثناء [3] .

ونظراً لاعتماد الملكية على الارستقراطية ممثلة فى كبار رجال الدين والنبلاء ، فقد ظلت ضعيفة خائرة ، رغم بروز بعض الشخصيات أمثال : تيوديس وأثاناجلد وليوفجلد وركارد فى القرن السادس وسيسبت وشندسونث وركسونت وواميا فى القرن السابع ، وحتى الملوك المتأخرين أمثال ارفيج وأجيكا ووتزا ولوذريق ، فهؤلاء شخصيا أكفأ وأقدر من معاصريهم من الميروفنجيين فى غاليا ، إلا أن سلطة الارستقراطية وتحكم مجلس طليطلة دعامة الارستقراطية القوطية ، قد أضعفا

---

(١) Eyre, p. 56; Lot, p. 185

(٢) أنظر جدول الملوك

(٣) Lot, p. 185 ، حضارة العرب (ترجمه زعيتر) ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

من نظام الملكية بصفة عامة ، فالنظام القائم على الانتخاب ، على النحو الذى سار عليه بدولة القوط ساعد على الانقسامات لكثرة الطامعين والمتنافسين[١] ، ورغم ما لمجلس طليطلة[٢] من أهمية فعالة فى حكومة القوط إلا أنه كان مفتقراً إلى قواعد ثابتة يحكم بمقتضاها[٣] ، فهو فى أغلب الأحيان آلة فى يد الملك (Instrumentum Regni)[٤] ، ومما زاد فى ضعف الملكية بروز سلطة رجال الدين بصفة خاصة فى القرن السابع ، فقد اعتبر الأساقفة بأن السلطة الدينية (Sacerdooe) ، أسمى من الملكية بل أعلنوا هذا ، و يبدوا أن الملوك وافقوا على هذا الادعاء ، أو لم يملكوا إلا الموافقة عليه[٥] .

هذا ولم تكن الدولة القوطية مبسوطة السلطة على جميع أنحاء شبه جزيرة ايبيريا فهناك البسقاويون أو البشكنس — كما يسميهم العرب — فى منطقتهم غربى البرانس وعلى شواطىء خليج بسكاى ، هؤلاء أعداء مزمنون ومستقلون ، وقد ظل ملوك القوط يحاربونهم حتى نهاية دولة القوط لأنهم دأبوا على قرع الأملاك القوطية بالغزو والنهب فى كل فرصة تلوح لهم ، وما أكثر هذه الفرص خلال النزاع الداخلى المستمر بين المتنافسين على العرش القوطى ، كذلك توجد مملكة السويف فى أقصى الغرب فى غاليسيا ولوزيتانيا ، والمعروف أن السويف هم الغزاة التيوتون الأولون لشبه جزيرة ايبيريا ، حقيقة نجح ملوك القوط فى هزيمتهم وإخضاعهم وطردهم إلى الجبال فى الغرب لكنهم لم يتعقبوهم ، ولذا ظل ملوك السويف يحكمون من عاصمتهم فى براجا فى مملكتهم شمالى نهر

(١) Oman, p. 130

(٢) أنظر نظم الحكم

(٣) Deanesly, p 108

(٤) Lot, p. 185

(٥) Ibid.

تاجه حتى نهاية القرن السادس الميلادى[١] ، وهؤلاء وأولئك من عوامل ضعف الدولة القوطية بسبب التاعب المستمرة من جانبهم واستعدادهم دائماً للتحالف مع الفرنجة أو الأعداء الداخليين من الخارجين على الملكية القوطية أو الطامعين فيها .

أما النظام الداخلى لمملكة القوط فكان من عوامل إضعافها ، افتقرت هذه المملكة إلى سلطة مركزية قوية على مثال حكومة الفرنجة حيث ترجع كل سلطة فيها إلى الملك ، لم يغير القوط التقسيم الإدارى الذى فعله الرومان ، فظلت أسبانيا مقسمة كما هى إلى مقاطعات أو ولايات على كل مقاطعة أو ولاية دوق أو كونت وهى بنفس حدود المقاطعات الرومانية القديمة ، ولكن حكام هذه المقاطعات لم يكونوا خاضعين الخضوع التام للسلطة المركزية بخلاف ما عليه الأمر فى مملكة الفرنجة ، احتفظ كل حاكم فى أسبانيا القوطية بحرس خاص له ، وهذا على نسق ما وجد لدى القوط الشرقيين وتعرف فرقة الحرس الخاصة عند القوط الشرقيين باسم (Saines) وأحياناً تعرف باسم (Bucellarii) وكان هذا الحرس بطبيعة الحال مخلصاً لرئيسه المباشر[٢] ، ووجد أمثال هذه التشكيلات فى ولايات الإمبراطورية البيزنطية .

ثم إن الأرقاء الفلاحين من الأسبان الرومان (Hispano-Romans) الذين تقرر استخدامهم فى الحرب بأمر الملك وامبا[٣] لم يخلصوا فى الحرب دفاعاً عن طبقة الملاك الطغاة الذين أذلوهم فقد عاد الفلاحون فى العهد القوطى إلى منزلتهم القديمة فى العهد الرومانى من الاسترقاق والارتباط بالأرض ، وعلى هذه الطبقة الكادحة الذليلة اعتمد الخونة الذين تخلوا عن لوذريق خلال حركات الفتح

---

(١) Oman p. 131

(٢) Ibid.

(٣) أنظر ما سبق ص ١١٤

الإسلامى فكان النظام الإقطاعى السائد قاتلا وجائراً بحيث أدى إلى اختفاء طبقة صغار الملاك ، ولذا لم توجد طبقة وسطى (١) .

أما سكان المدن من المشتغلين بالتجارة فلم يكن لهم أى حقوق ، وكانت تجارتهم غير رائجة بسبب تحكم اليهود فيها ، فلم يعنوا بشىء سوى مصالحهم الخاصة ، ولعل الأقلية اليهودية من أهم العوامل المباشرة فى زوال دولة القوط ، فقد استهدف اليهود إلى ألوان مختلفة من الاضطهاد ، بل إن قوانين الاضطهاد كانت شغل مجلس طليطلة الشاغل فى أغلب جلساته (٢) ، ومن ثم دبر اليهود أكثر من مؤامرة ، وتطلعوا إلى القوة الإسلامية المتسامحة لتنقذهم مما هم فيه ، وساعدوا المسلمين فى الفتح ، حتى أن الفاتحين عهدوا إلى اليهود بحراسة بعض المدن فى أول الأمر عام ٧١١ م (٣) .

وبعد ، فبعض الكتاب يقول إن الفتح العربى لأسبانيا وإزالة دولة القوط ليس إلا جزاءاً وفاقاً لما ارتكبه ملوك القوط المتأخرون من جرائم ، وما هزم القوط إلا لأنهم استهانوا بالدين (٤) .

* * *

وباستيلاء العرب على أسبانيا لم يطرد القوط الغربيون منها كما طرد أشقاؤهم الشرقيون من إيطاليا قبل ذلك ، بل ظل الغربيون خاضعين لسلطان المسلمين ؛ وقد اندمج العنصران المسيحيان معاً وهم القوط والأسبان الرومان ، بجامع الكراهية فى كل نحو السيادة العربية الإسلامية الجديدة ، والأمل المشترك فى الخلاص من هذه السيادة ، وصار العنصران شعباً واحداً ، وربما

(١) Oman, pp. 132 - 234

(٢) أنظر السياسة الدينية

(٣) Dozy, II, pp. 26 - 30; Lot, pp. 185 - 6

(٤) Lecl., p. 382

كان هذا الوضع السياسى الجديد هو الذى أكمل الجهود التى بذلها ملوك القوط من قبل فى سبيل ادماج هذين العنصرين فقد كانت القوانين والتشريعات التى أصدرها القوط والسياسة القوطية العامة منذ تحول ركارد إلى الكاثوليكية واتخاذ اللاتينية لغة رسمية للدولة ، كانت هذه جميعها خطوات فى سبيل التقريب بين الحاكم والمحكوم ، ومنذ دخل العرب أسبانيا ؛ صار تاريخ القوط الغربيين هو التاريخ القومى لأسبانيا .

ورغم الاندماج ، ظل سلالة الأسبان الأصليين ، ينظرون إلى سلالة القوط نظرتهم إلى القادة والسادة الطبيعيين ، حتى أنه بعد انتصار العرب خلال عملية الفتح توجه ثيوديمر (**Theudemer**) حاكم جنوب أسبانيا من قبل لوذريق ، توجه مع مجموعة قليلة من المحاربين إلى الشاطىء الشرقى حيث دافع بقوة وشجاعة ، وسمح له العرب الفاتحون بتأسيس أمارة مسيحية خاضعة لسيادة المسلمين ، فقامت بذلك أمارة مرسيا (**Murcia**) حيث ظل ثيوديمر يحكم حتى وفاته ، وبعد ذلك ضم العرب « أرض تدمير » — كما كانوا يسمونها — إلى أملاكهم .

كذلك قامت فى أقصى الشمال الغربى ، ولاية اشتوريا المسيحية التى استطاعت أن تحتفظ باستقلالها تحت حكم سادة من القوط الغربيين ، وإلى هؤلاء السادة الحكام يعتز ملوك أسبانيا المتأخرون بالانتساب إليهم ، ويفخرون بأنهم من سلالتهم .

وخلال الثورات القومية التى انتهت أخيراً بإزالة سلطان العرب من أسبانيا ، برزت أسماء قوطية ، حتى أنه يمكن القول إن الفضل فى إنها الحكم العربى فى أسبانيا إنما يرجع إلى العنصر القوطى وإلى الفروسية التى برزت فى قشتالة ، وحتى العصر الحاضر نجد الأسر النبيلة فى أسبانيا تفتخر وتباهى بنقاء عنصرها القوطى ، وإن لم يكن هذا صحيحاً فى كل الأحوال .

على أننا إذا أردنا أن نلتمس القوط فى التاريخ الحديث كعنصر منفصل بلغته الخاصة ، لا نرى هذا العنصر فى أسبانيا ، ولكنه يوجد فى أقصى شرق أوروبا ، فمنذ نهاية القرن الرابع الميلادى، نلاحظ أنه على أثر انهيار امبراطورية أرمانريك القوطى الشرقى [١] أمام بطش الهون ، فرت طائفة من القوط الشرقيين إلى القرم حيث عاشت كعنصر مستقل ، وفى مطلع القرن الخامس الميلادى تحول أولئك القوط إلى الكاثوليكية واشترك أساقفتهم فى مجالس الكنيسة الشرقية ، وفى عام ١٥٦٢ م التقى بسبك (Busbeck) الرحالة البلجيكى فى القسطنطينية مع سفيرين من قبل هذه الدولة القوطية الصغيرة ، واستقى منهم قائمة طويلة من الكلمات القوطية كتبها عنهم ، ولو أن كثيراً من هذه الكلمات غير صحيح والبعض منها ليس قوطياً و إنما هو مستعار أو دخيل من لغات الشعوب المجاورة ، على أن هذه القائمة التى كتبها الرحالة البلجيكى تدل على أن لغة سكان شبه جزيرة القرم لا بد وأنها كانت أصلا هى اللغة التى استعملها أولفيلاس فى ترجمته القوطية للإنجيل [٢] . وحتى القرن الثامن عشر كانت القرم لا تزال تعرف باسم جوثيا (Gothia) على الأقل فى الوثائق الرسمية التى تصدر عن الكنيسة الإغريقية ، ولكن إسم جوثيا زال نهائياً كما انقرضت اللغة القوطية .

ولم يترك القوط أى أثر فى الشعوب الأوروبية المعاصرة أو المعالم الجغرافية الحديثة ، فمثلا إذا كانت الشعوب التيوتونية الأخرى العظيمة قد تركت أسماءها على أسماء الأقطار الحديثة التى فتحوها مثل فرنسا وبرجنديا ولمبارديا والأندلس ، فإن القوط لم يتركوا حتى مثل هذا الأثر الطفيف أو الشكلى .

ورغم هذا فإن التاريخ لا ينسى القوط الذين هزت عزائمهم وقوتهم

---

(١) أنظر ما سبق ص ٤٦ وما يليها

(٢) أنظر ما سبق ص ٤٤

الإمبراطورية الرومانية المتدهورة وآذنت بسقوطها ، وهم بذلك قد مهدوا السبيل لقيام حضارة أفضل على أنقاض الحضارة القديمة ، نجح القوط فى عملية الهدم للحضارة القديمة ، بينما فشلوا حينما حاولوا البناء — وقد حاولوه صادقين فعلا — ، غير أن تاريخهم الذى انتهى بمأساة زوالهم ، لم يخل من مثل عليا فى الشجاعة والبطولة والمقدرة والسياسة والتدبير ، تلك المثل التى اقترنت ببعض الشخصيات البارزة ، وهذا بجانب ما أسهموا به فى مجال التشريع والنهضة الفكرية .

الفصل الخامس

بعض مظاهر المجتمع القوطى

---

١ — نظم الحكم ٢ — السياسة الدينية
٣ — النهضة الأدبية والفكرية .

---

١ — نظم الحكم

ولاية العرش — مجلس طليطلة — التشريعات القانونية

الحكم فى دولة القوط الغربيين ملكى انتخابى ولا يليه إلا قوطى من طبقة النبلاء أو الأرستقراطية[1]، ويتفق مع النظام الجمهورى فى انعدام نظام الوراثة إلا فى حالات قليلة ، ويختلف معه من حيث اقتصار الملكية فيه على الطبقة الأرستقراطية بصفة عامة والحربية بصفة خاصه . وهو ملكى لأن الحاكم يلقب بالملك بعد أن كان فى فجر تحركهم داخل الأراضى الرومانية يلقب بالقائد وأحيانا بالملك وأحيانا بالقاضى (Judex) . والعادة أن يكون الملك قائداً عسكريا وينتخبه أتباعه المباشرون الذين يكونون مجلسا خاصا هو صاحب السلطه الفعلية ، كان هذا فى المجتمع الوثنى الجرمانى بصفة عامة والقوطى بصفة خاصة وظل على هذا النحو بعد اعتناق القوط للمسيحية وتكوين امبراطور يتهم فى غالة وأسبانيا .

---

(١) Eyre, p. 131

هذه هي القاعدة العامة في انتخاب ملوك القوط الغربيين ، وكانت مثار نزاع مستمر بين أعضاء الأرستقراطية القوطية ، والفيصل في الوصول إلى العرش واحتفاظ الملك بعرشه وظفره بالاحترام والتأييد ، هو قدرته الحربية وما يحققه من انتصارات سواء على منافسيه في الداخل أو أعداء الدولة في الخارج ، أي أن الحكم لمن غلب ، في مجتمع ألف الحروب وأعمال العنف .

هذا هو السبب الذي أدى إلى انتخاب ألاريك الأول واحترام ملكيته ، فهو بالإضافة إلى شجاعته المنقطعة النظير ، ينحدر عن أسرة عريقة عرفت بين المجتمع القوطي الغربي منذ فجر تاريخه باسم أسرة الشجعان (Balthings) ، أدت شجاعة هذه الأسرة إلى تقديسها ورفع مؤسسها الأول إلى مضاف الآلهة ، وحدث مثل هذا عند القوط الشرقيين ، حيث ظفرت أسرة معينة بالتقديس والإجلال ومنها جاء أشهر ملوكهم[1] .

لذلك لم تكن وراثة العرش أو اشراك الإبن فيه أو حتى الوصاية بشخص معين ، أمراً محترما أو معترفا به لدى القوط الغربيين ، حقيقة وقع مثل هذه الحالات ولكن على نطاق ضيق ، وجاء وقوعه أمراً شاذاً غير مألوف وفي أحوال خاصة ، فمثلا لم ينتقل العرش من الجد إلى الإبن إلى الحفيد إلا في حالتين[2] ، وفي خمس حالات لم يتعد العرش الإبن المباشر للملك ، ومع ذلك فإن هذا الإبن الوارث كان يطرد أو يقتل في أغلب هذه الحالات الخمس ، ومع وجود حالات الوراثة هذه ، كان لابد من موافقة الأساقفة والنبلاء أعضاء مجلس طليطلة وهو الأداة الحاكمة فعلا في دولة القوط .

---

(١) أنظر ص ٣٦ حاشية ١ .
(٢) أنظر جدول أسماء الملوك والملاحظات به فيما يلي ص ١٣٦ — ١٣٨ .

أما الأمر المألوف السائد فى ولاية العرش فى دولة القوط الغربيين فهو الانتخاب وقد حافظ عليه النبلاء وتشبثوا به ، وذلك هو المبدأ المقرر منذ فجر تاريخهم ، ولعل هذا المبدأ لا يخلو من أهداف شخصية أهمها إتاحة الفرصة لأعضاء الأرستقراطية لأن يصلوا إلى العرش ، ولذا كان انتقال العرش فى أغلب الأحيان يقترن بمؤامرات وحرب أهلية حتى بين الأخوة ولم يكن من بأس لدى الطامعين فى الوصول إلى العرش من الاستعانة بالخارج ولو كان فى ذلك إنقاص من رقعة المملكة أو مساس بالاستقلال .

ويشبه هذا الوضع إلى حد كبير ما كان عليه نظام ولاية العرش فى الإمبراطورية البيزنطية ، فيما عدا أن أباطرة بيزنطة المغتصبين نجحوا فى تكوين أسر امبراطورية ظفرت بالتأييد والاحترام لأعمالها أو لمجرد أعمال مؤسسها حتى كان الضعيف المنحل يرث العرش البيزنطى لا لشىء سوى احترام ذكرى أبيه أو جده[1] فقط ، كذلك قريب من هذا النظام ما عرف عن دولة المماليك فأغلبهم مغتصبون ، وإن كون القليل منهم أسراً وراثية حاكمة .

والملاحظ على الملكية القوطية أنه لم يتول العرش فيها نساء منفردات أو مشتركات باستثناء حالة واحدة أشرك فيها الملك سونتلا (٦٢١ — ٦٣١) زوجته مع ابنه وأخيه على النسق البيزنطى، ومع ذلك اعترض الأساقفة والنبلاء وأصروا على بقاء الملكية انتخابية وثاروا بزعامة سيسناند ، بل إنهم استعدوا الفرنجة الأعداء التقليديين رغم ما عرف عن سونتلا بأنه أول ملك قوطى يبسط سيادته التامة على جميع شبه جزيرة أيبيريا ، فأمر أشراك النساء أو الأبناء غير مألوف ، ولم تنجح سياسة أشراك الابن إلا فى حالتين فقط : حين خلف ركسونث (٦٥٣ — ٦٧٢) أباه بعد أن أشترك معه فى الحكم من قبل لمدة

---

(١) أنظر بنيز: الأمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور مؤنس والأستاذ زايد) ص ٣٣٩

أربع سنوات ، (٦٤٩ — ٦٥٣ م) ، وكذلك عندما انفرد وبتزا بالحكم عام ٧٠٠م بعد أن قاسم أباه اجيكا فترة ،

وهذا على عكس ما سار عليه نظام ولاية العرش عند الفرنجة من الميروفنجيين ثم الكارولنجيين فقد كان الحكم وراثيا ، وحال احترام البيت الميروفنجى من قبل الشعب دون محاولة أى نبيل الاستيلاء على العرش، وذلك لمدة ٢٥٠ سنة ، كما أن اطماع النبلاء ومنافساتهم لم تكن موجهة نحو شخص الملك أو الملكية وإنما كانت ضد بعضهم البعض للظفر بمنصب حاجب القصر (Mryor) رغم ضعف الملوك الميروفنجيين المتأخرين ، وعند الكارولنجيين الذين ورثوا الميروفنجيين ساد نظام إشراك الأبناء مع آبائهم للتدرب على الحكم ، فكان يعين الأبناء حكاماً على بعض الأقاليم فى حياة آبائهم ، أما الوندال فلم يكن لديهم قانون قوى للوراثة تحت تأثير التقاليد البيزنطية(١) .

---

(١) Deanesly, pp. 94 - 5

جدول بأسماء ملوك القوط الغربيين منذ أول الملوك البالطيين حتى نهاية الدولة القوطية

رقم مسلسل	إسم الملك	مدة الحكم	ملاحظات
١	ألاريك	٣٩٥ — ٤١٠	أول ملوك أسرة الشجعان — ماتت ميتة طبيعية
٢	آتولف	٤١٠ — ٤١٥	أخو زوجة ألاريك — قامت الدولة القوطية على عهده — تولوز العاصمة
٣	سيجريك	٤١٥	حكم أسبوعاً واحداً — قتل على يد واليا
٤	واليـــا	٤١٥ — ٤٢٠	ثانى ملوك أسرة الشجعان — مات طبيعياً دون رويث
٥	ثيودريك الاول	٤٢٠ — ٤٥١	ثالث ملوك أسرة الشجعان — قتل عام ٤٥١م فى واقعة شالون وهو يحارب الهون بجانب الرومان
٦	ثورسمند بن ثيودريك	٤٥١ — ٤٥٣	قتـله إخوته لأنه أراد محاربة الرومان على غير رغبة قومه
٧	ثيودريك الثانى بن ثيودريك الأول	٤٥٣ — ٤٦٦	قتله يوريك أخوه الأصغر
٨	يوريك	٤٦٦ — ٤٨٤	كون الإمبراطورية القوطية فى غالة وأسبانيا ومات ميتة طبيعية
٩	ألاريك الثانى ابن يوريك	٤٨٤ — ٥٠٧	قتل فى وقعة فوييه أمام كلوفس الفرنجى
١٠	جيسالك بن يوريك	٥٠٧ — ٥١١	ابن غير شرعى ليوريك وطرد عن العرش
١١	أماليك بن يوريك	٥١١ — ٥٣١	تولى بوصاية تيوديس القوطى الشرقى ، وقتل فى برشلونة بأمر تيوديس لأنه لاذ بالفرار أمام الفرنجة . وبمقتله انقرضت أسرة الشجعان
١٢	تيوديس	٥٣١ — ٥٤٨	من أتباع ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين فى ايطاليا وخدم لدى القوط الغربيين ، وكان كاتب لثيودريك ، نقل العاصمة إلى برشلونة ، وهو أول ملك يتخذ العاصمة العامة للدولة فى أسبانيا — قتل فى برشلونة .
١٣	تيودجسيل	٥٤٨ — ٥٤٩	نقل العاصمة إلى أشبيلية حيث قتل .

رقم مسلسل	إسم الملك	مدة الحكم	ملاحظات
١٤	أجيلا	٥٤٩ — ٥٥٤	إتخذ ماردة عاصمة — طرده أثاناجيلد ثم قتل على يد أتباعه .
١٥	أثاناجيلد	٥٥٤ — ٥٦٧	حارب أجيلا بمساعدة جستنيان ، نقل العاصمة إلى طليطلة ، أول من مات ميتة طبيعية بعد يوريك .
١٦	ليـوفا	٥٦٧ — ٥٧٢	ولدا أثانا جيلد اشتركا معاً في الحكم عام ٥٧٢م ثم انفرد ليوفجلد بعد موت أخيه عام ٥٧٢م — مات ميتة طبيعية .
١٧	ليوفجلد	٥٦٧ — ٥٨٦	
١٨	ركارد الأول	٥٨٦ — ٦٠١	إبن ليوفجلد، تحول إلى الكاثوليكية وقومه — مات ميتة طبيعية .
١٩	ليوفا الثاني	٦٠١ — ٦٠٣	إبن ركارد الأول — طرد عن العرش على يد النبيل ويترك .
٢٠	ويترك	٦٠٣ — ٦١٠	قتل لأريوسيته ومحاولة ارجاع الأريوسية .
٢١	جوندمار	٦١٠ — ٦١٢	كاثوليكي متحمس — قتل
٢٢	سيسبت	٦١٢ — ٦٢١	مات ميتة طبيعية .
٢٣	ركارد الثاني بن سيسبت	٦٢١	تولى شهوراً قليلة ثم طرد على يد سوانتلا قائد أبيه .
٢٤	سوانتلا	٦٢١ — ٦٣١	أول ملك حكم شبه جزيرة ايبيريا جميعها ، أشرك معه في الحكم ابنه وزوجته وأخاه على الطريقة البيزنطية ، فثار الأساقفة والنبلاء ضده وطردوه .
٢٥	سيسناند	٦٣١ — ٦٣٦	توفي طبيعياً .
٢٦	شنتلا	٦٣٦ — ٦٤٠	أخو سيسناند — توفي طبيعياً .
٢٧	توجلا	٦٤٠ — ٦٤٢	إبن سيسناند ، طرده النبلاء وألجأوه إلى الدير.
٢٨	شندسونث	٦٤٢ — ٦٥٣	أشرك إبنه ركسونت معه في الحكم ، توفي طبيعياً .
٢٩	ركسونث	٦٥٣ — ٦٧٢	توفي طبيعياً .

رقم مسلسل	إسم الملك	مدة الحكم	ملاحظات
٣٠	وامبا	٦٧٢ — ٦٨٠	آخر ملك عظيم – تنازل عن العرش ومات طبيعياً .
٣١	ارفج	٦٨٠ — ٦٨٧	طرد عن العرش .
٣٢	أجيكا	٦٨٧ — ٧٠٠	تزوج من إبنة ارفج ، وهو من أقرباء وامبا توفى طبيعياً .
٣٣	ويتزا	٧٠٠ — ٧٠٩ أو ٧١٠ .	إبن أجيكا ، طرد .
٣٤	لوذريق	٧١٠ — ٧١١	أخر ملك قوطى ، هزمه العرب ، وقتل فى الحرب .

مجلس طليطـــلة

تـكوينه ـ سلطة الملك ـ اختصاصاته وبروز سلطة رجال الدين .

المظهر المميز لحـكومة القوط الغربيين ، هو مجلس الشيوخ الذى عرف بإسم مجلس طليـــطلة أو مجمع طليطلة (Conseil ou Synode de Tolède) نسبة لانعقاده فى مدينة طليطلة وهى العاصمة الأخيرة لدولة القوط[1] ، و يعتبر هذ المجمع المجلس الوطنى للملـكية القوطية فى أسبانيا .

و يتكون أعضاء هذا المجلس من عنصرين هما العنصر الدينى ، وهو أهمهما ثم العنصر المدنى ، و يتمثل العنصر الدينى فى الأساقفة ورؤساء الأساقفة ونوابهم من القسس أو الـكهنة ، وقد مثل هؤلاء النواب لأول مرة فى المجلس الثالث

---

(١) أول عاصمة لمملـكة القوط الغربيين حين قامت ، كانت فى تولوز جنوب فرنسا ، وهذه اتخذها أتولف ، كما اتخذ فى نفس الوقت مدينة برشلونة عاصمة لأملاكه الأسبانية وبعد كارثة ڤوييه (٥٠٧ م) صمم القوط على نقل العاصمة إلى أسبانيا ، وبدأت هذه النقلة بزحزحة العاصمة نحو الجنوب فاتخذ أماريك الثانى بن ألاريك الثانى مدينة ناربون عاصمة له عام ٥١١ م وفى عام ٥٣٢ م نقل تيوديس القوطى الشرقى وملك القوط الغربيين مركز الدولة إلى أسبانيا ، فاتخذ برشلونة عاصمة عامة للدولة ، غير أن الاضطرابات التى شملت جنوب أسبانيا ، قد حملت ابنه تيود جسيل على نقل العاصمة إلى موضع قريب من مصدر الاضطرابات ، فاتخذ أشبيلية ، أما أجيلا فرأى أن تـكون العاصمة فى موضع أكثر توسطا ومن ثم جعل ماردة عاصمة له ، ولما كان البيزنطيون قد استعادوا أملاكهم جنوب أسبانيا على عهد جستنيان ، رأى الملك القوطى أثاناجلد حليف جستنيان ، ويدين له بعرشه ، رأى أن يترك ماردة القريبة من هذه الأملاك ويستقر فى طليطلة ، وهى فى مركز متوسط فى شبه الجزيرة ، ورغم أنهـا فى منطقة قليلة الخصوبة إلا أنها ذات موقع استراتيجى هام وأصلح نقطة لحـكم أسبانيا ، وظلت طليطلة عاصمة للقوط حتى نهاية دولتهم ، واتخذها العرب عاصمة لفتوحهم فى أسبانيا فترة من الزمن ثم عدلوا عنها إلى قرطبة .

الذى عقد عام ٥٨٩ م على عهد الملك ركارد الأول ، كذلك يضم هـذا العنصر رؤساء الأديرة الذين سمح باشتراكهم المرة الأولى منذ المجلس الثامن عام ٦٥٣ لـ زمن الملك ركسونث ، وهناك القامصة ورؤساء الشمامسة ورئيس المرتلين فى كتدرائية طليطلة . أما العنصر المدنى فيمثله أعضاء من البيت المالك ورجال البلاط وكبار الموظفين ، وكلهم من طبقة النبلاء .

والملك وحده حق دعوة هذا المجلس للانعقاد ، كما أن من حقه تعيين وعزل الأساقفة أو غيرهم من عضويته ، وليس له ميعاد معين للانعقاد بل يدعى كلما دعت الحاجة فى أى وقت ، والمعروف أن أول جلسة لهذا المجلس بعد قيام دولة دولة القوط ، كانت فى برشلونه عام ٥٤٠ م على عهد الملك تيوديس ، وقد سلمت المجالس المختلفة بسلطة الملك وحقوقه فيما يتعلق بدعوة المجلس ، وذلك باستثناء المجلس السابع الذى عقده الملك شندسونت عام ٦٤٦ م ، إذ يبدو أن هذا المجلس ترك مسألة النص على الاعتراف بهذه الحقوق مبهمة غير محددة ، فلم يتعرض لها بجرح أو تعديل ، وعلى العكس من هذا نصت قرارات المجلس التاسع الذى عقده ركسونث عام ٦٥٥ م على تأكيد هذه الحقوق ، وتشير صراحة إلى أنه ليس من حق الأساقفة — لبروز العنصر الدينى من حيث العدد والنفوذ — أن يجتمعوا إلا بأمر الملك[1] .

يقدم المجلس مشورته إلى الملك فيما ينبغى اتخاذه ، كما أن الملك يستشير المجلس فى سياسته ويستصدر منه القرارات اللازمة ، ومجموعة قرارات هـذا المجلس هى القانون القوطى أو القانون المدنى للدولة القوطية[2] . والملاحظ أن العنصر الدينى هو المختص فى مجلس طليطلة ببحث وتقرير المسائل الدينية ولكن

(١) Deanesly, pp. 102 - 108; Lecl , pp. 314 - 15, 333, 336, 347 C, med, H., II, p. 188

(٢) Lecl., p. 245; Deanesly, p. 102 ؛ أنظر التشريعات القانونية .

رجال الدين طغوا على سلطة المدنيين من زملائهم أعضاء المجلس ، وشاوكوهم فى بحث الأمور المدنية للدولة فى كل الفروع ، بل إن نفوذ هيئة الإكايروس القوطية قد فاق نفوذ النبلاء فى بحث شئون الدولة العامة ، ويرجع هذا فى الواقع إلى أن هذه الطبقة هى التى تميزت بالثقافة العالية دون غيرها [١] ، ولذا فإن الدستور القوطى يعد من عمل رجال الدين ، مما يدل على أن الكنيسة والدولة عند القوط الغربيين كانتا ممتزجتين معاً بالمفهوم البيزنطى ، ولا سيما فى القرنين السادس والسابع الميلاديين ، وأمر امتزاج التشريعين الدينى والمدنى فى مجالس طليطلة ليس غريباً فى ذلك العصر [٢] ، بل إن أصول هذا الطابع يمكن أن ترد إلى فجر تاريخ القوط يوم احتكوا بالامبراطورية البيزنطية وألفوا ما شهدوه فيها من ارتباط الكنيسة بالدولة ، وهذا بجانب ما ألفه الجرمان عامة منذ عهد وثنيتهم فى الاعتماد على مجلس من الأحرار ، وفى سمو مكانة الكهنة لديهم .

لعب رجال الدين فى أسبانيا القوطية دوراً يفوق ما لعبه أقرانهم فى مجالس الدول المعاصرة لهم ، مثل مجلس الفرنجة المعروف باسم (**Les Champs de mars ou de mai**) والويتان عند الأنجلوسكسون : (**Wittenagemot or Witan**) [٣] وعند اللومبارد نجد الجمعية العمومية فى بافيا ؛ فى كل هذه المجالس لم تبرز سلطة رجال الدين كما برزت فى أسبانيا القوطية فى مجلس طليطلة [٤] .

---

(١) **Guizot, p. 86**

(٢) **Deanesly, p. 108**

(٣) روس : التاريخ الانجليزى (ترجمة الدكتور زيادة) ص ٣٤ .

(٤) **Lecl., p. 331**

التشريعات القانونية

أهمية تاريخ القوط الغربيين فى مجال التشريع — المجموعات القانونية التى أصدرها القوط الغربيون — بعض محتوياتها ومدى تأثرها بالقانون الرومانى — طابع التشريعات القوطية .

سيطر على التشريع القانونى عند القوط الغربيين ، فكرة التقريب بين الرعايا الرومان وعنصر القوط ، وكذلك فكرة الاقتباس من الحضارة الرومانية ومزج التقاليد الجرمانية بالمدنية الرومانية . ومرجع هذا وذاك هو العمل على ترقية المجتمع القوطى وتدعيم ملك الدولة القوطية بإزاء ما تلقاه من عقاب فى الداخل وما تستهدف إليه من أخطار خارجية ، وكما كان التحول من الأريوسية إلى الكاثوليكية خطوة كبرى فى الوصول إلى هذا الهدف — وإن جاءت متأخرة — فكذلك كانت التشريعات القانونية ، بل إن شهرة القوط الغربيين من بين سائر الجرمان ، ترجع أساساً إلى تراثهم القانونى [1] ، فضلا عن فكرة التقنين نفسها وإدراك أهميتها ، يضاف إلى ذلك أن أعظم عمل قانونى صدر عن العناصر الجرمانية عند الإطلاق ، هو ما جاء عن القوط الغربيين [2] ، كما أن قيمة القوانين التى وضعوها تفوق ما عداها من قوانين الدول الجرمانية الأخرى [3] ، هذا وإن قانون القوط الغربيين لم يظل كغيره من القوانين البربرية الأخرى متسما بطابع الشخصية [4] ، بل تطور تدريجيا حتى صار تشريعاً قومياً أو وطنياً يطبق على

---

(١) Lav. et Ramb., 1, p. 108

(٢) Eyre, pp. 57 ـ 8

(٣) Lecl., p. 329

(٤) الدكتور بدر : مبادىء القانون الرومانى ص ١٣٦ .

جميع الرعايا دون تمييز بين جنسياتهم ، وبذا زالت عنه الصفة الشخصية [١] .

وأقدم مجموعة قوانين (Code) مكتوبة أصدرها القوط الغربيون ، هى المجموعة التى نشرها الملك يوريك (٤٦٦ — ٤٨٥ م) مؤسس الإمبراطورية القوطية ، فقد أمر وهو فى عاصمته تولوز — جنوب الغال — بجمع العادات والتقاليد القوطية ، وكذلك ما صدر من قوانين على عهد أسلافه ثيودريك الأول (٤١٩٨ — ٤٥١ م) ، تورسمند (٤٥١ — ٤٥٣م) وثيودريك الثانى (٤٥٣ — ٤٦٦م) ، ضوبم على ما جمع ما أصدره هو من قوانين أو دساتير (Constitutiones) ، ورتب هذا كله فى مجموعة واحدة مبوبة تبويباً موضوعياً [٢] ثم إن يوريك سمح للرومان الخاضعين له بأن يسيروا وفق قوانينهم الخاصة فى نظمهم ومعاملاتهم فيما بين أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه منذ عهد يوريك وجد فى غاليا ، وكذلك فى أسبانيا مجموعتان من القوانين هما المجموعة القوطية (C. G.) والمجموعة الرومانية (C. R.) وكانت المجموعة الأولى أوسع نطاقا من الثانية من حيث التطبيق العملى ، فبينما تسرى الأولى على جميع القضايا والمسائل التى تقع بين القوط أنفسهم ، ثم بينهم و بين الرومان ، اقتصر سريان المجموعة الرومانية على الرومان فقط [٣] .

ويلخص هدف يوريك من هذا العمل القانونى ، فى تدعيم سيادته على رعاياه من القوط والرومان ، وقد ظل خلفاؤه يضيفون إلى مجموعته القانونية ، على أن ألاريك الثانى بن يوريك (٤٨٥ — ٥٠٧ م) عمل على إصدار مجموعة جديدة ، بأن ألف لجنة من كبار المثقفين من الأساقفة والنبلاء ومن بعض

---

(١) Guizot, p. 87

(٢) لم تزل بقايا هذه المجموعة مخطوطة إلى اليوم بالمكتبة الوطنية بباريس .
(Encycl. Britt., Art."Leges Visigothorum,,)

(٣) Lot, p. 182

العلماء ، وتولى رئاسة هذه اللجنة الكونت جوجاريكوس (Gojaricus) ، كلف الملك هـذه اللجنة بجمع القانون الرومانى السائد بين رعاياه الرومان فى مملكته ، فأنجزت اللجنة عملها ووافق ألاريك عليه فى مجلس عقده فى مدينة أير (Aire) بمنطقة غشكونيا شمالى أسبانيا ، وذلك عام ٥٠٦م وجاءت نتيجة هذا العمل فى المجموعة المشهورة باسم (Breviarum Alaricianum) نسبة إلى الملك ألاريك الثانى وأحياناً تضاف هذه المجموعة لا إلى الملك وإنما إلى أبرز الفقهاء الذين عملوا فيها وهو الشارح أنيانوس (Anianus) الذى وقع النسخ الأصليـة فيقال لها (Liber Aniani أو Brev. Aniani)[١] لكن يلاحظ أن نسبة هذه المجموعة إلى الملك ألاريك نسبة حديثة لم تعرف إلا فى القرن السادس عشر الميلادى ، حين أطلقها الفقهاء عليها تمييزاً لها عما سوها من المجموعات القوطية ، وربما كانت التسمية التى عرفت بها عند صدورها هى التسمية المنسوبة إلى ذلك الفقيه .

صدرت هذه المجموعة لصالح الرعايا الرومان وطبقت على القوط والرومان ، ومن أجل هـذا تعد قانوناً رومانياً للقوط الغربيين : (Lex Romana Visigothorum)[٢] ، وفى نظر مؤرخى القانون أن مجموعة ألاريك هذه أعظم عمل قانونى صدر عن ملك جرمانى ، فقد بلغ من أهميتها وشهرتها أن غدت أساساً للقانون المكتوب فى وسط فرنسا ، وتشبه فى ذلك أثر مجموعة جستنيان فى القرون التالية ؛ وفى مجال التقريب بين القوط والرومان ، يلاحظ أن وضع هذين العنصرين حتى نهاية القرن الخامس الميلادى ومطالع القرن السادس ، كان يشبه وضع الرعايا فى دولة البرجنديين والدولة الميروفنجية ،

(١) Lav. et Ramb., 1, p. 109

(٢) Oman, p. 226; Lav et Ramb., 1, p. 109; Brycé, p. 32 Encycl. Britt. ; Lecl , p. 245

حيث يوجد قانونان مختلفان عن بعضهما تمام الاختلاف وهما القانون الجرمانى والقانون الرومانى ؛ فلكل عنصر قوانينه الخاصة ، ولذا أصدر آلاريك الثانى هذه المجموعة ، جاء عمله هذا محاولة كبرى وخطوة واسعة فى سبيل التقريب بين القوط والرومان مهدت لإلغاء شخصية القوانين التى تميز بها التشريع القوطى فى أول عهده ، وقد ظفرت هذه المجموعة بالرضا العام ولا سيما من الرومان لأنها لم تغير شيئاً من القانون الرومانى[١].

وتمشى التقريب بين التشريعين القوطى والرومانى إلى حد كبير مع ازدياد اصطباغ القوط بالتقاليد الرومانية والحضارة الرومانية ، حتى أن القوط يوصفون من بين سائر الجرمان بأنهم العنصر الجرمانى الذى اصطبغ بالحضارة الرومانية[٢].

ومع هذا العامل العام الكبير ، فهناك باعث سياسى مباشر مؤداه أن آلاريك الثانى أراد أن يسرع فى استجلاب رضا الرعايا الرومان ، بعد أن رأى قوة الفرنجة تظهر عقب انتصار ملكهم كلوفس فى سواسون عام ٤٨٦ م واستيلائهم على مملكة سياجريوس الرومانية ، وهى آخر ولاية رومانية فى بلاد الغال ، وبهذا الوضع الجديد أضحى الفرنجة وجهاً لوجه مع القوط الغربيين فى غاليا ، ولعل الخطوة الأعمق أثرا ، والتى حملت آلاريك الثانى على إصدار هذه المجموعة ، هى اعتناق كلوفس المسيحية على المذهب الكاثوليكى عقب انتصاره على الألمان عام ٤٩٦[٣] ، مما جعل حكمه مقبولا من الرعايا الرومان حتى أطلق عليه المعاصرون « ملك الرومان » (**Rex Romanorum**) .

والمعروف أن القوط الغربيين فى ذلك الوقت كانوا متعصبين لأريوسيتهم ، لهذا وذاك أقبل آلاريك على اتخاذ هذه الخطوة الإيجابية لتهيئة الجو الحسن

---

(١) Deanesly, p. 97. ؛ Lecl., pp. 245 - 6; بدر (نفسه) ص ١٣٦ .

(٢) Pirenne (J.), p. 430

(٣) Deanesly, pp. 95 - 6

التفاهم بين الرعايا الرومان الكاثوليك والقوط الأريوسيين ، حتى يقفوا بجانبه إزاء خطر الفرنجة ، وتحقق الخطر الذى كان يخشاه ألاريك من جانب الفرنجة فسرعان ما وقعت وقعة فوبييه (٥٠٧ م) أى فى السنة التالية لإصدار مجموعة ألاريك وفى هذه الوقعة قتل الملك القوطى [١].

وكيفما كان الدافع لألاريك على إصدار هذه المجموعة الرومانية ، فإن هذا لا يقلل من قيمتها فى عملية المزج بين عنصرى القوط والرومان ، فضلا عما أسهمت به فى حفظ القانون الرومانى حتى قيام النهضة القانونية فى بولونيا بإيطاليا خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، وكان بعض البلاد قبل هذه النهضة ، يستمد القانون الرومانى من مجموعة ألاريك هذه [٢]، ويلاحظ على مجموعة ألاريك أنها لم تحقق المساواة التامة بين القوط والرومان ، لأنها لم تلغ القانون الرومانى الذى يحرم الزواج بين الفريقين ، ولو أن هذا التحريم قد أهمل فيما بعد من الناحية العملية [٣].

وعلى عهد ليوفجلد (٥٦٨ — ٥٨٦) م صدرت مجموعة قوانين جديدة ، مكملة لمجموعة ألاريك الثانى ، على أن هذه المجموعة الجديدة فقدت وإن ظل بعض بقاياها ، ومن هذه البقايا ما يشير إلى أن هذه المجموعة اقتبست كثيراً من المواد التى تضمنتها مجموعة ألاريك وهذه كان يشار إليها عادة بعبارة « قديم » (Antiqua) وينسب إلى ليوفجلد إعادة إصدار مجموعة يوريك وإضافة قوانين إليها [٤].

---

(١) Lot, p. 183

(٢) Lav. et Ramb., 1, p. 109; Eyre, pp. 57 - 8

(٣) صدر هذا القانون عام ٣٦٥م على عهد الامبراطور فالنتنيان ويقضى بتحريم الزواج بين البرابرة والرومان . (Deanesly, p 105, Tecl., p. 349)

(٤) Encycl Britt.

والمهم فى التطور الذى استهدف إليه التشريع القوطى من بعد عهد ايوفجلد هو أن القوانين التى كانت تصدر من قبل الحكومة القوطية ، كان يقصد بها التطبيق الشامل على جميع الرعايا مهما كانت أجناسهم ، وساعد على ذلك تحول ركارذ الأول (٥٨٦ — ٦٠١ م) إلى الكاثوليكية ، فزال بهذا التحول أهم خلاف بين الحاكم والرعية ، ومن ثم زالت الصبغة الشخصية عن التشريع القوطى وأضحت القوانين عامة ، وأهم عمل قانونى فى هذا الصدد ، هو ما تم على عهدى الملك شند سونث أوكند سونث (٦٤٢ — ٦٥٣ م) وابنه ركسونث (٦٥٣ — ٦٧٢ م) . أمر الملك شند سونث بأن جميع الرعايا على اختلافهم يجب أن يحكموا بمقتضى قانون واحد وأن يحاكموا أمام هيئة قضاة واحدة ، وأصدر فى عام ٦٤٢ م ، أى فى مطلع حكمه ، المجموعة الكبرى المعروفة باسم (Liber Judiciorum أو Forum Judiciorum) ، وهذه هى التى أكملها ابنه من بعده ٦٥٤ م . وتحقق هذه المجموعة الامتزاج التام بين التشريع القوطى والتشريع الرومانى ، وأزالت إزالة رسمية نهائية ، الصفة الشخصية للقوانين المطبقة فى دولة القوط الغربيين ، وأضحت منذ ذلك الوقت تنمو وتزداد وتتطور إلى عهد أجيكا (٦٨٧ — ٧٠٠ م) حتى أخذت الشكل النهائى الذى وصلت به إلينا[١] . ثم إن الملك ركسونث قد عرف باتباعه خطة جستنيان بصفة خاصة ، حين أصدر عام ٦٥٥ م ما عرف باسم المتجددات (Novellae)[٢] .

أما مجموعة (F. J.) فهى موسوعة قانونية (Legal Digest) شملت معظم القوانين التى صدرت عن ملوك القوط الغربيين منذ عهد يوريك حتى عهد أجيكا ، روجعت وصححت ونقحت على يد الملك إرفيج (٦٨٠ — ٦٨٧ م) الذى أعاد إصدارها باسم جديد (Lex Visigothorum Renovatia)

---

(١) Lecl., pp. 329 - 30

(٢) Deanesly, p. 105, Pirenne. (I,) p. 430

وأضيفت إليها عدة اضافات على عهد الملك اجيكا ، حين أقرها مجلس طليطلة السابع عشر الذى انعقد عام ٦٩٣ م(١) . غير أن الإسم الذى اشتهرت به هو (F. G.) ظل لاصقاً بها . وهى خليط من القانون الرومانى والقانون القوطى ، وتضم نحو ٣٢٤ قانونا أخذت من مجموعة ليوفجلد ، وقليلا من قوانين ركارد الأول وسيسبت ، كذلك بها ٩٩ قانوناً من قوانين شندسونث ، و ٨٧ قانونا من عمل ركسونث ، وتشمل كل فروع القانون من سياسية ومدنية وجنائية ، بحيث تفى بجميع حاجات المجتمع(٢) .

ومن حيث التنظيم والتبويب ، نجدها مكونة من ١٢ جزءاً ومقسمة الى ٥٤ موضوعا وبها ٥٩٥ مادة . بقيت هذه المجموعة حتى بعد زوال دولة القوط على يد العرب ، إذ أن زعماء أسبانيا الذين لجأوا إلى اشتوريا فى الشمال ولم يستسلموا للعرب ، ظلوا يسيرون فى حكومتهم وفق هذه المجموعة ، بل إن العرب أنفسهم قد اقتبسوا منها بعض ما يلائمهم فى حكومتهم الجديدة(٣) . وحتى بعد استعادة أسبانيا من يد العرب ، طبقت هذه المجموعة فى جميع أنحاء أسبانيا ، وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، أمر الملك فرديناند الثالث بترجمتها من اللغة اللاتينية إلى اللغة القشتالية ، وصارت تعرف فى هذه اللغة الأخيرة باسم (Fuero Juezgo)(٤) .

من هذا يتضح مدى اهتمام القوط الغربيين بالتقنين ، ومدى أهمية هذا العمل الذى عنوا به عناية ميزتهم عن غيرهم من الشعوب الجرمانية ، أما محتويات المجاميع القانونية التى أصدروها فقد روعى فيها أن تفى بكل حاجات المجتمع

---

(١) Encycl. Britt.; Lav. et Ramb., 1, pp. 109 - 110

(٢) Deanesly, p. 105 ؛ المصادر الأخرى .

(٣) Deanesly, p. 109

(٤) Lot, p. 183

القوطى ، كما وضح فيها المزج بين التشريع الرومانى والتشريع القوطى والإفادة من القانون الروماني لدرجة كبيرة ، فمثلا أبقت مجموعة يوريك القوانين الرومانية الخاصة بجباية الأموال ، كما كان سائداً عند الرومان ، ويشير أحد قوانين يوريك إلى جباية الثلث القديم الذى كان مقرراً ضيافة إجبارية للقوط المعاهدين على أصحاب الأملاك من الرومان ، وقد راعى يوريك أن ينص فى قوانينه على حماية الأملاك وعدم العبث بحدودها المعروفة ، ونصت على عقوبة من يخالف هذه القوانين[١] . أما مجموعة الاريك (Br. Al.) فهى مجموعة قوانين رومانية كاملة ، فيها ما يتعلق بعقوبة السارق ، وما يتعلق بشروط استيراد الأسلحة لفرق الحرس الخاصة (Saines)[٢] بكبار الملاك ، غير أن هذه المجموعة أبقت على القانون الرومانى الخاص بتحريم الزواج بين القوط والرومان ، وهذا القانون قد ألغى فى مجموعة (F. J.) إذ أباح الملك ركسونث الزواج بين العنصرين وإن كان قائماً من الوجهة العملية منذ عهد ليوفجلد ، وفى هذه المجموعة الأخيرة ، تركزت خلاصة التشريعات القوطية فى جميع المسائل ، كتنظيم التجارة ، وكيفية تداول النقود ، والصور المختلفة لمسائل الخلاف على الحدود والمجارى المائية ، والاعتداء على الزراعة وغيرها . هذا ولم تخل تشريعات القوط من القوانين الكثيرة التى تنص على اضطهاد اليهود ، ولعل من بين التشريعات الهامة ما أصدره وامبا خاصاً بتعميم الخدمة الحربية وعقوبة المتهربين منها بالنفى ومصادرة الأموال والحرمان من حقوق المواطن[٣] .

وتتميز التشريعات القوطية التى تركزت أخيراً فى مجموعة (F. J.) بأنها لم تكن مجرد مجموعة قوانين ، ولكنها ذات صبغة فلسفية وتعليمية ، فهى تضم بين آن وآخر بعض البحوث عن أصل المجتمع وطبيعة السلطة والتنظيم المدني ،

---

(١) Deanesly, p. 96

(٢) يقابل هذه الفرق ما عرف عند الرومان باسم (Buccellarii)

(٣) Lecl., p. 339; Oman, 230

كذلك بها مواعظ خلقية ونصائح وتحذيرات وأفكار عن الرحمة والعدالة ومعرفة دقيقة بحقوق الإنسان ومبادىء المساواة أمام القانون ، وهاتان الناحيتان هما عنصرا الحضارة الحديثة [١]. وكذلك تعرضت لالتزامات الهيئة الحاكمة ، ومعنى الصالح العام ودلالته ، وهى فى ذلك تهدف إلى الوصول بالمجتمع القوطى إلى غاية أسمى مما تضمنته التشريعات البربرية الأخرى . ويصفها أحد البحاث بأنها « ذات طابع علمى ومنطقى واجتماعى [٢] » .

ويرجع هذا الطابع المميز للتشريع القوطى أن القانون القوطى هو فى الواقع من عمل رجال الدين ، وهو حصيلة ما أصدره مجلس طليطلة خلال عصر الدولة القوطية من قرارات ، وقد انفردت أسبانيا القوطية بهذا اللون من التشريع نظراً لما لعبته الهيئة الدينية فيها من دور يفوق ما يقوم به أقرانهم عادة فى الدول الأخرى ، ففى مجلس طليطلة وهو المجلس الوطنى للملكية القوطية الأسبانية ، وسمه إن شئت مجمعاً دينياً ووطنياً فى نفس الوقت ، فى هذ المجلس كانت الهيئة الدينية هى المركز الذى التفت حوله الملكية والأرستقراطية المدنية والشعب ، بل المجتمع القوطى بأسره .

من أجل هذا تحتل مجموعة (F. J.) مكانة خاصة ليس فى تاريخ التشريع فحسب وإنما فى تاريخ الإنسانية ، فهى تمثل خطوة كبرى فى تحقيق الامتزاج بين مجتمعين فى بيئة واحدة ، غير أنه يؤخذ عليها من الناحية السياسية أنها تركت الرعايا من غير ضمانات ، فهى قد جعلتهم تحت رحمة رجال الدين من ناحية ورحمة الملك من ناحية أخرى ، على خلاف ما تضمنته التشريعات عند الفرنجة والسكسون واللومبارد والبرجنديين [٣].

---

(١) Guizot, p. 87

(٢) Guizot, p. 89; Lecl., p. 331

(٣) Lecl., pp. 331 - 2

٢ — السياسة الدينيـــة

تنظيم هيئة الأكليروس القوطية — طابع الكنائس الأريوسية الجرمانية — القوانين الخاصة بتنظيم الهيئة الدينية — سلطة رجال الدين وعلاقتهم بملوك القوط — التعصب للأريوسية — بوادر التحول إلى الكاثوليكية — ركارد والتحول الرسمى ٥٨٧م — أثر هذا التحول فى العلاقة مع البابوية والدولة البيزنطية — انتشار بعض مظاهر الحضارة البيزنطية — الأثر السياسى فى تحقيق الوحدة الداخلية — اضطهاد اليهود وأثره .

يحتمل أن تنظيم الكنائس الأريوسية قد تأثر بالعادات والتقاليد الجرمانية ، فقد لعبت ذكريات المجتمعات الوثنية القديمة ونظام الكهانة لديها ، دوراً خطيراً فى تحويل الكنائس الأريوسية إلى مؤسسات أو نظم وطنية تميزها تقاليد شعوبها وتخضع الملك ، ولذا لم يكن من السهل فى مثل هذا التنظيم فصل الدين عن السياسة ، إذ كانت الأهداف السياسيه هامة لدى الجرمان ، وعلى خلاف التنظيم الكاثوليكى حيث تتركز جميع التقاليد الرومانية المستندة إلى روما وحضارتها حيث قام التنظيم الكنسى لهدف خاص ، هو الهدف الخيرى كمحاربة الجوع والفاقة ، نجد الكنائس الأريوسية تتمثل فيها الروح الجرمانية التى تمثل طبقة أقلية حاكمة تتميز بنظامها اللامركزى ، وإن لم يكن هذا مضطرداً على الدوام [١] .

وظلت الأريوسية نحواً من ثلاثة قرون عقيدة القوط الوطنية ، أخلصوا لها أشد الإخلاص ، ولذا جاء تحول ركارد فيما بعد إلى الكاثوليكية خطوة جريئة جداً ومغامرة كبرى ، فى أن يدين بمذهب كنيسة أجنبية عن شعبه ووطنه [٢] .

(١) Moss, pp. 74 - 5

(٢) Bradley, p. 329

نظم القوط الأريوسيون هيئتهم الدينية تنظيما دقيقاً ، وعقدوا لذلك عدة مجالس دينية ، أهمها فى مجال التنظيم الكنسى ، ما عقد على عهد الملك أماريك (٥١١ — ٥٣١ م) فقد عقد عام ٥١٦ م مجلساً دينياً فى تراجونه برئاسة أسقف المدينة وحضره أساقفة المدن الرئيسية وفى نهاية العام التالى عقد مجلساً آخراً فى مدينة جيرون (Girone) برئاسة رئيس أساقفة تراجونه ، كما عقدت مجالس أخرى فى لاريده (Larida) وفالنسيا فى عام ٥٢٤ م . وبحوث هذه المجالس دينية إدارية لتنظيم هيئة الأكليروس الأريوسية .

ويهمنا من هذه المجالس المجلسان الأولان : مجلس ترجونه ومجلس جيرون. أصدر مجلس ترجونه ثلاثة عشر قانوناً تتعلق كلها برجال الدين وحقوقهم والتزاماتهم فالقانون الأول ينص على أن القسس والرهبان الذين يساعدون ذويهم ينبغى ألا يعطوهم إلا الضرورى وأن تكون زيارتهم لهم قصيرة جداً ، وبترخيص، بشرط ألا يبيتوا عندهم ، وفى حالة مخالفة هذه التعليمات يعاقب القسيس بالفصل ، أما الراهب فيحبس فى قلايته (Cellule) ولا يعطى من الطعام والشراب سوى الخبز والماء . ويحرم القانون الثانى على رجال الدين الشراء بسعر رخيص والبيع بسعر مرتفع ولا يسمح القانون الرابع لأى أسقف أو مطران أو قسيس بالبقاء يوم الأحد فى المحكمة باستثناء حالات نظر القضايا الجنائية ، ويؤكد القانون الخامس ضرورة حصول رجال الدين فى الأقاليم على التعليمات من رئيس الأساقفة فى مركز الإقليم ؛ أما القانون السادس فيحتم حضور الأسقف للمجامع الدينية ما لم يكن مريضاً بمرض خطير يحول دون حضوره ، ويوصى القانون السابع بضرورة تبادل الآراء بين رجال الدين فى الأقاليم طوال الأسبوع ، بينما ينصب القانون الثامن على توضيح بعض واجبات الأسقف فى التفتيش على الكنائس الواقعة فى دائرته لإصلاح ما قد تكون فى حاجة ألى إصلاح عادى دون تمييز كنيسة عن أخرى ، لأن الأسقف ، تبعاً للتقاليد المقررة ، له ١/٣ من جميع الهبات التى تقدم لكنائس

دائرته الأسقفية . ويحرم القانون العاشر على جميع رجال الدين قبول الهدايا ، باستثناء الهبات التي تقدم للكنيسة . ويمنع القانون الحادى عشر الرهبان من شغل أى وظيفة أو مزاولة أى عمل دينى خارج ديره و بدون إذن رئيس الدير الخ ...[١]

أما قرارات مجمع جيرون فكانت فى ميادين الطقوس والعبادة وتنظيمها ، والأعياد الدينية ونظام التعميد . . الخ[٢] ، وكذلك تناولت المجالس الأخرى التى عقدت فى ڤالنسيا ولارده ، تفاصيل أخرى فى التشريعات الكنسية ، كأن ينص القانون السادس من قوانين مجلس لاريده على تحريم العبث بمحتويات الأسقفية ، عند وفاة الأسقف أو دنوه من الموت ، بل يترك كل شىء على حاله حتى يعين الأسقف الجديد ، و يوضح مجلس فالنسيا طريقة حصول ورثة الأسقف على أملاك الأسقف الخاصة وهكذا ..[٣].

ولم يختلف التنظيم الكنسى كثيراً عند ما تحول القـوط الغربيون إلى الكاثوليكية منذ عهد ركارد عام (٥٨٧ م)، غاية ما فى الأمر أن الهيئة الأكليروسية القوطية الأريوسية صارت كاثوليكيه واندمجت مع الهيئة الكاثوليكية الرومانية التى كانت منفصلة عنها قبل تحول القوط ، ثم ازدياد الصبغة الرومانية والبيزنطية بصفة خاصة فى طابع التنظيم والتقاليد الكنسية ، وعقدت عدة مجالس دينية على عهد ركارد بعد تقرير الكاثوليكية بفضل توجيهات الأسقف ليندر ، وهدف هذه المجالس إعلان قرارات التحول إلى الكاثوليكية وتنظيم الهيئة الدينية ، من هذه المجالس مجلس عقده رئيس أساقفة ناربون (أول نوفمبر ٥٨٩م)

---

(١) Lecl., pp. 240 - 43

(٢) Ibid, p. 243

(٣) Ibid, pp. 244 - 5

ومجلس عقده الأسقف ليندر فى أشبيلة فى السنة التالية، ومجلس فى سرجوسه (سرقسطه) عام ٥٩٢ ، ومجلس كبير فى طليطلة (٥٩٧) مثلت فيه جميع الأقاليم الأسبانية . ومن قرارات هذا المجلس الأخير اثنان ينص أولهما على ضرورة محافظة القسيس على الطهارة والعفة ، ويمنع الثانى الأساقفة من وضع أيديهم على أملاك الكنائس فى دوائرهم الأسقفية [١]

على أن الملاحظ على التنظيم الكنسى فى دولة القوط ، سواء أكان ذلك وهم على الأريوسية أم على الكاثوليكية ، أن سلطة رجال الدين ولا سيما كبارهم كانت نافذة وفعالة ، وربما علت على سلطة الملكية ، وهذا يتفق على ما درج عليه القوط وغيرهم من الجرمان منذ عهدهم الوثنى فقد كانوا يعتقدون فى كل ما يدلى به كهنتهم ، ففى المخاطر لا ينتظرون عوناً إلا من الله ، وقبل المعارك يتعبد ملوكهم مما حمل بعض قادة الرومان على السخرية بهم ، وإذا انتصروا عزوا ذلك إلى تدخل القوى الإلهية ، ولذا كان ملوك القوط يبجلون الهيئة الدينية [٢] .

وكان الأساقفة مع النبلاء المدنيين روح مجلس طليطلة ولهم السهم الأوفى فى التشريعات الحكومية ، والأدلة على ذلك كثيرة منها مثلا : حين تقدم الملك سيسناند عام ٦٣٣ م إلى مجلس طليطلة الرابع الذى عقده ، تقدم متوسلا إلى الأساقفة فى ذلة وتواضع أن يدعو الله له ويطلبوا الرحمة منه كى يمنحه القوانين الصالحة لدولته [٣] . وفى المجلس الثامن (٦٥٣) صرح الأساقفة بأن السيد المسيح قد اختارهم لإرشاد العالم وتثقيفه [٤]، وهكذا ، وقد فهم الملوك من جانبهم بأن التقوى هى فى طاعة الأساقفة الذين أتيح لهم أن يرشدوا الملوك فى المسائل العامة .

---

(١) Lecl., pp. 288 - 9

(٢) Dozy, II, p. 19

(٣) Lecl., p. 302

(٤) Dozy, II, p. 21

.. وبازدياد سلطة الكنيسة وتضخم ثروتها ، أضحى رجال الدين أصحاب أملاك واسعة يشتغل فيها قطعان من الرقيق المسخر ، ولهم قصور فاخرة في الضواحي يقوم بالخدمة فيها عدد كبير من العبيد ، ولم يستنكر أحد من رجال الدين استخدام الرقيق وهذا فضلا عن سوء أخلاقهم[١] .

* * *

والملاحظ على سياسة القوط الدينية ، أن محورها دار حول تدعيم مملكتهم الناشئة وتثبيت قواعدها وسط ذلك الخضم الكاثوليكي من العالم الروماني ، ذي التقاليد العريقة والحضارة الرفيعة ، وقد ظن القوط أن باستطاعتهم الاحتفاظ بمذهبهم الأريوسي أو إعلاءه ، وهم بسبيل إنجاز هذا الهدف الكبير ، غير أنهم أخطأوا الظن والتقدير ، فمنذ اللحظة الأولى ، عند اعتناقهم المسيحية الأريوسية ، نظر إليهم كهرطقين وليسوا على الإيمان الصحيح ، وإذا أضيفت هذه النظرة إلى الفارق العنصري والحضاري باعتبارهم جرماناً برابرة ، أمكن تصور مدى الشقة الواسعة التي ظلت تفصلهم عن الرعايا الكاثوليك ، والمعروف أن الإمبراطورية البيزنطية ظلت تجاهد في القضاء على الأريوسية وفي هذا المجال برزت جهود بطارقة الأسكندرية من لدن أثناسيوس (ت ٣٧٣م) زعيم المعسكر المعادي للأريوسية ، وعلى ذلك ظل رعايا القوط منفصلين عن حكامهم روحياً واجتماعياً مدة طويلة ، ولم يكن هناك من رباط يجمعهم أو يقرب بينهم وبين القوط الهرطقين سوى رباط التبعية المشتركة لشخصية الحاكم القوطي .

حقيقة تعصب ملوك القوط الغربيين لأريوسيتهم ، ونظموا كنائسهم وفق تقاليدهم ، ولكن هذا التعصب لم يجدهم نفعاً في دعم ما فتحوه وأخضعوه بالسيف ، وهم قد أدركوا هذه الحقيقة ، ومن ثم تأرجحت سياستهم الدينية

---

(١) Ibid, p. 22

بين التعصب والتسامح ، ومع ذلك فقد بقى الرعايا الكاثوليك على ما هم عليه من كره دفين نحوهم وانفصال روحى عميق عن سادتهم ، وإذا تذكرنا أن انقراض سلالة الملوك من أسرة الشجعان المقدسة منذ عام ٥٣١ م ، قد أدى إلى هز أركان عرش الملكية القوطية ، واستهدافها إلى الفتن والمؤامرات والنزاع القاتل ، فى بيئة كارهة أصلا لهؤلاء المتنافسين ، مما يهدد سلطان القوط برمته ، إذا تذكرنا هذا ، أمكن بسهولة إدراك مدى أهمية ما أقدم عليه أحد ملوك القوط العظام ، من وضع حد لهذه السياسة الدينية المذبذبة ، لتأمين ظهر الحكومة القوطية ، فكان تحوله وقومه إلى الكاثوليكية . وقد نجح ولكن بعد فوات الأوان ، إذ انتهت دولة القوط إلى الخطوة التى كان ينبغى أن تبدأ بها وذلك فى وقت بدأت فيه طلائع قوة جديدة لا يمكن التكهن بالحد الذى ستقف عنده ، وأعنى قوة الإسلام .

وإذا كان التعصب المذهبى قد انتهى أواخر القرن السادس الميلادى ، فهناك تعصب دينى ظل قائماً حتى أزمن فى الدولة القوطية ، ذلك هو التعصب ضد اليهودية ، أسهم هذا مع غيره من عوامل الهدم ، فى إنتهاء السيادة القوطية .

ظل القوط الغربيون الأريوسيون متسامحين مع رعاياهم الكاثوليك حتى ولى يوريك العرش (٤٦٦ — ٤٨٦ م) ، فانقلبت سياسة التسامح الدينى التى اتبعها أسلافه إلى نوبة من الاضطهاد العنيف ضد الكاثوليك ، ويرجع هذا إلى التعصب يوريك للمذهب الأريوسى أولا ، وإلى شدة المقاومة التى لقيها خلال فتوحه فى بلاد الغال ، فضلا عن قسوته وبطشه ، وإن لم تكن هذه القسوة شيئاً فى نظر الرعايا الكاثوليك أو البلاد الكاثوليكية التى فتحها بجانب هرطقته الآثمة فى ذلك العصر الدينى[1] . اعتقد يوريك أن

---

(١) فشر (ترجمة الدكتور زيادة والدكتور الباز) ص ١٧ — ١٨ .

سعادة قومه مرتبطة بإعلاء المذهب الأريوسى ، بمعنى أنه والمتعصبين من خلفائه قد مزجوا بين العقيدة والوطنية ؛ ومن أجل ذلك صار المذهب الأريوسى علماً على القوط ويشار إليه دائماً بأنه العقيدة القوطية (La Foi Gothique) وكانت لفظة « الكاثوليكية » فى نظر يوريك كلمة مخيفة الرعبة ، وقال عنه سيدونيوس أبوليناريوس : (Sidonius Apollinarius) أسقف كايرمونت — وقد تزعم حركة الدفاع عن المدينة ضد يوريك[1] — قال إن يوريك صاحب مذهب أكثر من كونه رئيس دولة ، وتعرض سيدونيوس للنفى والمصادرة على يد يوريك[2] . هذا وأعدم يوريك الكثير من الأساقفة الكاثوليك .

هكذا كانت سياسة يوريك الدينية فى بلاد الغال ، وليست هناك معلومات كافية عن تفاصيل سياسته الدينية فى أسبانيا ، ويبدو أنها لم تخالف ما اتبعه فى أكويتانيا[3] . أما ابنه ألاريك الثانى (٤٨٦ — ٥٠٧م) فقد كان أكثر تسامحاً منه نحو الكاثوليك لأغراض سياسية ، لأنه رأى كلوفس الفرنجى وقد اعتنق المسيحية الكاثوليكة بعد وقعة سواسون قد انفصل عن زمرة أو نطاق الملوك الجرمان الأريوسيين وأضحى الفرنجة بعد انتصارهم فى سواسون الورثة الحقيقيين للولاية الرومانية فى الغال حيث رحب بهم الغاليون ، لذا لم ير ألاريك الثانى بداً من التسامح مع رعاياه الكاثوليك ، حتى سمح لهم بعقد مجلس دينى خاص بهم عام ٥٠٦م[4] . ولكن سياسة التسامح لم تستمر طوال عهود خلفائه جميعاً من بعده ، كما أن كراهية الكاثوليك لم تزل أو تخف حدتها ، فيذكر عن الملك أجيلا (٥٤٩ — ٥٥٤م)

---

(١) راجع ص ٩٥ .

(٢) Lecl., pp. 232-4; Stevens: Sid. Apoll , pp. 191-194 Deanesly, p.96

(٣) Lecl., p. 232

(٤) Lecl., p. 234; Deanesly, p. 97

أنه كان يكره الكاثوليك ولما قرر نقل العاصمة إلى ماردة ليكون فى موضع أنسب لبسط سيادته الفعلية على حكام الأقاليم فى الأندلس ، لقى مقاومة عنيفة من الكاثوليك الذين ثاروا ضده فى قرطبة وهزموه وقتلوا ابنه[١] ، وفى سبيل الحصول على العرش القوطى استنجد أثاناجلد المنافس لأجيلا بالأمبراطور جستنيان ، فكان طبيعياً أن تحسن علاقته بالكاثوليك وأدى ذلك إلى زيادة الأخذ بأهداب الحضارة البيزنطية على عهد أثاناجلد ، وذهب إلى أبعد من هذا حين أصهر إلى الفرنجة الكاثوليك بتزويج ابنتيه فى بيت الفرنجة ، وفى أحضان الفرنجة اعتنقت هاتان الابنتان الكاثوليكية ، ورغم أن أباهما لم يعلم بهذا التحول ، إلا أنه كان متسامحاً مع الكاثوليك ونجحت مهادنته لهم وارتباطه الدموى بالبيت الفرنجى فى حماية أملاكه الغالية من هجوم الفرنجة ، وكان من أثر هذه السياسة أن رشح الرعايا الغاليون للقوط ، ليوفا بن أثاناجلد ليكون ملكاً عليهم[٢] فكان هذا عاملا فى أن يشترك فى الحكم مع أخيه ليوفجلد عام ٥٦٨ م ، ولكن ليوفجلد كان على رأس الحزب القوطى (Pro-Gothic) الذى يعارض سياسة الميل نحو بيزنطه والتقاليد الرومانية ، فاتجهت سياسته الحربية إلى إخضاع جميع شبه جزيرة أيبريا وهذه اقتضت منه أن يحارب البيزنطيين وأن يطردهم من بعض المناطق التى احتلوها بجنوب أسبانيا على عهد أبيه ، ولما ثارت قرطبة قمعها بعنف ونكل بالكاثوليك أسوأ تنكيل كما هزم الفرنجة الذين حاربوه وأثاروا ضده السويف[٣] .

ورغم ما عرف عن ليوفجلد من التعصب الشديد للأريوسية والتنكيل بالكاثوليك إلا أنه لم يقس إلا على الأساقفة الكاثوليك الأشد خطراً على

---

(١) Lecl., pp. 251 - 4; Lot, p. 150 ؛ راجع ص ١٠٢ .

(٢) راجع ص ١٠٤

(٣) Deanesly, p. 100 ، راجع ص ١٠٥ .

سلطانه وسياسته ، أما الكاثوليك فقد تسامح معهم بعد ذلك[١] ، على أن بوادر التحول إلى الكاثوليكية قد ظهرت على عهد ليوفجلد . حدث أن تزوج هرمنجلد (Hermengild) أكبر أبناء الملك من الأميرة انجندس (Ingundis) وهى أميرة أسبانية كاثوليكية ، وحاول ليوفجلد أن يغرى زوجة إبنه بالتحول إلى الأريوسية ولكنها رفضت ، فأرسلها مع زوجها ليعيشا فى أشبيلية خشية انقسام عائلى ، وفى أشبيلية وقع الزوجان تحت تأثير أعظم شخصية كاثوليكية فى أسبانيا وهى شخصية ليندر (Leander) ، أسقف المدينة ، وهو رجل على درجة كبيرة من الثقافة الدينية فضلا عن نبوغه للموسيقى وسعة الإطلاع ، و بتأثير هذا الأسقف بجانب زوجته تحول ارمنجلد إلى الكاثوليكية عام ٥٧٩ م ، وحين سمع به أهل الأندلس ، تحمسوا له ونادوا به ملكا[٢] ، ولما كان أبوه يحاول جاهداً فى توحيد أسبانيا جميعها تحت زعامة حكومة أريوسية ، كتب إلى ابنه بالرجوع إلى الأريوسية ولكن الإبن رفض[٣] .

كان يظاهر الإبن ، الملك مير (Mir) ملك السويف الذى اتخذ نفس هذه الخطوة وتحول إلى الكاثوليكية منذ عام ٥٦٠م[٤] ، فدخل هرمنجلد فى مفاوضات معه وكذلك مع الإمبراطورية البيزنطية ، جاءت تصرفات الإبن خطيرة على سياسة أبيه لأنها تنذر بتكوين حزب كبير قوى يناهض سياسة أبيه الدينية والحربية ، وتتمثل عناصر الحزب فى الإمبراطورية البيزنطية والبسقاويين والنبلاء الرومان فضلا عن الرعايا الكاثوليك .

---

(١) Deanesly, p. 100

(٢) Lot, p. 179

(٣) Deanesly, p. 100; Oman, p. 137; Lecl., p. 254

(٤) غير السويف مذهبهم الدينى أكثر من مرة : اعتنقوا المسيحية الكاثوليكية أول الأمر عند دخولهم فى المسيحية ، ثم تحولوا إلى الأريوسية حوالى عام ٤٦٦م ثم عادوا إلى الكاثوليكية عام ٥٦٠م .

لم ير ليوفجلد بداً من شن حرب دينية ضد ابنه وأحلافه ، ولكنه قبل أن يتخذ هذه الخطوة أراد أن يقوم بعمل مضاد ، فجمع الأساقفة الكاثوليك فى مجمع عام فى طليطلة عام ٥٨٠م وأخذ يغريهم باعتناق الأريوسية[١] ، ووعدهم بعطفه وتأييده وعفوه فى نظير ذلك ، ثم أوضح لهم أن أمر تحولهم إلى الأريوسية لن يستغرق جهوداً كبيرة أو طقوساً جديدة بل يكفى مجرد المصافحة ، ولا حاجة إلى تعميد ثان ، ومثل هذا التعميد كان مؤكداً قبل ذلك ، وافق بعض الأساقفة مثل فنسنت (Vincent) أسقف سرقوسة ، غير أن أغلبهم رفض فاضطهدهم ليوفجلد أشد الاضطهاد ، فنفى البعض وأعدم البعض الآخر ، كما أعدم بعض النبلاء الكاثوليك وصادر أملاك الكنائس الكاثوليكية ، ومن ثم فقدت هيئة الاكليروس الكاثوليكى مكانتها وامتيازاتها[٢] .

التفت ليوفجلد بعد ذلك إلى حرب ابنه وأحلافه ، وكانت حرباً دينية أكثر منها سياسية ، فانتصر على السويف والبسقاويين ، ولتخليد انتصاره أسس مدينة فكتوريا كوم (Victoriacum) لتراقب حركات البسقاويين ، وهى مدينة فيتوريا الحديثة (Vitoria) وفى الفترة ما بين ٥٨١ ، ٥٨٣ م انتصر على السويف والإغريق من أحلاف ابنه ، وأجبر ابنه على التقهقر بقواته إلى حد نهر الوادى الكبير وأشبيلية ، وفى اشبيلية اعتصم هرمنجلد فحاصرها أبوه مدة سنتين واستولى عليها ، فهرب ابنه إلى قرطبة ولجأ إلى الكنيسة بها فأرسل له أبوه أخاه ركارد يطلب إليه الخروج من ملجأه و يعده بعفو أبيه عنه فلما رفض جاء ليوفجلد واستدرجه حتى خرج من المدينة فنفاه إلى فالنسيا عام ٥٨٤ م ، وأواخر أيام هرمنجلد غير معروفة ، ويحتمل أن أباه سجنه أخيراً فى ترجونه

---

(١) C. med. H , II, p. 169

(٢) Lecl., p. 259; Deanesly, p. 101

وأرسل له أسقفا أريوسيا ليحوله ويعده بالعفو التام ، فأصر الإبن على الرفض وطرد الأسقف فأمر ليوفجلد بإعدامه ٥٨٥م ،ولذا اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد ضمن القديسين الشهداء[١] .

وانتهت حروب ليوفجلد ، بعد ذبح ابنه ، ضد السويف بالاستيلاء على المدن السويفية بونتا (Bonta) وبراجا ، وكان ملك السويف قد مات منذ ٥٨٣ م ، فضمت مملكته بعد ذلك إلى مملكة القوط الغربيين[٢] ، أما حروب ليوفجلد ضد الفرنجة الكاثوليك فلم تكن موفقه ، إذ نظر الفرنجة إلى ابنه القتيل باعتباره من الشهداء ، وماتت زوجة القتيل فى ملجئها بإفريقية البيزنطية وتحالف أخوها مع البرجنديين على الانتقام من ليوفجلد ، فغزا البرجنديون سبتمانيا وأرسل الفرنجة أسطولا لإثارة السويف ، ولكن الأسطول تحطم على يد ليوفجلد كما انتصر ابنه ركارد على البرجنديين وطردهم ، ثم مات ليوفجلد عام ٥٨٦ م بعد أن بذل جهوداً جبارة لتوحيد مملكته وتوسيع رقعتها ونشر الأريوسية ، وسلك مسلكا عنيفاً ضد كل من وقف فى سبيله[٣] .

وأهم ما يعنينا فى حياة خليفته وابنه ركارد (٥٨٦ـ٦٠١) فى هذا الصدد هو التحول الرسمى للقوط الغربيين إلى الكاثوليكية ، إذ كان ركارد يسر الكاثوليكية ويعلن الأريوسية[٤] . وكان الأسقف ليندر الذى حول هرمنجلد إلى الكاثوليكية من قبل قد فر لاجئاً إلى القسطنطينية ، وهناك التقى بالمبعوث الدينى للبابوية وهو جريجورى الذى صار فيما بعد البابا جريجورى الأول ، ولما كان الإثنان من أصل لاتينى ويجيدون اللغـــة الإغريقية ، وهما من الرهبان أصلا ، فقد نشأت بينهما

---

(١) Lecl., pp.260-4, Deanesly, p.101; Lot, pp.179-180; Oman, pp.138-9

(٢) Deanesly, p. 101

(٣) Deanesly, p. 101; Lecl., pp. 258 - 9

(٤) Lot, p. 180

ضلالات قوية ، ولهذا أثره فيما بعد ، ظل ليندر فى بيزنطة من ٥٧٩ إلى ٥٨٦ م حتى إذا علم بوفاة ليوفجلد وولاية إبنه ركارد فكر فى العودة إلى أسبانيا ، كما عاد ماسونا (Masona) أسقف لارده من منفاه .

ولم تكد تنتهى عشرة شهور فقط على ولاية ركارد حتى أعلن تحوله إلى المذهب الكاثوليكى ، وذلك فى حفل أقيم بكتدرائية طليطلة فى يوم الأحد ١٣ من أبريل عام ٥٨٧ م واستعار الاصطلاح البيزنطى للبطريق (Katholikos) ، وليس صدفة أن يجىء تاريخ عقد هذا المجلس لإعلان الكاثوليكية موافقاً لتاريخ إعدام أخيه هرمنجلد (١٣ أبريل ٥٨٥ م) مما يؤيد ميول ركارد الكاثوليكية وإن لم يجرؤ على الجهر بها خلال حياة أبيه .

ونص قرار التحول الذى اتخذه مجلس طليطلة .

« باسم الله المقدس ، إن كنيسة القديس مارى قد جعلت بطريقية كاثولكية فى أبريل من السنة الأولى من حكم الملك المنصور فلافيوس ركارد[1] » .

بهذا التحول توقف الاضطهاد ضد الكاثوليك واعتنق الكثير من الأساقفة الأريوسيين الكاثوليكية ، وعمد ركارد نفسه على الطريقة الكاثوليكية بالزيت المقدس على يد أساقفة كاثوليك فى طليطلة . ثم انعقد بعد ذلك مجلس طليطلة الثالث فى ٨ مايو عام ٥٨٩ م للتصديق على هذا التحول وإقراره ، وحضر هذا المجلس : ٦٢ أسقفاً ، ٥ من رؤساء الأساقفة ، أى أنه ضم جميع أساقفة الإمبراطورية القوطية التى تضم أسبانيا ونار بونه الغالية ، وانعقد برئاسة الملك وحضور الملكة وكثير من النبلاء ومن الأساقفة البارزين : ليندر أسقف أشبيلية ، ماسونا أسقف لارده ، إيوفيموس (Euphémius) أسقف طليطلة ، مجتيوس (Migetius) أسقف ناربون ، بانتاردوس (Pantardus) أسقف

(١) Lecl., p.277; C. med. H. II, pp.171-2; lot, p.180; deanesly, p.102

براجا فى غاليسيا وكذلك الأساقفة الأريوسيون وكثير غيرهم من الكاثوليك ، وبعد مناقشة شكلية وبعض الجدل اللاهوتى أعلن المجلس موافقته على قرارات المجامع الدينية المسكونية التى انعقدت من قبل نيقيا عام ٣٢٥م والقسطنطينية عام ٣٨١ وأفزوس عام ٤٣١ وخلقدونية عام ٤٥١[١] . ثم سجلت أسماء الأساقفة الأريوسيين الذين اعتنقوا الكاثوليكية وعددهم ٨ وتقرر رفض الهرطقة .

أصدر هذا المجلس ٢٣ قانوناً أو قراراً ختمها بقرار توعد فيه من يخرج عليها بالعقاب الصارم ، وتتضمن هذه القوانين تنظيم هيئة الأكليروس الكاثوليكية وأموالها والتزامات رجالها ، وما يتعلق بحياة رجال الدين (القانون ٧) وأعمالهم وضرورة مداومة تلاوة الكتاب المقدس ، وكذلك ما يتعلق بمظاهر رجال الدين ، ومن بين هذه القوانين ما يتعلق باليهود وتحريم زواجهم مع المسيحيين (قانون ١٤) ، ويحرم القانون (٢٣) الرقص والأغانى غير الشريفة أيام الأعيـــــاد ...

وقع الملك هذه القرارات ثم تبعه الأعضاء ، واختتم ليندر أسقف طليطلة ، وأبرز الأساقفة المعاصرين على الأطلاق ، الجلسة بخطاب أوضح فيه اغتباط الكنيسة الكاثوليكية بتحول القوط الغربيين إلى الإيمان الصحيح[٢] .

كان لهذا التحول نتائجه الكبيرة فى التأثير المباشر لحضارة بيزنطة وتقاليدها ولا سيما حين اقترح الملك فى المجلس اتباع التقاليد الإغريقية فى جعل هذا الحدث فى حفل دينى عام ، ويرجع هذا إلى نفوذ الأسقف ليندر ، ولذا فعهد ركارد يؤرخ ليس فقط لسياسة دينية جديدة ولكن لحضارة وتقاليد تختلف عما كان سائداً فى دولة القوط من قبل ، فإذا أضيف إلى هذا تقرير ركارد اتخاذ اللغة اللاتينية

---

(١) للمجامع الدينيـــة أنظر Précis, II, pp. 24 - 50 ؛ ابن المقفع ، تاريخ المجامع ص ١٦١ وما يليها ؛ Hardy : Christian Egypt, p. 54

(٢) Lecl., pp. 282 - 5

لغة رسمية فى الدواوين وفى العبادة ، أمكن إدراك مدى أهمية هذا التحول فى تاريخ القوط . ومن ناحية أخرى أدت هذه السياسة الدينية إلى نتائج سياسية واجتماعية خطيرة ، فقد ساعدت على ربط العناصر الخاضعة لدولة القوط وتوحيدهم روحيا ، وقد انقضى الوقت الذى كانت فيه أسبانيا القوطية مكونة من عناصر متباعدة ومنقسمة جنسيا وروحيا ، من السويف والأسبان الرومان ، يضاف إلى ذلك التشريعات القانونية وتقرير ركارد للمساواة بين جميع الرعايا[١] .

وقد أشاد إيزدور — أسقف أشبيلية — بعهد ركارد وأخلاق ركارد ، واعتبره أعظم فترة ناجحة وموفقة فى التاريخ القوطى ، إذ أن مشروعات أبيه الحربية قد انتهت بالسلم والهدوء وسيادة الأمن[٢] .

وفضلا عما كان لهذا التحول من أثر بالغ فى استقرار الأحوال الداخلية لدولة القوط الغربيين ، فإن هذا الأثر قد وصل إلى الخارج ، إذ حسنت علاقة القوط بالبابوية و بالدولة البيزنطية ، وحدث بعد أربع سنوات فقط من اعتناق ركارد للمذهب الكاثوليكى ، أن كتب إلى البابا جريجورى الأول يزف إليه هذا الخبر ، وضمن رسالته هدية ثمينة عبارة عن قدح أو كأس من ذهب مرصعة بالجوهر على شكل الزهرة ، يستعمل فى العشاء الربانى الأخير ، كما طلب إلى البابا أن يتوسط بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية فيما يتعلق بالمعاهدات (Pacta) القديمة التى ترتبط بالأملاك البيزنطية فى جنوب أسبانيا منذ عهد جستنيان[٣] ، أجابه البابا مهنئا بالعودة إلى العقيدة السليمة وأشفع رسالته بهدية هى قطعة من خشب الصليب الأصلى ومفتاح كنيسة القديس بطرس وبه قطعة من بقايا السلسلة

---

(١) Lecl., pp. 277, 286-9; Dozy, II, p. 20; Deanesly, p. 102
الحلل السندسية جـ١ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

(٢) Deanesly, p. 102; Lecl., p. 288

(٣) Deanesly, pp. 102 - 3 ; Perroy, p. 22

التى كان مصفداً بها فى سجنة ، كما كتب إلى الإمبراطور موريس فيما وسّط فيه[١].

ثبتت دعائم المذهب الكاثوليكى فى أسبانيا القوطية منذ ذلك الوقت ، ولم تفلح المحاولات التى بذلت لإعادة الأريوسية ، على يد أقلية قوطية ظلت على أريوسيتها بزعامة الكونت ويترك (Witterio) ، الذى انتزع العرش من ليوفا الثانى (Leova II) ابن ركارد عام ٦٠٣م ، وحكم سبع سنوات قضاها فى محاولة نقض سياسة سلفه الدينية لكنه فشل وقتل عام ٦١٠م ، وتلاه ملوك كاثوليكيون ظلوا يحافظون على الكاثوليكية حتى زوال دولة القوط[٢].

* * *

و إذا كانت دولة القوط قد تخلصت من سياسة الاضطهاد المذهبى ضد الكاثوليك وأصبح جميع الرعايا متقاربين روحياً واجتماعياً ، فإنها لم تفعل شيئاً بأزاء الأقلية اليهودية الكبيرة ، إذ ظلت على اضطهادها والتنكيل بها ، والواقع إن العصبية الدينية ، فى العصور الوسطى ، وهى عصور دينية أكثر منها سياسية أمر مألوف ، فإذا كان التعصب المذهبى قد شغل معظم تواريخ الدول فى العصور الوسطى ، فأحر بالتعصب الدينى أن يشغل جميع تواريخها.

وبجانب هذا العامل العام ، هناك من الأسباب المباشرة ما أوقع يهود أسبانيا القوطية تحت طائلة الاضطهاد ، رغم تمتعهم بالحرية الدينية بعض الوقت ، وسواء أكانت الدولة القوطية على الآريوسية أم الكاثوليكية ، فإنها لم تكف عن اضطهاد اليهود ، وأهم سبب مباشر هو تحكم اليهود فى تجارة البحر الأبيض وموانى أسبانيا الجنوبية بصفة خاصة منذ عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة ،

---

(١) Deanesly, p. 103; Lot, p. 180

(٢) Lecl., pp. 295 - 7; Deanesly, p. 103

وامتلاكهم الكثير من الأراضى ، وبررت الكنيسة القوطية سياستها نحو اليهود، بأن ما يلقونه من اضطهاد وتنكيل إنما هو عقاب من الله بسبب غضبه عليهم [١] .

أصدر ملوك القوط عدة تشريعات ضد اليهود ، وأهمها ما بدأ به الملك ألاريك الثانى (٤٨٤ — ٥٠٧م) حين أصدر مجموعة القوانين الرومانية التى نشرها باسم (Breviarum) [٢] ، فقد ضمن هذه المجموعة عدة قوانين تحرم على اليهود الزواج من المسيحيات أو اقتناء عبيد مسيحيين أو الاشتغال فى وظائف الدولة ، مع ترك الحرية الدينية لهم ، يمارسونها وفق تقاليدهم وطقوسهم ، فكان لهم قوانينهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة ، وبمرور الزمن ازداد عددهم وتضخمت ثرواتهم فأهمل هذا القانون ، وارتكب اليهود جميع ما حرم عليهم ، حتى أن مجلس طليطلة الثالث الذى عقد لإقرار العقيدة الكاثوليكية عام ٥٨٩ على عهد ركارد ، جدد هذه القوانين وقرر اتباع سياسة العنف ضد اليهود ، فتبعاً للقانون (١٤) من قوانين هذا المجلس تقرر تعميد الأطفال اليهود الذين أنجبوا من الزواج المختلط وحرمان اليهود من الوظائف أو شراء عبيد مسيحيين ، وبالغ الملك سيسبت (٦١٢ — ٦٢١) فى سياسة الاضطهاد ، فأقام مذبحة لهم عام ٦١٦ م وأمر جميع اليهود باعتناق المسيحية خلال عام واحد ، فإذا انتهى الأجل وظلوا على عقيدتهم يعذبوا وينفوا وتصادر أموالهم ، وأدت سياسته هذه إلى أن دخل المسيحية من اليهود نحو ٢٠ ألف ، خشية البطش بهم ، وإن كان هذا الاعتناق ظاهرياً ، فقد ظلوا يمارسون طقوسهم فى الخفاء ويلقنونها لأطفالهم ،لأن من العسير إن لم يكن من المحال إجبار عدد كبير من الناس على اعتناق عقيدة ما بالقسر ، ولاحظ

---

(١) Dozy' II, pp. 25 - 7

(٢) أنظر التشريعات القانونية .

هـذا مجلس طليطلة الرابع الذى عقد عام ٦٢٣ على عهد الملك سيسناند (Sisenand) (٦٣١ — ٦٣٦) ، فقرر تجديد القوانين السابقة ، وتضمنت القوانين التى أصدرها هـذا المجلس عشرة تتعلق باليهود (من قانون ٥٧ إلى قانون ٦٦) وينص أحد هذه القوانين على أنه فى المستقبل لا ينبغى إجبار يهودى على اعتناق النصرانية ، على أن يظل أنئك الذين أجبروا على اعتناقها فى عهد سيسبت ، على المسيحية وكذلك الذين ارتدوا عن المسيحية ورجعوا إلى اليهودية فهؤلاء تجب إعادتهم قسراً إلى العقيدة الصحيحة ، ويطرد اليهود من الوظائف العامة ، ومن يتزوج مسيحية يجبر على اعتناق المسيحية أو الانفصال عن زوجته[١]

على أن الكنيسة القوطية اتخذت خطوة جديدة بصدد السياسة الدينية نحو اليهود ، فقد حملت مجلس طليطلة السادس الذى انعقد عام ٦٣٨م على عهد الملك شنتلا (ت ٦٠٤ م) ، على أن يقرر تحريم العرش القوطى فى المستقبل على أى ملك ما لم يتعهد بإصدار المراسيم اللازمة العنيفة ضد اليهود[٢] . وظلت السياسة الاضطهادية نحو اليهود لم تخف حدتها ، حتى أن الملك ركسونت (ت ٦٧٢م) ، أمر برجم المارقين عن العقيدة المسيحية أو إحراقهم أحياءاً أو على الأقل تهديدهم بهذا العقاب ، وكان ذلك بمقتضى قرارات مجلس طليطلة الثامن الذى عقد عام ٦٥٣ م ، فقد لاحظ هذا المجلس أن أعداد اليهود لم تزل كبيرة فى أسبانيا رغم الاضطهادات السابقة وأن كثيراً منهم لم يزل يمارس عقيدته سراً[٣] .

وربما كانت قوانين المجلس الثانى عشر الذى عقد عام ٦٨١م على عهد الملك إرفيج (٦٨٠ — ٦٨٧م) من أقوى القوانين التى صدرت ضد اليهود

---

(١) Dozy, II, p. 26; Deanesly, p. 104; Lecl., p. 306

(٢) Lecl., pp. 312 - 13; Dozy, II, p. 27

(٣) Deanesly, p. 105; Lecl., p 333

وأشملها تنكيلا وإعناتاً ، فقد صادق هذا المجلس على ٢٠ قانوناً أصدرها الملك ، ومن بين هذه القوانين :

قانون رقم ١ — تنفيذ جميع القوانين السابقة ضد اليهود .
قانون رقم ٢ — ضد الذين يسبون الثالوث .
قانون رقم ٣ — ضد الذين هربوا أو تملصوا من التعميد من اليهود أو من أبنائهم .
قانون رقم ١٠ — منع اليهود من قراءة الكتب التي تحرمها المسيحية .
قانون رقم ١١ — منع اليهود من امتلاك عبيد مسيحيين .
قانون رقم ١٣ — منع اليهود من القبض على المسيحيين أو تعذيبهم .
قانون رقم ١٤ — إطلاق سراح العبيد المسيحيين عند اليهود .
قانون رقم ١٦ — إلزام اليهود بالحضور في أوقات معينة أمام الأسقف . . الخ[١] . . .

جاءت هذه القوانين في وقت غير مناسب إذ كانت الفتوح الإسلامية تقترب من دولة القوط ، فلم يكن لدى اليهود وغيرهم من الناقمين على حكومة القوط بأس من التطلع إلى المساعدة الخارجية ، ولم يرعو ملوك القوط المتأخرون ، فظل أجيكا (٦٨٧ — ٧٠١) على سياسة أسلافه في اضطهاد اليهود ، وهم يئنون ويتوجعون ، وتقدر فترة الاضطهاد التي قاساها اليهود في أسبانيا بنحو ثمانين عاما ، وهي الفترة الأخيرة من حكم القوط أنفسهم ، وأدى الأمر باليهود إلى الاشتراك في المؤامرات ، أهمها المؤامرة التي دبرها اليهود على عهد اجيكا ، قبل الفتح العربي بسبعة عشر عاما أي في عام ٦٩٤ م وانضم إليهم اليهود المقيمون عبر

---

(١) Lecl., pp. 342 - 4

المضيق من القبائل البربرية التى تدين باليهودية ومن اليهود المنفيين من أسبانيا. اتفق الجميع على إشعال نار الثورة فى أماكن مختلفة فى وقت واحد ، على أن يتقدم يهود أفريقية فى الوقت المضروب إلى شواطىء أسبانيا ، كذلك اتفقوا مع العرب على مساعدتهم بشرط أن يمنحوهم الحرية[١]. ومن حسن حظ حكومة القوط مؤقتاً ، أن كشفت المؤامرة قبيل الوقت المحدد لتنفيذها ، فاتخذ الملك أجيكا الاحتياطات اللازمة وعقد المجلس السابع عشر فى نفس العام واستصدر منه عدة قرارات خلاصتها مصادرة جميع أموال اليهود واسترقاقهم وبيعهم وتوزيعهم على المسيحيين وحتى على العبيد المسيحيين أنفسهم الذين كانوا فى خدمة اليهود ومنحهم الملك حرياتهم[٢] . . .

وأيا كانت الاحتياطات والوسائل التى اتخذها أجيكا للضرب على أيدى اليهود وقمع شوكتهم ، فإن هذه السياسة التعصبية نحو اليهود كانت من بين عوامل الهدم للدولة القوطية وعلى طى صفحة التاريخ القوطى نفسه .

---

(١) Lecl, p. 353

(٢) Dozy, II, pp. 27-8; Bradley, pp. 355-6; Oman, p. 232

(٣) Lecl. p. 353

٣ — النهضة الأدبية والفكرية

طابعها — المكتبات — جهود الملوك والأمراء الأدبية والفكرية — اللغة القوطية واللغة اللاتينية — إيزدور الأشبيلى — الفنون القوطية .

بدأت مطالع نهضة أدبية وفكرية تظهر فى دولة القوط الغربيين منذ القرن الخامس الميلادى ، وجاء ذلك بعد أن هدأت حركات الغزو الخارجى ، ولم يعد لدى القوط من عمل سوى بسط سيادتهم داخل شبه جزيرة أيبريا وحمايتها من المعتدين[١]؛ والملاحظ على النشاط الفكرى والثقافى فى دولة القوط أنه لم يخرج عما اشتهرت به العصور الوسطى عامة من اتجاه دينى غالب ، وأن أعلام الفكر فى تلك العصور إنما هم من رجال الدين ، بل إن أعظم شخصية سيطرت على تاريخ الثقافة والتعليم عند القوط الغربيين ، هى شخصية إيزدور الأشبيلى رئيس أساقفة طليطلة فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى[٢] ؛ على أن هذا لا يعنى نضوب العصر من ذوى الفكر والإنتاج العقلى من غير هذه الطبقة ، فمن الملوك والأمراء من نال ثقافة عالية ، وأسهم بنصيب فى هذا المجال ، من هؤلاء : ركارد الأول وسيسبت (سيسيفوط عند المؤرخين المسلمين) وشندسونت[٣] وركسونث ؛ وكذلك الدوق كلوديوس (Claudius) والكونت بولجارانوس (Bulgaranus) والكونت لورنتيوس (Laurentius)[٤]؛ كذلك لا يعنى هذا أن الإنتاج الفكرى من طبقة رجال الدين اقتصر على الجانب الدينى ، فكثير من أفراد هذه الطبقة كتب فى غير الدين وشجع على

(١) Lynch, p. 34

(٢) أنظر ما يلى ص ١٧٦ .

(٣) أنظر ابن الأثير ج٤ ص ١٢١ .

(٤) C. med. H., II, p. 192

الدراسات المدنية المتنوعة، بدليل أن أغلب المؤرخين والشعراء وعلماء الأخلاق كانوا من رجال الدين أمثال أوروسيوس (Orosius) ودراكونتيوس (Dracontius) وإيدايتوس (Idatius) وتور بيوس (Toribius) ومونتانوس (Montanus) ، وغيرهم ، وأهم هؤلاء جميعاً إيزدور الأشبيلي[1] ثم معاصره هلدفونس (Ildefonso). والمعروف عن الأسقف الأخير أن مؤلفاته وتصانيفه بلغت من التنوع والانتشار درجة كبرى اختلطت معها سيرة هذا القديس بعد وفاته ، بالأساطير[2]. ثم إن القديس جوليان ، رئيس أساقفة طليطلة خلال القرن السابع الميلادى ، عرف بقرض الشعر ، وله كتاب عن تاريخ الملك وامبا (بنبان) ، يعد من أحسن ما كتب عن هذا الملك ، وله غير ذلك مؤلف جامع فى اللغة وفروعها عنوانه : فنون النحو والشعر والبلاغة (Ars Grammatic, poetica et Rhetorica) ؛ وهذا فضلا عن بحوثه الموسيقية واللاهوتية . كذلك يلاحظ أن القوط عملوا جاهدين على الإفادة من تراث الرومان حتى نسوا لغتهم القوطية وكتابتهم القوطية ، كما أن جميع مظاهر المدنية الرومانية بصفة عامة والبيزنطية بصفة خاصة ، كانت مثلا يحتذى لدى القوط الغربيين فى نشاطهم الفكرى والأدبى والفنى ؛ ويرجع ذلك إلى أن دولة القوط الغربيين ، مثلها كمثل القوط الشرقيين والوندال واللومبارد نشأت فى حوض البحر الأبيض الملىء بالآثار الرومانية ، من معابد وقصور وكنائس ، وهذه لم تدمر كلها خلال حركات الغزو والفتح ، وبعد زوال الأمبراطورية الغربية عام ٤٧٦ م ، وهو العام الذى بلغت فيه امبراطورية القوط الغربيين أقصى اتساعها ، بدت روما الشرقية بالنسبة لعالم البحر الأبيض النموذج الرفيع الذى يجب أن يحتذى ، كما بدت فى نفس الوقت حاملة لمشعل المدنية والمعارف ، ورغم أن أسبانيا وإيطاليا قد أفلتتا ثانيا من قبضة الإمبراطورية

---

(١) C. med. H., II, p. 192; Lynch, pp 35 - 38

(٢) Lecl., p. 347.

الشرقية ، من بعد وفاة جستنيان ، فإن بيزنطة ظلت كما هي في نظر هذه الشعوب الجرمانية مركزاً للحضارة والنور[١].

ومن أصول النهضة القوطية ومظاهرها في وقت معا ، العناية بأمر اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات ؛ وأقدم مكتبة في أسبانيا القوطية ، مكتبة دير دميو (Dumio) قرب مدينة براجا عاصمة السويف ، والمعروف أن مملكة السويف أو الجلالقة قد خضعت لدولة القوط الغربيين ، وإن كان خضوعها إسميا ، وترتبط هذه المكتبة بشخصية مؤسسها القديس مارتن البراجي ، أقدم معاصري إيزدور ، ومن أعظم المثقفين في عصره . عاش هذا القديس فترة طويلة بالشرق ، حيث مارس الرهبنة في فلسطين ، وظفر خلال إقامته بالشرق بقسط كبير من الثقافة كما أتقن اللغة الإغريقية ، ثم وفد على مملكة السويف بوصفه مبشرا ، وسرعان ما غدا رئيسا لدير دميو وهو صاحب الفضل بعد ذلك في تحويل مملكة السويف إلى الكاثوليكية عام ٥٦٠م ، وفي عام ٥٧٩م صار رئيساً لأساقفة العاصمة[٢] . ساعدته ثقافته الواسعة على ترجمة كثير من الكتب ، ومن بين الترجمات المنسوبة إليه أو إلى تلميذه باسشيس (Paschase) : مجموعة القوانين الكنيسة المستمدة من المجامع المسكونية التي عقدها آباء الشرق القدماء » و « أحكام آباء مصر » و « حياة الآباء الأغريق[٣] » . وللقديس مارتن عدة رسائل متنوعة منها رسالة كتبها إلى ملك السويف مير (Mir) ، بعنوان « سنة الحياة الفاضلة » (Formulá Vitae Honestis) ، وقد تجلت في هذه الرسالة تعاليم الفيلسوف سنكا (Seneca) إذا أوضح فيها أهمية الفضائل الأربع الرئيسية وهي :

---

(١) Deanesly, p. 94

(٢) Deanesly, p. 112; Lecl., p. 316

(٣) Lecl., pp. 316 - 17

الحصافة والنخوة والعفة والعدالة[1] . ويؤثر عن مارتن موعظة قيمة وجهها إلى أخيه الأسقف بوليميوس (Polemius) ضمنها الطرق السليمة التى ينبغى اتباعها فى هداية الوثنيين السذج من أهل الريف[2] . كانت هذه الترجمات والمؤلفات من بين ما حوته مكتبة ديرديمو ، وذلك بجانب « تعليقات وشروح القديس جيروم على رسالة القديس بولص إلى أهل غلاطية[3] » وأعمال القديس سيلفستر وغيرها من الرسائل والبحوث .

هذا وقد ترك ليكنيوس القارطاجنى فى مكتبته حوالى نهاية القرن السادس الميلادى ، عدداً كبيراً من البحوث التى قام بها ؛ وترجع أهمية هذه البحوث إلى أنه ضمنها طائفة من النصوص ، فضلا عن تراث كبار القديسين أمثال أوغسطين وهيلير وأمبروز وغيرهم[4] . ثم إن حنا البكلارى (Jean de Biclar) مؤسس دير ڤالكارا (Valcara) أسهم بنصيب وافر فى مجال التأليف والجمع ، وهو قوطى من مواليد لوزيتانيا (جليقية) ، أقام فى القسطنطينية مدة لا تزال عن سبعة عشر عاماً ، جمع خلالها معلومات كثيرة وله تاريخ (Chronique) استفاد فى كتابته من التاريخ الكنسى الذى وضعه إيزوب (Eusebius) كما استفاد من الحواشى واللاحق التى وصفها بعض كبار القديسين أمثال جيروم وفيكتور[5] .

ويتضح من رسالة للقديس بروليون (Braulion) أسقف سرقوسة ، أنه وجد فى مدينة تراجونة ثلاث مكتبات : مكتبة القديس إميليان (Emilien)

---

(١) Lecl., pp. 246 - 7; Deanesly, p. 112

(٢) Deanesly, pp. 1113-14

(٣) تتكون هذه الرسالة من ستة اصحاحات (العهد الجديد ص ٢٠٤ — ٢١١) .

(٤) Lecl., pp. 317 - 18

(٥) Ibid, p. 318

ومكتبة الكونت لوران (Laurent) والمكتبة الثالثة للقديس دومنوس (Domnus) تلميذ بروليون ، وهناك تلميذ آخر للقديس بروليون وهو جاكتاتوس (Jactatus) شغف باقتناء الكتب الثمينة ، فضمت مكتبته مؤلفات القديس أوغسطين والقديس هيلير وعدداً كبيراً من مؤلفات كبار الكتاب الدينيين . ولبروليون نفسه مكتبة قيمة ظلت تنمو باطراد وحوت عدداً كبيراً من نفائس الكتب التي خلفها الآباء القدماء أمثال كيرلس الإسكندرى ، وجريجورى العظيم ، وإيزدور الأشبيلي ؛ و يعرف عنه تشجيعه الدائب للرهبان التابعين لأسقفية ، على نسخ الكتب ، كما أنه كان حريصا على مطالبة أصدقائه الكثيرين دائماً بتزويده بما ينقصه من كتب ، فأرسل له إيزدود مؤلفه المعروف باسم « المترادفات » (Synonymes)[1].

أما المكتبة الأسقفية فى طليطلة ، فكانت تنمو من غير انقطاع ، حتى أنها فى القرن السابع الميلادى ، على عهد رئاسة القديس جوليان ، المعاصر الملك إرفيج ، أضحت غنية جداً ، كما يتضح من فهرس محتوياتها . فمن بين ذخائر هذه المكتبة : مؤلفات جوليان نفسه ، ومؤلفات الآباء القدماء أمثال أوريجينيس وترتوليان ، وأوغسطين ، وكيرلس ، ومن المؤلفات الكلاسيكية كتابات شيشرون[2]، ولكن أسقفية أشبيلية كانت تعد أهم المراكز تميزت بمكتبة كبيرة ، و بزت جميع المكتبات الأخرى ولا سيما على عهد رئاسة إيزدور ، ولها فهرس منظم وضعه ايزدور نفسه بمعاونة أخيه الأسقف ليندر ، فلم تقتصر محتوياتها على الكتب الدينية المسيحية ، بل ضمت كثيراً من المؤلفات الوثنية ؛ مثل فلسفة أرسطو وأفلاطون ، وفى العلوم مؤلفات أراتوس (Aratus) وغيره ، وفى فروع اللغة اللاتينية وآدابها نجد مؤلفات شيشرون وكونتليان ، وفى القانون

---

(١) Ibid, pp. 319 - 21

(٢) Ibid, pp 318 - 19

مجموعة تيودسيوس ، وكذلك فى الطب والتاريخ والشعر والفنون المختلفة [١].

هكذا تتضح كيف كانت العناية فى دولة القوط الغربيين منصبة على جمع المؤلفات واقتنائها والإفادة منها ، مما يدل على أن القوط كانوا يحاولون فى نشاطهم الفكرى لا مجرد تقليد الرومان ، بل إنهم رغبوا حقيقة فى التفوق عليهم ؛ على أن النشاط الفكرى لم يقتصر على رجال الدين ، فهناك من ملوك القوط من كان له نشاط أدبى ملحوظ ، أمثال سيسبت وركسونث وواميا ، كان هؤلاء جميعاً على درجة كبيرة من الثقافة وتنوع المعرفة ، فمن التراث الفكرى للملك سيسبت (٦١٢—٦٢٠) مؤلف كتبه فى تاريخ ملوك القوط ، وفى سيرة القديس ديزيدريوس ، وعرف عنه سعة الإحاطة بعلوم النحو والبلاغة والمنطق ، ورغم أن شعره ردىء ، إلا أن له عدة رسائل قيمة ؛ لذلك يعتبر هذا الملك فريداً فى سلسلة ملوك القوط الغربيين [٢]. كذلك اشتهر الملك ركسونث (٦٥٣ — ٦٧٢) بأنه صديق النصوص الصحيحة المحققة [٣].

* أما اللغة القوطية ، فالمعروف أن القوط تميزوا عن غيرهم من العناصر الجرمانيـة بأن لهم لغة مكتوبة ، لها أبجدية تعرف باسم الحروف الرونية (Runic Character) ؛ عثر على بقايا هذه الكتابة فى شمالى أوروبا ؛ على أن كلمة رون (Rûn) ، ومعناها غامض أو سر ، ترجع إلى بعض عقائدهم . ورغم أن الأنجلوسكسون استعملوها إلا أن الاستخدام الواضح كان لدى القوط والقبائل المتحالفة معهم ، ولا سيما عند ما كان القوط فى منطقة مؤيسيا ؛ أما الفرنجة أو الآللانى أو الباڤاريون ، فلم يعرفوا شيئاً عن هذه الحروف . وقد اختلف فى أصل هذه الأبجدية ، فمن قائل إنها ترجع إلى أصل فينيقى نقل

(١) Ibid, pp, 323 - 225

(٢) Lecl., pp. 298 - 302; Oman, pp. 322 - 3

(٣) Lecl., p. 318

بواسطة المغامرين من البحارة الفينيقيين إلى شعوب شمالى أوروبا ، أو أنها حروف لاتينية نقلها البحارة والجنود الرومان ، ثم حرفت ؛ والراجح أنها من أصل إغريقى نقلت من المستعمرات الإغريقية القديمة المنتشرة على شواطىء البحر الأسود ، إلى شمالى أوروبا حيث توجد مساكن القوط الأولى[١] .

ويبدو أن اللغة القوطية والحروف القوطية قد اختفت فى وقت مبكر عند ما كان القوط فى أسبانيا ، ولم تترك أثراً فى اللاتينى الدارج الذى استخدمه القوط ، ومن هذه اللغة اللاتينية الدارجة تفرعت الثلاث لغات التى سادت شبه جزيرة ايبريا فيما بعد وهى اللغة القشتالية والغاليسية البرتغالية والقطالونية . أما اللغة اللاتينية الفصحى القديمة أو الكلاسيكية ، فقد عرفها العلماء ورجال البلاط واستعملوها فى التخاطب والكتابة[٢] ، فمثلا كتب الملك سيسبت سيرة القديس ديدلى (Didier) — أسقف ڤينا الذى أعدم وعد من الشهداء — بلغة لاتينية فخمة ، كذلك كانت رسائله مع أساقف سرقوسة ؛ وبعد تحول القوط إلى الكاثوليكية على عهد ركارد ، اتخذت اللغة اللاتينية لغة رسمية فى الدواوين والطقوس الدينية[٣] ؛ وكما نسى القوط لغتهم وكتابتهم كذلك كان الشأن عند السويف الذين اتخذوا اللاتينية ، وكان القديس مارتن رئيس أساقفة العاصمة السويفية يلقى تعاليمه ومواعظه باللاتينية[٤] .

ولذلك نجد أن جميع آداب القوط التى خلفوها مكتوبة باللاتينية ، ويتعلق أغلبها بمسائل دينية . على أن النموذج الرفيع للنهضة الثقافية المعاصرة فى دولة القوط الغربيين إنما يتمثل فى شخصية إيزيدور الأشبيلى — Isidore —

(١) Bradley, pp. 367 - 370; Hodgkin, 1, pp. 36 - 39, 102 - 111

(٢) Lecl , p. 327

(٣) Lot, p. 181

(٤) Lecl., pp. 327-350

(٥٧٠ — ٦٣٦م) فقد كان الشخصية التى سيطرت على تاريخ الثقافة فى أسبانيا القوطية[١] ، ففى شخصية هذا الأسقف ازدهرت الآداب اللاتينية بل غدا اسمه علماً على هذه الآداب .

وإيزدور من أصـــل رومانى[٢] ، فهو وأخواه ليندر (Leander)، وفلوجنتيوس (Flugentius) وكذلك الراهبة فلورنتينا (Florentina) أبناء سيفريانوس (Severianus) النبيل الرومانى ، ولد هذا النبيل فى قرطاجنة من أعمال أسبانيا ، وبعد وفاته انتقلت أسرته إلى أشبيلية حيث صار الأولاد الثلاثة أساقفة : ليندر (٥٧٩ — ٦٠٠م) ومن بعده إيزدور (٦٠٠ — ٦٣٦م)، وفوجنتيوس أسقف مدينة استيجي (Astigi) — ويسميها العرب استجه — من أعمال اشبيلية وذلك فى الفترة (٦٠٠ — ٦٣٣م) ؛ أما الأخت فلورنتينا فقد صارت رئيسة دير ، وكتب لها أخوها ليندر رسالة عن قواعد ونظم الراهبـــات عنوانها : (De Institutione Virginum) تحتوى على إحدى وعشرين فصلا وتعــد مرجعاً أساسياً لتاريخ ونظام الديرية النسائية فى دولة القوط الغربيين[٣] . وعرف عن ليندر اشتغاله بالأمور السياسية على عهد ليوفجلد (٥٦٧ — ٥٨٦) وابنه ركارد الأول (٥٨٦ — ٦٠١) ، كما أسهم فى الدراسات الدينية بالمـدرسة التى أنشأها فى أشبيلية ، وله اهتمام خاص بدراسة الموسيقى الإغريقية ؛ ثم إنه كان روح المجامع الدينية والسياسية التى كثرت على عهد ركارد الأول[٤] ، وترجم له أخوه ايزدور فى كتابه الذى أصدره بعنوان : « عن حياة المشاهير (De Viris Illustribus) »

(١) C. med. H. II, p. 192; Deanesly, pp. 108 - 109

(٢) Lot, p. 181

(٣) راجع تفاصيل هذه الرسالة فى Leci ص ٢٩٠ — ٢٩٣ .

(٤) Ibid, p 289

وذكر أنه عمل راهباً ثم صار أسقفاً لولاية بايتيكا (الأندلس) ، وأنه امتاز بالبلاغة والجد فى الكتابة والتشهير بالأريوسيين ، وله بحوث لاهوتية متنوعة[١] .

أما عن حياة ايزدور الخاصة ، فالمعروف عنها قليل ، غير أنه كان أشهر من أخيه نظراً لما خلفه من آثار فى تاريخ التعليم والنهضة الفكرية فى أسبانيا القوطية ، فضلا عن سعة انتشار مؤلفاته عن غيره ، ويعد من أعلام أساتذة العصور الوسطى[٢] . لم يشغل نفسه بالأمور السياسية إلا قليلا ، على عكس أخيه ليندر ، لأنه آثر الانصراف للدراسة ، وأسهم فى إنشاء المدارس كما بعث فى وطنه حركة علمية قوية انتقل أثرها إلى إيطاليا وسائر أنحاء أوربا . وقد كتب عنه تلميذه بروليون[٣] موضحاً فضله على الثقافة الدينية والمدنية فى أسبانيا[٤] .

ومن أشهر مؤلفات إيزدور وأوسعها انتشاراً كتاب « الأصـــول » (**Etymologiae**) ، وهو عبارة عن موسوعة جمع فيها كثيراً من علوم القدماء ، سواء أكان ذلك من التراث الوثنى أو التراث المسيحى ، وتعتبر هذه العلوم التى جمعها إيزدور فى موسوعته ، مفقودة اليوم أو بعيدة عن متناولنا ، ومن أجل ذلك فهى تعد بحق مرجعاً أصيلا من مراجع التراث القديم[٥] . ضمت هــذه الموسوعة علوم النحو والبلاغة والمنطق واللاهوت والفسيولوجيا وعلم الأحيــاء والطب وعلم تحليل الأتربة المعــدنية ، والمساحة والزراعة والجغرافية ، والعلوم الحربية وغيرها ...[٦] ؛ لــكن يلاحظ أن للمعــلومات التى أوردها إيزدور فى

---

(١) Deanesly, p. 109

(٢) يوسف كرم : ص ٦٣ .

(٣) أنظر ما سبق ص ١٧٣

(٤) Deanesly, p. 109

(٥) Leci , p. 309

(٦) Deanesly, pp. 111 - 12 ؛ يوسف كرم ص ٦٣ — ٦٤ .

موسوعته ، مجملة وقصيرة وبعضها خاطىء أو مضحك أو سخيف ، وأنه لم يحاول نقد مصادره المتنوعة التى اســتقى منها معلوماته ، وكثيراً ما اعتمد على الحدس والتخمين ، ومن هنا جاء مصدر الخطأ (١). ولإيزدور ، عدا هذه الموســوعة ، كتاب فى « المترادفات » (٢). وفى التاريخ : « مشاهير الرجال » وتاريخ عام وآخر عن تاريخ القوط ؛ ومن أمثلة الأخطاء التى وردت فى كتبه التاريخية ما ذكره من أن للقوط تاريخاً قديماً لا شك فيه ، وأنهم ينحدرون فى أصولهم عن يأجوج ويافث ، ثم هو يربط هذه بعنصر السكيثيين الإيرانى . غير أن هذا لا ينقص من قيمة تاريخه فى مجموعه العام ، ولا سيما فى الفترة المعاصرة له ؛ أطال فى الـكتابة عن عهد ليوفجلد أكثر من غيره ، بينما أشار إشارة سريعة إلى تخريب ألاريك لروما (٣) ؛ وربما كان فى إطالته أو اقتضابه خاضعــاً لعوامل سياسية ؛ ولأهمية مؤلفات إيزدور حملها معهم القوط الهاربون أمام الفتح العربى لشدة حرصهم عليها (٤) .

ومن حيث الفنون القوطية ، هناك خطأ شائع مؤداه نسبة طراز معين من المبانى وهى ذات القمم المدببة ، إلى القوط عامة ؛ والواقع ليست هناك صلة تاريخية بين هذا الطراز وبين ما خلفه القوط ، على قلة ما خلفوه ، فطراز هذا القليــــل يختلف تمام الاختلاف عما اصطلح عليه ، فى عرف الفنون ، بالطراز القوطى أو النمط القوطى (٥) . والمعروف أن هذا النمط ظهر لأول مرة فى فرنسا خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، أى بعد نهاية دولة القوط الغربيين بنحو أربعة قرون (٦) ؛ وعند ما أطلق هذا الاصطلاح لأول مرة ، أريد به الدلالة على عكس الطراز الرومانى ، وربمــا كان من بين أسباب إطلاق هذا المصطلح كذلك ، هو مجرد

---

(١) Deanesly, p. 112

(٢) أنظر ما سبق ص ١٧٤

(٣) Deanesly, p. 110

(٤) يوسف كرم ص ٦٤ .

(٥) Read, pp. 91 - 92

(٦) أحمد يوسف : ص ٦٦ .

التذكير بعظمة القوط السابقة ، فالتاريخ الأوربى قضى فترة من الزمن امتلأ خلالها بأحداث القوط والرومان فقط[١] .

غير أن هذا لا يعنى انعدام الفنون القوطية التى ترجع للقوط أنفسهم ، غاية ما فى الأمر ، أن القوط لم يخلفوا سوى القليل من الآثار الفنية ، ووضح فى هذا القليل الأثر البيزنطى ، من ذلك قصورهم وحصونهم ومؤسساتهم الدينية بصفة خاصة من كنائس وأديرة . وبنى أغلب هذه المؤسسات على عهد ليوفجلد وركارد وركسونث ووامبا ، واقترن اسم الأخير بكثير من الإصلاحات والمؤسسات المعمارية فى طليطلة العاصمة ، فهو الذى بنى أسوارها الكبرى وما عليها من أبراج ، بناها وامبا على أطلال رومانية قديمة[٢] ؛ ومن أمثلة المبانى التى ترجع كلها أو بعضها العصر القوطى فى أسبانيا كنيسة القديس رومان والقديس جوان فى فالنسيا (بلنسيه) وكنيسة القديس ميجويل فى تاراسا (Tarrasa)[٣] . وأهم ما عثر عليه من الآثار الفنية للقوط ، هى الكنوز التى اكتشفت بالقرب من طليطلة وماردة وقرطبة ، وتشمل عدداً من الأكاليل والصلبان المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة ، وكذلك كمية من أدوات الزينة الثمينة والأوعية الخاصة ببعض الكنائس ؛ ونتبين من هذا الكنز إكليلين من النوع الذى يقدم عادة كقربان ، وهما مقدمان من الملك سونثلا (٦٢١ — ٦٣١) والملك ركسونث (٦٤٩ — ٦٧٢) وقد برز الأثر بيزنطى واضحاً سواء أكان فى الشكل العام أو فى التفاصيل[٤] ؛ عثر كذلك على عدد من العملات القوطية والميداليات التى ضربت تذكاراً لانتصاراتهم ، وهذه أيضاً صنعت على النسق اللاتينى والبيزنطى ، ومن النقود التى عثر عليها ما يرجع إلى إرمنجلد وليوفجلد وسيسبت[٥] .

---

(١) Bradley, p. 365, F. N. I.

(٢) Lynch, pp. 38 - 40

(٣) C. med. H., II, p. 193

(٤) Deanesly, p. 94

(٥) C. med, H , II, p. 193; Bradley, pp. 323, 26, 34, 36

المراجع

(ا) المراجع العربية :

١ — الكتاب المقدس (العهد الجديد)

٢ — ابن الأثير :

تاريخه — بولاق ١٢٨٤ هـ

٣ — ابن القوطية :

تاريخ افتتاح الأندلس (نشره وترجمه إلى الأسبانية د. ج. ريبرا — Don Julián Ribera)

مدريد ١٩٢٦

٤ — ابن خلدون :

(ا) المقدمة — مصر ١٣٢٧ هـ

(ب) تاريخه — مصر ١٩٣٦ هـ

٥ — أحمد أحمد يوسف ومحمد عزت مصطفى :

خلاصة تاريخ الطرز الزخرفية والفنون الجميلة

مصر ١٩٤١

٦ — أرسلان (الأمير شكيب) :

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية .

فاس ١٩٣٦

٧ — المراكشى (ابن عذارى) :

كتاب البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب

(نشره وحققه كولان وليفى بروفنسال G. S. Colin-
E. Lévi - Provençal) ليدن ١٩٥١

٨ — المقرى (أحمد) :
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب مصر ١٣٠٢ هـ

٩ — أومان :
الأمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور طه بدر)
مصر ١٩٥٣

١٠ — بدر (الدكتور عبد المنعم وزميله) :
مبادىء القانون الرومانى مصر ١٩٥٦

١١ — بينز :
الأمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور مؤنس
والأستاذ زايد) مصر ١٩٥٠

١٢ — راوس : التاريخ الأنجليزى (ترجمة الدكتور زياده) مصر ١٩٤٦

١٣ — فشر (ا) تاريخ أوربا فى العصور القديمة (ترجمة الدكتور
نصحى والدكتور عواد) مصر ١٩٥٠
(ب) تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (جـ١ : ترجمة الدكتور
زياده والدكتور الباز) مصر ١٩٥٤

١٤ — لوبون (جستاف) :
حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) مصر ١٩٤٨

١٥ — مؤنس (الدكتور حسين) :
فتح العرب للمغرب مصر ١٩٤٧

١٦ — يوسف كرم :
تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط مصر ١٩٤٦

(ب) المراجع الأجنبية

1 — **Barker (E.) ;**

From Alex. to Constantine, Passages and documents illustrating the Hist. of Social and Political Ideas. (Oxf., 1956)

2 — **Boissonnade (P.) ;**

Life and Work in Medieval Europe, Trans. by : E. Power (Lond., 1937)

3 — **Bradley (H.) ;**

The Goths, From the Earliest Times to the end of the gothic Dominion in Spain. (Lond., 1887)

4 — **Bryce (J.) ;**

The Holy Roman Empire (Lond , 1915)

5 — **Bury (J.) ;**

History of the Later Roman Empire. 2, vols , (Lond , 1931)

6 — **C. Med, H.** Vols, 1,II.

7 — **Courcelle (Pierre) ;**

Histoire Littéraire des Grandes Invasions Germaniques (Paris, 1948)

8 — **Creighton (M) ;**

History of Rome (Lond., 1910)

9 — **Davis (R. H. C.) ;**

A History of Medieval Europe, From Constantine to St Louis. (Lond., 1957)

10 — **Deanesly (M.) ;**

A History of Early Medieval Europe, 395 - 814 (Lond , 1956)

11 — **Diehl (Ch.) ;**

A - L'Afrique Byzantine (533 - 709) (Paris, 1896)
B - Histoire de L'Empire Byzantine (Paris, 1924)

12 — **Dill (S.) ;**

Roman Society, in the Last Century of the Western Empire (Lond., 1925)

13 — **Dozy (R.) ;**

Les Musulmans de L'Espagne (Leiden, 1861)

14 — **Eyre (E.) ;**
European Civilization, its origins and development. (by various contributors under the direction of E. Lyre, Oxf., 1935)

15 — **Fleure (H J.) ;**
The Peoples of Europe (Lond., 1925)

16 — **Frank (T.) ;**
A History of Rome (New York, 1947)

17 — **Gibbon (E) ;**
A History of the Decline and Fall of the Roman Empire (Lond., 1848)

18 — **Guizot (M.) ;**
Histoire de la civilisation en France (Paris, 1868)

19 — **Hadrill (W.) ;**
The Barbarian West (Lond., 1952)

20 — **Halphen (L.) ;**
Les Barbares, 400- 1000 (Paris,, 1926)

21 — **Hodgkin (T.) ;**
Italy and Her Invaders vol. 1, (Oxf., 1892)

22 — **Lavisse et Rambaud ;**
Histoire Générale, T Premier : Les Origines (Paris, 1922)

23 — **Leclercq (Dom. H.) ;**
L'Espagne Chrétienne (Paris., 1906)

42 — **Lot. (F.) ;**
Les Invasions Germaniques, La Pénétration mutuelle du monde Barbare et du monde Romain (Paris, 1935)

25 — **Lynch (H.) ;**
Toledo (Lond., 1903)

26 — **Mommsen (T.) ;**
The History of Rome, vol. III, (Lond., 1913)

27 — **Moss (H. St. L. B.) ;**
The Birth of the Middle Ages (Oxf. 1943)

28 — **Oman (Sir ch.) ;**
The Dark Ages 467 - 918 (Lond., 1942)

29 — **Painter (S.) ;**
A History of the Middle Ages, 284- 1500 (New York, 1954)

30 — **Perroy (E.) ;**
Le Moyen Age (Paris, 1955)

31 — **Pirenne (H.) ;**
A History of Europe From the Invasions to the 16th. century (Lond., 1936)

32 — **Pirenne (J.) ;**
Les Grandes Courants de l'Histoire Universelle (Neuchatel, 1947)

33 — **Read (H.) ;**
The Meaning of art (Lond., 1951)

34 — **Ripley (W. Z.) ;**
The Races of Europe (Lond., 1899)

35 — **Stevens (C. E.) ;**
Sidonius Apollinarius and his age (Oxf., 1933)

36 — **Tacitus ;**
A Treatise on the Situation, manners and inhabitants of Germany (The Oxford Translation, Lond., 1894)

37 — **Taylor (I) ;**
The Origins of the aryans (Lond., 1889)

38 — **Thompson (T. W.) ;**
History of the Middle ages (Lond., 1931)

39 — **Watts (H. B.);**
Spain. (Lond., 1893)

40 — **Zeller (J.) ;**
Histoire Resumé d'Italie (Paris, 1876)

(حـ) دوائر المعارف

1 — **Encyclopedia Brittannica**
Arts. : Goths - Germanic Laws

2 — **Encyclopaedia of Religion and Ethics**
Arts. : Arianism - Athanasius

الفهرس

الصفحة

الفصل الثالث

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	حاشية ٢	Ibid	Tacitus
١٥	٦	أدرا	نادرا
١٦	١٣	للجمعية	على الجمعية
١/٤	الأخير بالحاشية ٢	Vangioues	Vangiones
٢٦	١	٣٨ ق. م.	٢٨ ق.م.
٢٨	٢١	عتويا	عتوما
٣٠	٧	Aeuileia	Aquileia
٣١	١٥	Peueinj	Peucini
٣٢	١	Gothes	Goths
	١	أطلالا	إطلاقا
	٧	القتريم	القديم
	١٤	Guttoues	Guttones
	الأخير بالحاشية ٣	Idodgkiu	Hodgkin
٣٣	١٢	Gothbiand	Gothland
٤٧	حاشية ٢	Firenu	Fleure
٩٥	٨	Anvergne	Auvergne
٩٦	١٦	Durnce	Durance
١٠٦	٧	Flaviusy	Flavius
١١٠	٥	وأعطى	ويعطى
	٧	رجوعه	خروجه
١٧١	١٠	Grammatic	Grammatica











